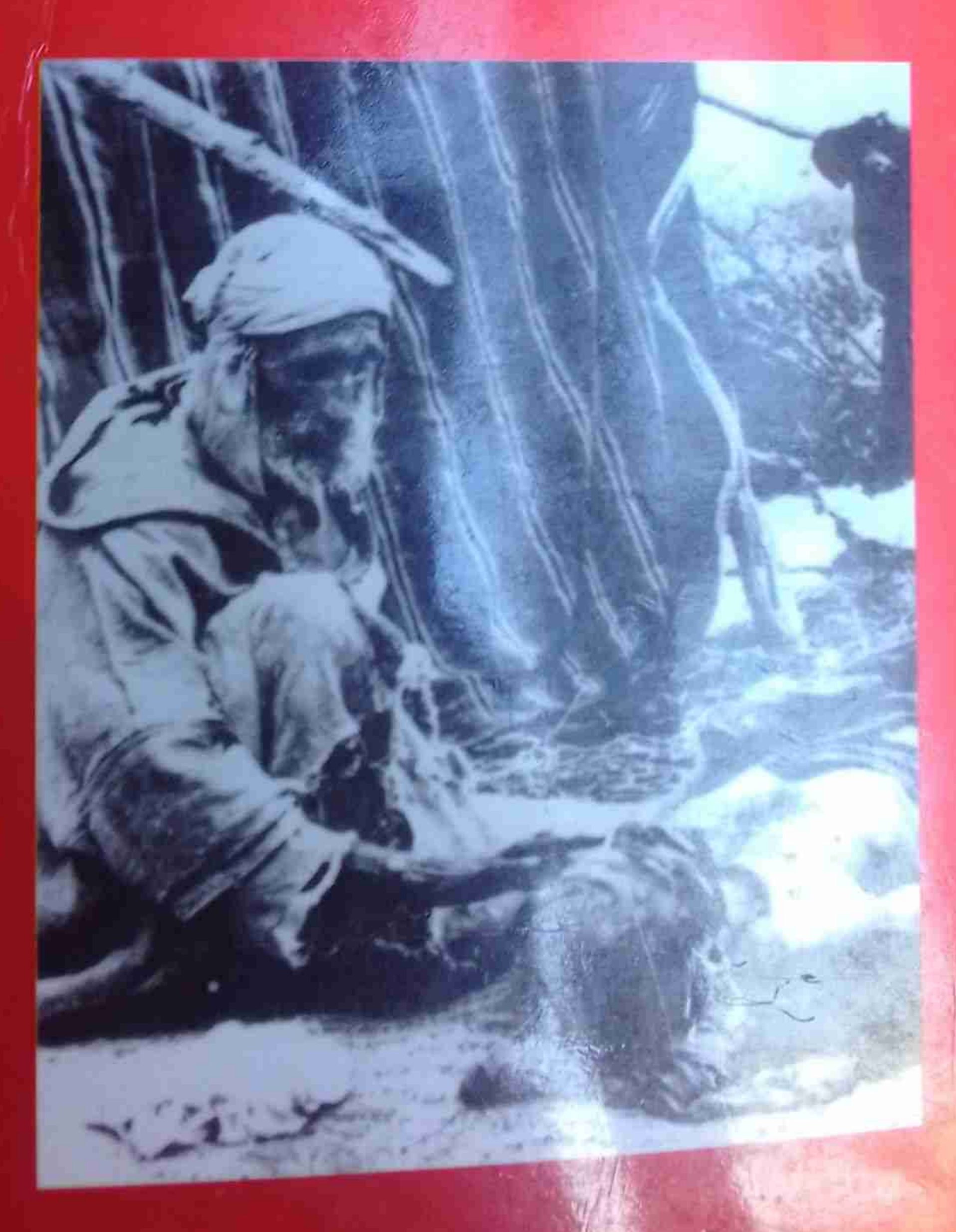
الأستاذ محمد الصالح الصديق

كيف ننسى وهذه جرائمهم ؟



دار هومه

الأستاذ/ محمد الصالح الصديق

كيف ننسى وهذه جرائمهم؟

الطبعة 2009



صنف : 4/210
– الإيداع القانوني : 2569/2005
– ردمك : 978-9961-66-945-7

www.editionshouma.com
email : Info@editionshouma.com

الإهداء

- إلى المناضلين الأحرار الذين وقفوا أنفسهم على الدفاع عن الحرية في كل مكان وخاصة في الجزائر أرض ملايين الشهداء.
- وإلى شهداء الجزائر الأبطال الذين قدّموا أرواحهم فداءً للجزائر منذ الاحتلال إلى يوم أن تحررت، وقذفت بمحتليها إلى ما وراء البحر!
- وإلى المعذبين في سبيل الجزائر، وصبروا، وصمدوا وتحدوا، حتى لفظوا أنفاسهم: من شيوخ رُصفوا في ساحة ثم مرت عليهم الدبابات الثقيلة فصاروا عجينا من دم وتراب، وشبانٍ حُرقوا أحياء بعد أن عذبوا أفظع تعذيب فاستحالوا إلى رماد، ومن حبالى بُقرت بطونهن على رهان زجاجة من الخمر بين الجنود، وعذارى اغتُصب شرفهن بوحشية تفوق كل تصوير ثم قتلن شر قتلة.

إلى هؤلاء جميعا، أهدي هذا الكتاب.

المؤلف

كلمات في الصميم

.. فوراء هذه الوجوه المتجهمة الخائفة تتوقد نيران الوطنية المتحمسة، عندما يرى المرء ذلك تمام الإدراك، أنه ما من شيء يستطيع أن يخضع هذا الشعب، لا السجن ولا التعذيب ولا الموت.. لقد نذروا أنفسهم للنضال حتى النهاية، نهاية الحكم الأجنبي والاحتلال! (اعرف عدوك) إنها لحكمة قديمة صحيحة ولكن الفرنسيين يبدون وكأنهم قد رموا بها عرض الحائط!

(عن ريمون أرون في كتابه "الاستقلال للجزائر")

هل يمكن للعقل والضمير أن يقرأ عمليات اقتلاع الأظافر بالكلابات؟ وتسليط المجرى الكهربائي على الأعضاء التناسلية وتمزيق لحوم الأبرياء بالأسلحة الجارحة؟ وتغطيس وجوههم في أحواض مملوءة بأوساخ المراحيض؟

تلك أشياء لا تصدق... ومع ذلك فهي تحدث في سجون فرنسا، وفي هذا الكتاب مجموعة شهادات يدلي بها الأشخاص أنفسهم الذين عانوا آلام التعذيب الرهيبة، وتقلبوا على أسياخ فوق نار مشتعلة!

في هذا الكتاب عار وخزي ووحشية ونازية في أبشع صورها، تظهر من رجال الأمن الفرنسي، وبطولة وبسالة وجبروت يسجلها فتيان في عمر الزهور من أبناء الجزائر العربية!

هاك أيها العربي، هذه الصفحات الرهيبة، وإن دمعت عيناك لفظاعة التعذيب، فسترى نفسك مضطرا إلى أن تكبر الإباء العنيد والوطنية الفذة.

(عن كتاب "الغنغرينا"، أو تعذيب الجزائريين في باريس).

ستدوس أقدام الشعوب كخرقـة   مهروءة من كان سوط جـلاء
فيرون كيف تجيد في إبانـهـا   صنع المعاجز جذوة البغضاء
سيـرى عتـاد الأجـنـبيّ بعينـه   مرمى عقيـدة أمـة عـزلاء

(الجواهري)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

أمران اثنان بلغا أقصى حدودهما خلال ثورة التحرير الجزائرية: بطولة الشعب الجزائري بمختلف فئاته، والتعذيب الجهنمي الفظيع الذي ما انفكت زبانية الاستعمار الفرنسي تمارسه على هذا الشعب من يوم اندلاع ثورته إلى يوم انتهائها!

والذي ينتزع الإعجاب بحق هو أن المستعمرين الطغاة كلما ضاعفوا التعذيب، واخترعوا بعبقريتهم وسائل لقمع هذا الشعب والتنكيل به، ومحاولة القضاء عليه، ارتفعت معنوياته، وتضاعفت قوته، وقوي صبره وجلَده، واستطاع أن يُواجه المحن والشدائد ويتحمّلها!

وإذا كانت السلطات الاستعمارية الفرنسية قد كتبت لفرنسا في الجزائر خلال ثورة التحرير تاريخا مادته الخزي والعار، وسطوره الوحشية والهمجية، والدماء والدموع، وهتك الأعراض، ودوس الحرمات، سيظل مرجعَ الكتّاب والمؤلفين والباحثين، فإن الشعب الجزائري قد كتب للجزائر تاريخا مادتُه العزة والفخار، وكلماته الشجاعة والبطولة، والعِفّة والشهامة، والتضحية من أجل الحرية والسيادة، وستحتفظ الأيام عبر الحياة بالتاريخين معا، يُذْكَر أحدهما بالإعجاب والتقدير، والفخر والاعتزاز فتنطلق الألسن بالإشادة والتنويه، وتجري الأقلام على القِرطاس تنشر النور المبين! ويُذكَر الآخر بالاشمئزاز

والانقباض واللعنة والسخط، كما تذكر الجراثيم والأوبئة الفتاكة، فتنطلق الألسن بالنعي والتنديد والاستنكار، وتجري الأقلام على القرطاس تنفُث الظلام، وتنشر الخزي والعار!

«على أن النفوس التي قُتلت ستعوضها الولادة، والديار التي هُدمت ستجددها العمارة، والزروع التي أهلكت سيعيدها الغراس، ولكن قتيلاً من قتلى هذه الحرب الطحون لن تُعوضها الولادة، ولا العمارة، ولا الغرس، ألا وهو شرف فرنسا»[1].

البطولة

البطولة هي الشجاعة، والبطل هو الشجاع المقدام الذي لا يعرف الإحجام عندما يحاصره الموت من كل جهة، وسمي بذلك لبطلان الحياة عند ملاقاته للموت، ولا يبقى نصب عينيه وفي أعماق نفسه إلا أمران اثنان، هما النصر أو الشهادة، وما عداهما فلا وجود له في حياة البطل.

وتعرف البطولة بأنها قوة نفسية خلقية لا كلفة فيها، وإقدام لا أثر للتصنع فيه، وهي فضل من الله يؤتيه من يشاء من عباده!

وهي ضرورة وخاصة في الحروب، وقد ثبت بالتجربة أن القوة المادية وحدها مهما كان نوعها وفعاليتها، لا تكفي بلا بطولة وشجاعة، فالعصا في يد البطل سلاح خطير، والرشاشة في يد الجبان الرعديد لا معنى لها ولا جدوى!

---

(1) من كتاب "في ضوء الرسالة" للأستاذ أحمد حسن الزيات بتصرف قليل، ص 228.

وقليل من التأمل في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وسِيَر الصحابة يرينا أن القاعدة الأساسية التي ترتكز عليها السيادة فوق هذه الأرض هي القوة، ولا سيادة فوق هذه الأرض إلا بالقوة، ولا سيادة لمن لا قوة له.

وهذه القوة يقررها القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، إن الله قوي عزيز﴾[1].

ومعنى ذلك أن علّة إنزال الحديد من السماء، هي لإعداد القوة التي بدونها لا سيادة فوق هذه الأرض ولا وجود!

وفي القرآن الكريم آية أخرى تأمر بإعداد القوة وهي قوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، وما تُنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تُظلمون﴾[2].

والقوة في الآية تشمل كلّ أنواع القوة من معنوية، كقوة الإيمان، وقوة الأخلاق، وقوة الفكر، وقوة العلم، وقوة الكلمة، وقوة التخطيط، وقوة الوحدة والتضامن، ومادية بمختلف أنواعها من مال، ورشاشات، ودبابات، وطائرات، وبوارج، وصواريخ، وقنابل، ورجال حربيين مدربين على استعمال الأسلحة، وكيفية مواجهة العدو!

---

(1) الحديد 25.

(2) الأنفال 60.

وإذا كانت القوة المادية ضرورية لازمةً لإقامة الحياة العزيزة الكريمة، فوق هذه الأرض، فإن القوة المعنوية أشد ضرورة، لأنها أجدى نفعا، وأحسن عاقبة، وأضمن ربحا!

وفي بطون كتب التاريخ والسير، ما يثير الدهشة من آثار القوة المعنوية، وصور فعاليتها العجيبة، فكل ثورة، وكل نهضة، وكل حركة فوق هذه الأرض، كانت القوة المعنوية مفجرَها ومغذيَها ومحركَها، وموجهَها، والضامنَ لاستمرارها ونجاحها: «ثورة المجددين في الدين، ثورة زعماء الإصلاح، ثورة الفلاسفة والحكماء، ثورة العلماء المخترعين، ثورة الشعوب المستعمرة، ثورة الأبطال من قادة الحروب».

فمن وراء كل ثورة، أو نهضة، أو حركة تغييرية، قوة روحية، على قدر قوتها وفعاليتها يكون الدفع والمد، ويكون البعث، ويكون التحويل والتغيير!

والشعب الجزائري غني بهذه القوة، متميز بها عن كثير من الشعوب، وإذا كان الناس معادنَ فإن الشعوب كذلك معادن، والشعب الجزائري من معدن الذهب، يشهد بهذا تاريخه الحافل بشدة البأس، وصلابة العود، ومضاء العزيمة، وعلو الهمة، وحب الحرية، والثقة بالنفس، والاستعصاء على الموت!

وتاريخ الشعب الجزائري مع الاحتلال الفرنسي البغيض، أعنف تاريخ عرفته البشرية، إنه تاريخ المحن والشدائد والويلات، تاريخ المشاق والأهوال، تاريخ الآلام والحرمان، تاريخ المسخ والفسخ والتشويه، تاريخ الإبادة والتدمير!

ولكن الشعب الجزائري كان أقوى من المحنة والابتلاء، **وأشد من** الخطوب والأحداث، وأثبت من الجبال الرواسي، **بفضل قوته المعنوية** العالية، (وهذا من مفاخر الجزائر).

ولولا هذه الحياة القاسية المليئة بالشدائد والأهوال، لما عُرِف معدن الجزائر الذهبي!

فالمحن والشدائد ثقيلة على النفس كريهة لديها، مرغوب عنها، ولكنها في واقعها ضرورة لأنها ترتفع بالإنسانية من طين التكوين الأول إلى شفافية الإنسانية الرفيعة، وتعلو صاعدةً إلى العلا، مصداقا لقوله تعالى:

(ولقد فتنا الذين من قبلهم، فليعلمنّ اللهُ الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين)[1].

أما مصدر هذه القوة العالية التي تسلّح بها الشعب الجزائري، والتي جعلته في أمن من التميُّع والتحلل، وكانت له الحصنَ المنيعَ طوال عهد الاحتلال، واليدَ الجامعة لصفوفه، والقوة الدافعة لطاقاته، فهو بلا ريب الإسلامُ الذي ربّى هذا الشعب على العقيدة والإيمان وعلى العزة والكرامة، وغرس فيه القيم الروحية، والأخلاق العالية، وعلمه أن المنايا خير من الدنايا، وأن حياة الحرية والكرامة، لا تتسع إلا لذوي الهامات المرفوعة، والجباه العالية، وأن الحياة لا تعطي إلا بقدر ما تأخذ، وأن الذين يقررون مصير شعوبهم فوق هذه الأرض، إنما هم أصحاب النفوس الكبيرة، والعزمات القوية الذين يقتحمون المهالك، وينازلون الأخطار ولا يبالون:

---

(1) العنكبوت 3.

﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ [1].

هذه القوة الروحية العالية بدلالاتها العميقة، هي التي فجرت ثورة نوفمبر الخالدة سنة 1954 وأهابت بأبناء الشعب الجزائري أن يندفعوا إلى ساحات الوغى، ليفتكوا حريتهم، فاستجابوا للنداء، واندفعوا إليها بهذه القوة، يُرجفون القلوب، ويرْعِدون الفرائص، ويزلزلون الأرض تحت الجيوش والفيالق الفرنسية، التي كان يزحم بها فضاء الجزائر.

وتواصلت المعارك والملاحم طوال سبعة أعوام ونصف عام بين المجاهدين وهذه القوات الفرنسية بمختلف أسلحتها العصرية الخفيفة والثقيلة، البرية والجوية والبحرية، ثم انتصر الشعب الجزائري وافتكّ حريته وألغى نهائيا خرافة (الجزائر فرنسية).

والذي يُثير الدهشة، ويدعو إلى وقفة تأملية، هو أن هؤلاء الذين انتصروا على قوة من أكبر القوى في العالم لم يتخرجوا من مدارس وكليات حربية، ولم يكن سلاحهم الدبابات والطائرات، ولم يكن الغذاء يتوفر لهم غالبا لا كما ولا كيفا، شأن عدوهم، ومع ذلك انتصروا، وفرضوا إرادتهم، وقرروا المصير كما شاءوا وكما أرادوا، فبماذا يعلل هذا النصر المبين الذي لا يتوقعه المؤمنون بالقوة المادية فقط؟

---

(1) آل عمران 173 — 174 .

إن التعليل الوحيد الذي يسلم به كل عاقل بصير، هو أن القوة الروحية، هي التي فجّرت في كيان الشعب الجزائري تلك القوة الهائلة، وهي التي ألهمت أبطال هذا الشعب أساليب الكفاح، وهي التي أعطتهم الثبات والجلَد، وهي التي جعلتهم يواجهون القوات الفرنسية الرهيبة وينتصرون عليها، ويسجلون أروع البطولات في تاريخ القرن العشرين.

وإذا كانت البطولة غريزة في بعض الناس، فإنها غريزة في هذا الشعب كله، يحس بها كل فرد قوةً تتأجج بين أضالعه، مما جعل كل أفراده – إلا الشاذّ منهم– يؤدون ضريبة الجهاد في استبسال عنيد، ويلاقون من العنت والإرهاق والتعذيب والموت، ما يشيب الوليد، ومع ذلك فهم يبتسمون، ويشمون رائحة أجسامهم وهي تشوى، ومع ذلك فهم صابرون، لا يضعفون ولا يستكينون، وإنما يقولون بقوة وعزم وتصميم: اللّه أكبر، تحيا الجزائر.. (وهذا من مفاخر الجزائر).

وبهذا الشيوع والشمول فقدت البطولة وصف (الميزة النادرة) في الجزائر، فلم تعد مبعث فخر واعتزاز، لأنها أصبحت شيئا فشيئا، مشاعا بين كل أفراد الشعب الجزائري تقريبا، فكل واحد يحمل بين أطوائه قصة كفاح، وحكاية نضال وتاريخ صمود.

إن كل فرد من أفراد هذا الشعب بطل ظهرت بطولته في مجال من مجالات المواجهة أو الصمود، أو الدفاع عن الحق، والاستماتة فيه، أو التضحية بالمال، أو إيثار الموت على البذل أو رفض الخيانة، أو تحدي عوامل الموت والفناء (وهذا من مفاخر الجزائر).

إن هؤلاء جميعا أبطال، وقفوا مواقف باهرة، جديرة بالإشادة والتقدير، وكلهم قرأوا ألف حساب لقضية وطنهم، وكلهم رأوا أن التاريخ سيحاسبهم غدا، وأن الحر الأبي من قدم كتابه عن نصيبه في الجهاد أمام التاريخ، وأمام الأجيال المتعاقبة.

وكل ذلك بفضل الروح المعنوية التي غرسها فيهم الإسلام بقيمه وأخلاقه (وكل ذلك من مفاخر الجزائر).

التعذيب:

الأمر الثاني الذي بلغ أقصى الحدود خلال ثورة التحرير هو (التعذيب) والتعذيب كان معروفا في ماضي الإنسانية البعيد أداة شرعية يستعملها القانون ولا ينكرها العرف.

وقد عرف التاريخ في العصور المظلمة الغابرة صورا فظيعة من التعذيب، هوت بالإنسان إلى الحضيض، فصار بها كالبهيمة الوحشية القذرة.

والإنسان إذا تجرد من المعاني الإنسانية، وطغى عليه الحقد البشري، وتنكر للقانون، تحول إلى جرثومة فتاكة، وخلية قذرة، وجرح متعفن.

وإذا كان الإنسان قد تقدم علميا في القرن العشرين، واتسعت مداركه الفكرية، وتطور تطورا مدهشا في مختلف مجالات الحياة، فإنه في نفس الوقت، قد تقدم وتطور بقدر ذلك في مجال التعذيب، وصار يحترفه كوسيلة شبه رسمية لمحاربة العدو، يمارسه على أوسع نطاق، وخاصة في الشعوب المستعمرة، ضد الأحرار المناضلين.

يقول بيبار هنري سيمون (Pierre Henry Simon) في هذا الصدد:

«إن ممارسة التعذيب هي إحدى مخازي الإنسانية، ويمكن الإيضاح أنها صارت أحد عيوب المدنية الغربية، التي ظلت ترضى بها باستمرار حتى نهاية القرن الثامن عشر واستعيدت في القرن العشرين تحت أشكال يكثر الاعتراف بها أو يقل»[1].

وفي الحرب العالمية الثانية شاهد التاريخ صورا من التعذيب الوحشي لا أفظع منها ولا أقذر، قام بها النازيون ضد المساجين، والأسرى المقاومين.

ولما اندلعت الثورة التحريرية أول نوفمبر 1954 للتصحيح الضروري الواعي لأخطاء الإنسان وتفريطه، والقضاء نهائيا على الاستعمار الفرنسي البغيض، الذي لم يفتأ الشعب الجزائري في صراع معه منذ 1830 – اهتزّت فرنسا غضبا، وشق عليها أن ترى هذا الشعب الذي استعمرته منذ قرن وربع قرن، يعلنها ثورة عارمة على قمم الجبال، مدوية مجلجلة على ألسنة روادها الأبطال، لأن عهد الاستعمار قد مضى في هذه البلاد إلى الأبد، وأن الشعب الجزائري قد اختار الطريق الصحيح وإن كان صعبا شاقا، محفوفا بالمكاره والمهالك، فأخذ أبطال الجزائر يخوضون مع أحفاد نابليون معركة غاب منها التكافؤ: جيش يفوق بعدده 800 ألف مقاتل زود بأحدث الأسلحة على اختلاف الأنواع التي تملأ مستودعات حلف الشمال الأطلسي.

---

(1) ضد التعذيب ص 9.

وقد بدأ أبطال نوفمبر ثورة التحرير ببنادق الصيد، ثم صاروا بفضل إيمانهم، وشجاعتهم، وعدالة قضيتهم، وثقتهم في النصر، قوة هائلة يحسب لها ألف حساب.

رأت فرنسا أنها تحارب جيشا صمم على إحدى الحسنيين: إما النصر وإما الشهادة، فجندت كل ما تملك من وسائل الإبادة والقمع، لإخضاع الشعب الجزائري، والقضاء على ثورته، فكان التعذيب من بين هذه الوسائل، وإن كان أشدها خطرا، لأنه محاولة لا إنسانية، تستهدف تجريد المتهم من كل صفاته الإنسانية: الشجاعة، والإرادة، والذكاء، والأمانة، كما تستهدف تشويه جسمه، وروحه، وعقله، والنزول به إلى مرتبة الحيوان المملوك البائس! (وهذه من مخازي فرنسا)[1].

ومن القضايا التي لا تحتاج إلى دليل، أو كلام طويل، هو أن التعذيب في الجزائر خلال حرب التحرير، لم يكن سرا، بل كان العالم كله يعرفه، وكان أيضا يمارس كفن خاص، له قواعده وآلاته وأمكنته ورجاله الاختصاصيون، وكان نظاما كاملا ومقننا، وجهازا تاما يطبق في مختلف أنحاء القطر الجزائري، لمقاومة زحف الثورة نحو الحرية والاستقلال.

وهذا التعذيب كان يتطور يوميا، ويتنافس زبانيته في تطويره، والتفنن فيه، واختراع وسائل للتعذيب، وألوان من أساليب جهنمية لا يتصورها العقل، ولا يمكن للخيال المجنح أن يدركها، وأشقى الناس وأتعسهم على الإطلاق من يقع في أيدي هؤلاء الوحوش الضارية والمناجيس القذرة.

---

(1) انظر كتابنا "صفحات من جهاد الجزائر".

يقول جان بول سارتر (Jean paul Sartre): سعداء هم أولئك الذين ماتوا من غير أن يضطروا إلى التساؤل: أتراني أتكلم إذا هم نزعوا أظافري؟ وأكثر سعادة منهم أولئك الذين لم يجبروا وهم لم يكادوا يفارقون الطفولة على أن يتساءلوا هذا السؤال الأخير: ماذا تراني أفعل إذا عمد أصدقائي وإخواني في السلاح ورؤسائي إلى انتزاع أظافر عدو أمام عيني؟[1].

ويتقاضانا الحرص على الإشادة بصمود هذا الشعب العظيم، وبطولته النادرة، وما عاناه من التعذيب الأليم، في سبيل حريته، وما يتمتع به من الروح المعنوية العالية، التي كانت صخرة صلبة تتحطم عليها كل المحاولات التي كانت تبذل من أجل النيل من هذا الشعب، وصده عن حريته - يتقاضانا أن ندرج هنا ما نشرته مجلة أنفورماسيون كاثوليك أنترناسيونال (Information Catholic International) في عددها الصادر في شهر آب سنة 1960 لأحد المحررين جاء فيه ما يلي: «والحقيقة أن مسألة التعذيب، والقتل بدون محاكمة، أثارها عدد كبير من الأشخاص الذين حدثتهم: قساوسة، وأساتذة، وعسكريون، ومحامون، فمنهم من أجرى عمليات التعذيب بنفسه، ومنهم من شاهدها، ومنهم من سمعها ممن ارتكبوها أو تلقى شكاوى الضحايا».

وقد قال لي أحد المعلمين الفرنسيين:

إن ضابطا صديقا له قص عليه كل تفاصيل عمليات التعذيب التي يجريها على المشبوهين.

---

(1) عارنا في الجزائر ص 93.

ثم قال له في نهاية الأمر:

«ها هي صورة لتعذيب وحشي فظيع، مارسه أحد الجلادين على واحد من المناضلين الموقوفين، ولكن هل في استطاعتنا أن نصوغ بالفكر والقلم صورة عن آلامه النفسية والجسمانية، وهو على المركبة الحديدية، أو بين ألسنة النار الصاعدة، أو التيارات الكهربائية، أو قرب نافذة الزنزانة يستمع إلى عويل المعذبين وأناتهم الحزينة؟»

طبعا لا سبيل إلى ذلك، والآلام النفسية أشد وقعا، وأقسى ألما، وأعمق تأثيرا من الآلام الجسمانية.

إذن فما نذكره –في هذا الكتاب– من صور التعذيب ليس إلا تصويرا ظاهريا وشكليا، أما التعذيب الحقيقي فلا يصوره قلم، ولا تحيط به كلمات، مهما بلغت من الفصاحة والبلاغة والبيان.

وقبل ذلك، إليك –قارئي الكريم– هذا التمهيد الذي لابد منه:

يوجد مركز للتدريب على فنون التعذيب ووسائله في مدينة "سكيكدة" يحمل اسم "جان دارك" ونشرت الصحيفة المسيحية الفرنسية تيموانياج كريستيان سنة 1961 حديثا دار بين أحد محرريها وأربعة ضباط فرنسيين، قضى كل واحد منهم عاما في الحرب الجزائرية، يعمل قائدا في منطقة من مناطق العمليات العسكرية أو مساعد قائد.

وقد جاء في هذا الحديث أن من أهم الإرشادات التي تعطى في مركز "جان دارك" للتعذيب، أن تكون عملية التعذيب (إنسانية) أي يجب أن تنتهي حالما يصرح الشخص المعذب بما يطلب منه.

وأوجب من ذلك ألا تترك العملية أي أثر بالجسد، وهذا لا يتحقق إلا باستعمال الماء والكهرباء، اللذين لابد منهما في كل عملية تعذيب.

وذكر أحد الضباط أن كثيرا من الذين يقولون بالتعذيب، يرون أنه في الإمكان الحصول على بعض الإرشادات بواسطة استعمال وسائل التعذيب العنيفة الجهنمية، التي لا يتحملها أحد.

وهنا لاحظ بعضهم لبعض في شيء من المزاح والمداعبة قائلا: «سنستعمل معك وسائل الشدة والعنف، وسوف تعترف قطعا بأنك تجمع الأموال لفائدة جبهة التحرير الوطني».

وإذا كان الأخصائيون في فنون التعذيب يحرصون على أن تكون عملية التعذيب (إنسانية) بحيث تنتهي بمجرد الاعتراف، وبدون أن تترك أي أثر بالجسد، فإن ذلك في محيط أقوالهم ونظرياتهم فقط، أما عند التطبيق فإنهم يتجردون من كل معاني الإنسانية، ويهبطون إلى أسفل درجات الانحطاط الروحي والعقلي، ويفترسون الضحية كأنهم وحوش ضارية مكلوبة.

وإذا صادف أن رأيت معذبا لم تظهر على جسده آثار التعذيب، فذلك قليل نادر، إن لم يكن يحمل آثار التعذيب على جسمه، فإنه يحملها على عقله ونخاعه الشوكي (وكل هذا من مخازي فرنسا في الجزائر).

والذي يلاحظ في إعجاب ودهشة، هو ذلك الصمود الرائع، الذي يواجه به الموقوفون تلك الأنواع البشعة من التعذيب، إنهم يزدادون قوة وإصرارا، وعزما وعنادا كلما ازداد عذابهم وتضاعف آلمهم، وتراهم رغم ما هم فيه من العذاب المهين، يحتفظون بطاقاتهم المعنوية، حتى في اللحظات الرهيبة، التي يواجهون فيها الموت.

إن الطغاة الفرنسيين يحاولون في وحشية وضراوة، وبكل ما يملكون من وسائل التحطيم والتدمير، ومن حيل سافلة يحار منها الشيطان، أن يحملوا الموقوف على الكلام، ويجبروه على الخيانة لعقيدته، ومبدئه، ووطنه، وينتزعوا من أعماقه ولو شبه اعتراف. ويندهش الإنسان من ذلك الصبر النادر الذي يبديه الموقوف، ومن ذلك الاحتمال المتميز، ويتساءل كيف استطاع أن يقف ذلك الموقف ويتحمل ما تحمّل من التعذيب؟!

والجواب هو أنه استطاع ذلك، بالقيم الروحية، والمعاني الإنسانية، التي غرسها فيه الإسلام، وهي التي ظل بها على كيانه وشخصيته طوال الاحتلال المقيت، وبها أيضا واجهت كتائب جيش التحرير الوطني قوات فرنسا العسكرية الهائلة وانتصرت عليها (وهذا من مفاخر الجزائر).

ونحن نؤكد هذا لإيماننا الجازم بصحته، ولكننا في الوقت نفسه لا نستهين بالقوة المادية، ولكننا نكرر ما لاحظناه آنفا من أن القوة المعنوية قبل القوة المادية، والتجارب المعيشة في ميدان الحرب بالخصوص خير شاهد على ذلك.

وهكذا تتضح المأساة الإنسانية التي عاشها الشعب الجزائري وعاناها خلال حرب التحرير في سبيل حريته، تلك المأساة التي يجب على أبنائنا بالخصوص، أن يعرفوها، حتى يعلموا أن هذه الحرية التي يتمتعون بها اليوم لم يتصدق بها عليهم "دوغول" (Charles De Gaulle) وإنما كان مهرها غاليا، لا يدرك غلاءه إلا من عاش هذه المأساة وتلظى بنيرانها.

إن الاستعمار الفرنسي الفاجر الأهوج، ألحّ على الشعب الجزائري بكل وسائل القهر والخراب والدمار، طوال قرن وربع قرن، ومع ذلك ظل على عروبته

وإسلامه، يذكر ولا ينسى، ويجاهد بالصبر والبسالة والاستماتة دون أن يضعف. وإذا كانت هذه فعاليات القوة الروحية، وآثارها العميقة في محاربة العدو ونتائجها في تغيير مجرى التاريخ، فإن التنويه بها، والكشف عن طبيعتها، وبذل كل الجهود الفردية والجماعية من أجل غرسها في النفوس، أمر ضروري، وواجب مقدس، يدعو إليه الواقع المعيش، ويوجبه الوفاء لتاريخنا.

والطريق إلى ذلك أن نربي أبناءنا على الإيمان القوي، وعلى العزة والكرامة، ونسمو بهم إلى العلا، ونغرس فيهم روح الإباء، ونذكّرهم بأمجاد وطنهم، وتاريخ ثوراته في سبيل الحرية، ونضع أمام أعينهم ما فعله الطغاة المستعمرون بآبائهم وأجدادهم، من عنت وقهر واضطهاد، ونبصرهم بما لاقوه في ثورة التحرير من أنواع التعذيب، دون أن يضعفوا، أو يلينوا.

ويعد هذا نوعا من الجهاد الأكبر الذي تتطلبه حياتنا العصرية.

وليس بمواطن صالح من يقدر على هذا الجهاد ولا يقوم به، وإن ادعى حب الوطن، وتغنى بمحاسنه وأمجاده.

إن ما لاقاه الشعب الجزائري خلال الاحتلال، وخلال ثورته الماجدة، من أنواع الظلم والقهر، ومن أنواع التنكيل والتعذيب، هو الذي سيظل نارا مؤججة في الأعماق، وقوة موحدة، وطاقة دافعة، وظلالا كئيبة تنفر من كل ما يمس بكرامة الوطن أو ينال من سيادته.

وإذا كان الإيمان القوي، والوطنية الصادقة، والوفاء لثوابت الأمة، هو الذي جعل أبطال وبطلات ثورة التحرير يستميتون في مجالات التضحية والإيثارية والفدائية، وجعل الشعب الجزائري بمختلف فئاته يصمد أمام فظائع التعذيب، فإن هذه المعاني، وهذه القيم أيضا، هي التي جعلت وتجعل رجال الفكر والقلم، يمجدون تلك البطولات والمواقف، ويشيدون بتلك المقاومة العنيدة، التي حطمت

صخور الاستعمار الفرنسي، وأسقطت تحت مطارقها عروش طغاته وعتاته، وغيّرت مجرى التاريخ في الجزائر، بل في شمال إفريقيا كلها... ويحاولون بكل ذلك تربية النشئ على تلك القيم والمبادئ والأخلاق، حتى يتكوّن منه أجيال يحسون بآمال شعبهم وآلامه، ويموتون فداء له إذا دعا الأمر لذلك.

أما الذين يُعتبرون جزائريين خَطأً، الذين خانوا وطنهم، وباعوا ضمائرهم، وكانوا مع العدو على بني جنسهم، أو الذين همُّهم وضع العراقيل والعقبات أمام الجزائر، حتى لا تتقدم، أو الذين يهوّنون من عظمتها، ويشوّهون سمعتها، وتاريخها، أو الذين يوالون أعداءها ويخربون عمرانها، أو الذين يسعون -جاهدين- للاحتلال اللغوي الأجنبي، أما هؤلاء وأمثالهم كثير فما أجدرهم أن يتضاءلوا أمام تاريخ آبائهم وأجدادهم، ويحتقروا أنفسهم (ويلعنوا اليوم الذي ولدوا فيه).

وهذا الكتاب: "كيف ننسى وهذه جرائمهم؟" صفحات مشرقة في تاريخ الجزائر المجاهدة العظيمة، وفي الوقت نفسه صفحات سوداء في تاريخ فرنسا، وتاريخ عملائها الذين آثروا الذل على العز، والعبودية على الحرية، والتبعية على الاستقلال، والخِزي والعار على العلا والسُؤدد!

وهل هؤلاء في موازين القسط إلاّ جذوع نخرة، وعناوين على السفه والحمق والخيبة غليظة، صفيقة، معتمة!

وإذا كانت الثورة التحريرية قد سحقت هؤلاء وأولئك، فإنهم سيبقون على الدوام مثار السخرية والاحتقار، وموضع العظة والاعتبار!

محمد الصالح الصديق

القبة في 15 رمضان 1425هـ

الموافق لـ 30 أكتوبر 2004 م

الفصل الأول

الجزائر في التاريخ القديم

تمهيد:

لا نزعم أننا في صفحة أو صفحات، أو عجالة مقتضبة، نقدم للقارئ الكريم، الجزائر في تاريخها القديم، إن ما نستهدفه بهذه الكلمة الوجيزة أن نعطي فكرة ولو بسيطة محدودة عن هذه الفترة التي سادها صمت، واكتنفها غموض عند بعض أبنائنا الطلبة، كما تدلُّ على ذلك أسئلتهم، في مختلف المجالس التي تضمُّنا معهم، إضافةً إلى أنه من الطبيعي معرفة أرضية هذا البلد، قبل التوجه إلى مراحل تاريخه المختلفة.

كانت الجزائر في التاريخ القديم، تؤلفُ مع تونس ومراكش وطناً واحداً هو (الوطن البربري) نسبة إلى البربر، وهم سكان شمال إفريقيا الأصليون، وتجمع بين هذه الأقطار وحدة العنصر، والتاريخ، والدين، والجغرافيا!

وأهلها (الأمازيغ) ويعني هذا اللفظ (الأشراف الأحرار) ينحدرون من أصل سامي، وينتسبون إلى (مازيغ بن كنعان) ولغتُهم تعرَف بلغة (تمازيغت) وديانتهم تتمثل في تأليه حيوانات وصور وزواحف، وكان هذا في العصور القديمة التي لا تقل عن ثلاثين قرنا (ق. م)!

وقد تطورت عقائد البربر بحسب تأثرهم بمن زحف عليهم من الأمم، فكان دينهم الماجوسية، ثم تنصروا في أواخر القرن الثاني الميلادي، ودخلت اليهودية بلاد البربر، مع البربر المتهودين الذين جاءوا من اليمن وهاجروا من سوريا بعد سقوط بيت المقدس[1].

وإذا كانت دعاية الاستعمار الفرنسي تُمعن في الشطط واللّجاجة، وتحاول أن تطمس معالم تاريخنا، وتهوّن من شأنه وقدْره، فإن الحقيقة الناصعة الدامغة، هي أن الشعب المغاربيّ ذو تاريخ غنيّ حافل بجلائل المواقف والأعمال، ترفع هامات أبناء هذا الشعب، افتخاراً واعتزازاً، وتبوئه مكانة الصدارة بين الشعوب العريقة الأصيلة!

«ولئن مرت بتاريخ المغرب عصور مظلمة، ونكسات قاتمة، فله إلى جانبها نصيب ملحوظ من الازدهار والحضارة والعزة... ولا يسع

---

(1) أنظر الموسوعة العربية الميسرة.

المنصفَ إلا أن يلمح في مجموع تاريخنا القوميّ صفة بارزة كل البروز، ألا وهي التقدم المستمر الهادر، والزحف القوي القاهر نحو الحرية والرقي!

وقد كانت لبلادنا منذ أزمنة سحيقة صلات وطيدة بمصر الفرعونية التي كانت حضارتها أم كل حضارة، ومدرسة الأجيال والأمم من بعد![1]

ثم جاء الفنيقيون في القرن الثاني عشر قبل الميلاد فعقدوا الصلات التجارية، وأقاموا الموانئ لهذا الغرض على شواطئنا، ثم أنشأوا مدينة (قرطاجنة) التي ناطحت روما وطاولتها السلطان ردحا من الزمان، إلى أن غلبها الرومان على أمرها، فدمروها تدميراً، ثم أوغلوا في البلاد ليفتحوا شمال إفريقيا بأكمله ويجعلوه ولاية رومانية.

لقد كانت جيوش روما في إبّان شوكتها، لا يقوم ضدّها شيء، ولا يصمدُ أمامها عدو، فخضع لها العالم المعروف – وكانت الغال (فرنسا) ولايةً من ولايات روما، وكذلك بريطانيا، وألمانيا، فضلا عن اليونان والشام ومصر!

فهل كانت بلاد المغرب لقمة سائغة لجيوش روما؟

كلا، لقد قاومت بلادنا ذلك الغزو مقاومة جبارة، بزعامة (يوغرطة) إلى أن خضعت أخيراً تحت ضغط القوّة الغاشمة، التي تفوقها عدداً وعدُدّة، فبقيت أربعة قرون تلقى من الرومان العسفَ، وتستنزف دماءها بعد أن أضحت (حقل غلال المدينة العظمى روما).

---

(1) منشورات حزب الشعب.

ثم تعاقب بعد الرومان الغزاة من الواندال، والبيزنطيين، فزادوها بلاءً على بلاء، وخرابا على خراب، ولكن ذلك العسف لم يمنع قيام عدة ثورات للتحرر من الغزاة، أطفئت جميعا في بحرمن الدماء الزكية[1].

وكل ذلك يبرهن بوضوح وفي قوة، على ما يتمتع به أهل هذه البلاد، من حبّ الحرية، وعلوّ الهمة، وقوة الشكيمة، وصلابة العود، وإباء الضيم، وإيثار الموت على الحياة الوضيعة الذليلة، ومن ثمّ كانت المقاومة الدائمة، وكانت التضحية السخية، وكان الفداء الغالي الثمين!

لن ينالَ الحقــوق إلا أُبــاة   يتحدَّوْنَ معجــزاتِ الطغــاة
هي حربُ الحياة إمَّا حيــاة   أو ممات يُكِن معنىَ الحيــاة

(1) منشورات حزب الشعب الجزء المتعلق بتاريخ الجزائر القديم.

الفصل الثاني
الجزائر في ضوء الإسلام والسيادة

تمهيد:

والظاهر أن الإسلام كان له تأثير خاص في الشعوب التي في مستوى البربر الثقافي، فما أسرع ما استطاع العرب الساميون توثيق عرى الاتصال بأبناء عمهم الحامين، وكما أن الإسلام في أواسط آسيا عرّب الأقوام لغةً ودينًا، كذلك فعل الآن في الأقوام البربرية، وهكذا اغتنى دم المسلمين الفاتحين بامتزاجه بدماء جديدة، وتسنى للغة العربية مجال واسع للانتشار، وتوطدت قدم الإسلام، وأخذت تتدرج في معارج الرقي نحو السلطة العالمية الشاملة.

الدكتور فيليب حتى: العرب، تاريخ موجز

ثم أراد الله الخلاص لهذه الشعوب المغلوبة التي قضت في ظلام العسف والظلم والجور قرونا. وفي لظى الحروب والمقاومات والمعاناة آماداً طويلة، وذلك بقيام الدولة الإسلامية في القرن السابع من الميلاد!

لقد فتحت بلاد المغرب ذراعيها للدين الإسلامي الذي يسوّي بين الناس ولا يعرف فوارق الجنس واللون، فكان دخول الإسلام إلى بلاد المغرب الحدث الأعظم الذي عرفته في تاريخها، ونقطة التحول في مجرى حياتها!

صحيح أن العرب وجدوا مشقة في غزو شمال إفريقيا لصعوبة البلاد من الناحية الجغرافية، ولشجاعة الأهالي، واستماتتهم في الدفاع عن حريتهم، ولكن انفتاح القلوب للقيم الإسلامية العالية، والصفات الإنسانية الحميدة، التي تحلى بها الفاتحون العرب، كل ذلك جعل نهاية المطاف قيام دولة الإسلام، التي فجرت في هذه البلاد ينابيع الحضارة، وبنت مجدا شامخاً، وصنعت تاريخا مشرقا مشرّفا!

الفتح الإسلامي لبلاد المغرب

فتح المسلمون بلاد المغرب فتحاً بعيداً عن مفهوم الفتح عند المؤرخين والحربيين، الذي يقوم على القوة، والقسوة، والقهر، والإكراه، المُفضي إلى التمكن والسيطرة والسلطان، إنما الفتح الإسلامي معناه فتح القلوب، لتلقي ما جاء به الإسلام من العدل والحق، والبرّ والصدق، والرحمة والحب، تلك المبادئ والنظم التي أحدثت في المجتمع العربي الجاهلي، أغرب انقلاب في تاريخ البشرية، كان غريبا

في سرعته، وكان غريبا في عمُقه، وكان غريبا في سعته وشموله، وكان غريباً في وضوحه وقُرْبه إلى الفهم[1].

ذلك المجتمع المثالي الذي قال فيه الكاتب الإسلامي الكبير مصطفى صادق الرافعي في كتابه "إعجاز القرآن":

«وليس من دليل في التاريخ على أن هذه الأرض، شهدت من خلق الله جيلا اجتماعيا كذلك الجيل الأول في صدر الإسلام، حين كان القرآن غضاً طريا، وكانت الفطرة الدينية مواتية، وكانت النفوس مستجيبةً، على أنه جيل ناقض طباعه، وخالف عاداته، وخرج مما ألف، وخلَق على الكبَر خلقا جديدا»[2].

أجل، إن الفلسفة كلها والتجارب جميعا، والعلوم قاطبة، لم تُنشئ جيلا من الناس، ولا جماعةً من الجيل، ولا فئةً من الجماعة، كالذي أخرجته آداب القرآن وأخلاقه، من أصحاب رسول الله ﷺ في علوّ النفس، وصفاء الطبع، ورقة الجانب، وبسط الجناح، ورجاحة اليقين، وتمكن الإيمان، إلى سلامة القلب، وانفساح الصدر، ونقاء الدخيلة، وانطواء الضمير على أطهر ما عسى أن يكون في الإنسان من طهارة الخلق، ثم العفة في مذاهب الفضيلة، من حسن العصمة، وشدة الأمانة، وإقامة العدل، والذلة للحق، وهلمّ إلى أن نستوفي الباب كلّه، وهذا على كثرة عديدهم، وترادف تلك الآداب فيهم، وتظاهرها عن جميعهم، واستقامتهم لها بأنفسهم[3].

---

(1) انظر «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للأستاذ الندوي في أثر الفتح الإسلامي.

(2)، (3) انظر «الدعوة الإسلامية دعوة عالمية» للأستاذ محمد الراوي فإنه مفيد في هذا الموضوع.

هؤلاء العظماء الذين خلقهم القرآن بقيَمه وتعاليمه خلقاً جديداً، وصاغهم الإسلام صياغة فذة، هم الذين فتحوا بلاد المغرب، ونقلوا إليها تلك المبادئ والقيم، وأقاموا فيها دولة الإسلام دستورها القرآن، وهم الذين أرادوا بفتحهم هذه البلاد أن يغرسوا في القلوب الإيمان، ويوجّهوا العقول إلى كل ما يكسب الرفعة والكمال، ويفتحوا البصائر على حقائق الكون، ويؤسسوا على العلم والمعرفة، حياةً تليق بالمسلم ويفرضها الإسلام!

وهكذا أعطى الإسلام لأهل هذه البلاد لغةً جديدةً هي اللغة العربية، ودينا جديدا هو الإسلام، (وعمل ذلك على توحيد الجزائريين مع بقية شعوب شمال إفريقيا داخل نطاق إسلامي أوسع، وهذا ما يدفع المؤرخين إلى الاعتراف بأن العناصر التي بنى عليها الرومان حكمهم لم تكن مستمدة من حياة شعوب شمالي إفريقية، ولم تكن منسجمة معها ماديا وروحياً، أما الإسلام فإنه جاء معبرا عن رغبات تلك الشعوب وأمانيها بعد أن ناضلت قرونا طويلة ضد حكم لا يتفق مع مصالحها ومع طبيعة أهلها[1].

فتح إسبانيا بقيادة طارق بن زياد

«ثم زحَف المغاربة بقيادة طارق بن زياد –الذي أطلق اسمه حتى اليوم على جبل طارق– إلى فتح إسبانيا، وتخليص أهلها من طغيان حكامها من القوط.. وسرعان ما تم فتح شبه جزيرة إيبيريا، وإقامة دولة إسلامية مغربية بين ربوعها الزاهرة، وقامت هناك حضارة لم يعرف لها مثيل في

(1) انظر «السياسة الفرنسية في الجزائر» للدكتور جلال يحيى.

زمانها، كانت منارا لأوربا كلها ومدرسة تخرج فيها قادة نهضتها الحديثة التي بددت ظلام العصور الوسطى بنورها الوهاج!

ومنذ ذلك التاريخ حكمت المغرب سلالات مجيدة، منها (بنو الأغلب) الذين شيّدوا جامع الزيتونة في تونس، الذي مضى على بنائه أكثر من ألف سنة[1]، كما شيّدوا جامع القيروان، ومن هذه السلالات أيضا (الفاطميون) الذين فتحوا مصر وأقاموا فيها خلافة ودولة عظمى، وشيّدوا مدينة القاهرة، وبنوا فيها الجامع الأزهر، ومنها كذلك (المرابطون) الذين أسّسوا مدينة (مراكش) وحكموا إسبانيا، و(الموحدون) الذين صار المغرب في عهدهم دولة قوية تمتد من طرابلس الغرب إلى شواطئ الأطلنطيق.. ذلك المحيط الذي اشتق اسمه من جبال بلادنا (أطلس).

وفي القرن الخامس عشر انقسمت إمبراطورية الموحدين إلى عدة ممالك وظهرت لأول مرة تلك الوحدات السياسية المعروفة إلى اليوم باسم (مراكش، والجزائر، وتونس)[2].

المغرب العربي مناخ طيب ترعرع فيه الإسلام

وبعيدا عن المبالغة والمغالاة نسجل في اعتزاز أن المغرب العربي وقلبه الجزائر التي هي موضوع هذا الكتاب، كان مناخا طيبا، ومغرسا صالحا ترعرع فيه الإسلام، وأثمرت قيمه وتعاليمه حياة إسلامية عالية، وحضارة إنسانية، سجلها التاريخ في أشرق صفحاته، وظلت وما تزال مثار الإشادة والتقدير، ومناط الفخر والاعتزاز، حياةً وحضارةً اطمأنت فيهما النفوس،

---

(1) وقد ظل يؤدي رسالة التربية والتعليم يؤمه هواة العلم من مختلف أقطار الشمال الإفريقي حتى أنهى مهمته هذه، الحبيب بورقيبة في عهد رئاسته.

(2) منشورات حزب الشعب الجزائري.

وتعايش الناس في ظلهما على المحبة والوئام والتعاون والتآزر، وعلى البر والتقوى، وكان من آثار التقاء الإسلام مع الفطرة، واقتناع العقل به، وانفتاح القلب له، سلطانه على النفوس والمشاعر والوجدان، ومن آثار ذلك السلطان القاهر: (ما نراه من آثار العقول في ازدهار العلوم والآداب، وكثرة التآليف، وظهور النوابغ فيهما، خصوصا فيما قبل الألف، وما نراه من آثار الأيدي المفتنة في المساجد، والمدارس، والحصون، والقصور، وما نراه من أثر الهمم في الأوقاف الدارة على تلك المساجد والمدارس، وعلى وجوه الخير وسبله المتنوعة، من تنشيط العلم وتعميمه، وتخفيف البؤس على البائسين، وتسليح المرابطين وتزويدهم، وصيانة اليتامى، ورعاية المنقطعين، ومعالجة المرضى، بحيث لم تبق حاجة من حاجات المجتمع لم تتناولها همم المحسنين بالسد والكفاية من هذه الأوقاف، وكانوا أذكى المنتبهين لخطر الآفات الثلاث المبيدة للشعوب: الجهل، والفقر، والمرض، فوضعوا للوقاية منها أسداداً من الأوقاف، ومن اطلع على رواية المؤرخين وترجماتهم ورأى بقايا الوثائق الوقفية المسجونة في مكاتب الاستعمار بالجزائر عجب لما فعل الإسلام في نفوس أسلافنا، ومن قرأ تاريخ المدن الجزائرية العلمية التي كانت لها[1] في الحضارة أوفر نصيب –تلمسان وبجاية وتيهرت وقلعة بني حماد والمسيلة وطبنة وبسكرة– من قرأ هذه التواريخ علم أيّة سمات خالدة رسم بها الإسلام هذا القطر»[2].

---

(1) هكذا في الأصل والظاهر: كان لها.

(2) عن كتاب «في قلب المعركة» للعلامة البشير الإبراهيمي، نقلا عن حديث من إذاعة صوت العرب – القاهرة 1955م.

وعلى هذا النحو من امتلاك الإسلام للقلوب، ومن ترجمة نظمه ومبادئه إلى الواقع الملموس، والحياة المعيشة. كان المسلمون يبنون الحياة، ويصنعون المجد، ويرسون قواعد الحضارة. فكان للإسلام في كل مجال من مجالات الحياة دوره الفعّال، وأثره البارز، وبناؤه الشامخ!

وإذا كان الإنسان العظيم تعظم غايته، وغايته هي التي تتحكم في عقله وسلوكه، فإن الجزائريين بفضل هذا الدين العظيم قد عظمت غايتهم فتجلى ذلك في حضارتهم.

ولعل من المُجدي للقارئ الكريم أن نقف به عند بعض محطات هذه الحضارة، وقد تقدمت في نص الإمام الإبراهيمي تصريحاً أو تلميحاً، لنزيدها بسطا وتوضيحا، لأنها تصوّر ما بلغته الجزائر في ظل الإسلام وضوئه، من رقيّ وازدهار، وتدلُ أيضا على أن الإسلام دين ودنيا، وآجلةْ وعاجلة:

كانت في الجزائر قبل الاحتلال المشؤوم، حضارة زاهرة، خلافا للمستعمرين الذين يفترون على الواقع والتاريخ الكذب، ويدّعون أنهم وجدوا الجزائر في الدرك الأسفل من التخلف الحضاري!

ومن أبرز مظاهر هذه الحضارة، وأجلى مجالاتها، المجالُ العلمي، والمجال الديني، والمجال الزراعي، والمجال الصناعي، والمجال الفنّي، وسنفرد كل مجال من هذه المجالات الحية الحسّاسة بكلمة وجيزة مقتضبة:

في المجال العلمي والثقافي

أدرك الجزائريون في عمق مغزى آيات العلم، والقراءة، والكتابة، التي افتتح الله تعالى بها كتابه الحكيم: ﴿اقرأ باسم ربّك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربُّك الأكرم، الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾[1].

وأدركوا من دينهم أن العلم عبادة يتقرب بها إلى الله تعالى، وأنه نور يبدد الظلام، ويكشف عن الحق، ويهدي إلى الطريق القويم، ويُعِدُّ الفرد والمجتمع لحياة كريمة عزيزة!

وأدركوا أن الإسلام طلب الإيمان بالله تعالى عن طريق النظر والتأمل والاستجلاء والاستنباط: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾[2].

وأدركوا بُعْدَ الاقتناع في الرسالة العالمية الخاتمة، عن طريق معجزة علمية خالدة هي القرآن الكريم!

وأدركوا في عمق أن حضارة الإسلام حضارةٌ طبيعية، تحمل في نفسها بذور البقاء والخلود، لأنها حضارة جسد وروح معاً وأن العلم يخدم كليهما ولا يوثر أحدهما عن الآخر!

أدركوا كلّ ذلك، فانطلقوا إلى العلم يغترفون منه في شوق وتلهّف، ويشيدون له المساجد والمعاهد والمدارس، وقد كانت في الجزائر قبل سنة 1830 مدارس كثيرة العدد، أما المساجد التي تقام فيها العبادة، وتلقى فيها الدروس، فلا يحصيها العد وسيأتي الحديث عنها، وهذا (بولار) يقول في كتابه: "التعليم بين أهالي الجزائر":

(1) العلق الآيات 1– 5.

(2) يونس 101.

«كانت في الجزائر في القرنين: الرابع عشر، والخامس عشر، مراكز ثقافية باهرة.. وكان فيها أساتذة متمكنون في علوم الفلسفة والفقه والأدب والطب والنحو والفلك.. وكانت المدارس الكثيرة العدد منتشرة في ربوع البلاد، والتعليم فيها شرعيّ ديني، ومدني علمي، وكان ملوك الجزائر يختارون مستشاريهم من أكثر البلاد ثقافة»[1].

وهذه تلمسان ذات الشهرة العلمية العظيمة يُشيد بها (كومب) في خطابه إلى مجلس الشيوخ الفرنسي ويقول:

«كان الطلاب في هذه المدينة يتدافعون بالمناكب ليظفروا بالحضور على أساتذتها الأعلام، ذوي الشهرة الذّائعة.. وكذلك كان في غيرها من بلدان الجزائر أساتذة مرموقون يرحَل إليهم الطلابُ من جميع الآفاق، ولقد كانت مدرسة سيدي أبي مدين التي أسسَّها سنة 1346 أشهر مدرسة علمية في الغرب لذلك الزمان»[2].

ولم يُعرف عن المسلم الجزائري الذي غذّاه القرآن، وربّاه على حب العلم والمعرفة، أنه تهاون يوما في طلب العلم، أو قنعِ بالقليل منه، والتاريخ بذلك خير شاهد، وقد برز في مختلف عهود التاريخ الإسلامي في الجزائر علماء أجلاّء، قضوا أعمارهم في طلب العلم ونشره، وبوّأهم نبوغهم ومحصولهم الفكري، ومجهودهم العلمي، مكانةً مرموقةً، وأحاطهم كل ذلك بهالة مشرقة من الجمال والجلال!

---

(1) منشورات حزب الشعب الجزائري.

(2) نفس المصدر.

وإذا كان هؤلاء العلماء الأعلام، يتعذر إحصاؤهم، ولا يمكن أن نطمع في استقصائهم لوفْرتهم، فلا أقلّ من أن نشير إلى أن من الكتب المهتمة بهم: "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان" لابن مريم، و"عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية" وكتاب "بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة" للإمام السيوطي، وكتاب "تاريخ الجزائر الثقافي" للدكتور أبي القاسم سعد الله، ويضاف إليها كتاب "الدرر الكامنة، في أعيان المائة الثامنة" لشهاب الدين العسقلاني، وهذه –وما أشبهها من المظان تُقدم للقارئ عددا كبيرا من هؤلاء الأعلام، الذين يشهد لهم العلم بالنبوغ، ويشهد لهم التاريخ بالدور العظيم الذي نهضوا به في ميدان العلم والمعرفة!

ومن مؤسسات العلم في الجزائر قبل الاحتلال المساجد، فالمساجد كانت في مختلف أرجاء الجزائر منارات العلم، في ساحاتها تعقدَ حلقاتُ الدروس، وتقام المناظرات، وتتشقق المذاهب والآراء، وتتنافس القرائح في غرس العلم والمعرفة!

وإذا كانت المساجد متفاوتة في السعة وكثرة المؤتمين لها من طلاب العلم، وقلتهم، فإنها جميعَها تتفق في أداء رسالة العلم والمعرفة والتعبد بها، والانقطاع إليها!

وكانت المساجد بما يلحق بها من خزائن الكتب المفيدة النافعة تضاعف من خدمة العلم وأهله، لاسيما والمسلمون يُهْرَعون إلى المساجد خمس مرات في اليوم يؤدون الشعائر، ويقيمون الصلوات، ويَخرجون منها وقد جمعوا بين أداء العبادات والتزود بالعلم والمعرفة!

ولمِا لهذه المساجد في نفوس المسلمين من أهمية ومكانة، كان لدروسها أثرها الإيجابي الحميد في انتفاعهم بالعلم والمعرفة!

والجدير بالملاحظة أنه بالإضافة إلى الجوامع الكبيرة بالعاصمة وقسنطينة ووهران، ومدن أخرى فإن المساجد كانت منتشرة في البوادي، بحيث لا تكاد تخلو قرية من مسجد تقام فيه الصلوات، ويلتقي فيه الناس لدراسة العلم ومذاكرته، والأطفال لتعلم القرآن وحفظه!

وهناك أيضا الزوايا، وهي في الجزائر كثيرة منتشرة في مختلف أنحاء القطر، وخاصة بمنطقة القبائل، بحيث يتجاوز عددُها خمسين زاوية وهي نوعان:

النوع الأول: الزوايا التي أسست لعبادة الله تعالى وتحفيظ القرآن الكريم، وتعليم الدين، ونشر القيم والفضائل الإسلامية، ودراسة العلم، وهذه في الحقيقة مدارس للتربية والتعليم، وتهيئة النشء للمعاهد الإسلامية العالية!

ومؤسسو هذه الزوايا والمعلمون فيها أصحاب رسالة وذوو وزن عند الله تعالى، وعند الناس، لأنهم صانعوا أجيال، وبُناة مجد، احتفظ التاريخ في صفحاته الوضيئة المشرقة بأسمائهم لنذكُرهم بالإعجاب والتقدير، ونترسم خطاهم، ونحذو حذِوهم، وكثير من هؤلاء لم يقتصروا على تعليم الطلبة وتربية العامة، بل هجروا المحابر، وحلقات الدروس، إلى جبهات القتال دفاعا عن الإسلام والمسلمين، وتحريراً للوطن من براثن الاستعمار!

النوع الثاني: من الزوايا أضرحة الأولياء الصالحين، وهذه لا يهمنا أمرها، لأنها لا تعنى بشأن التعليم والتثقيف، إنما يهتم أهلها باستقبال مريديهم وتلقينهم أوراداً وأذكاراً!

إن الزوايا المؤسسة للتعليم الديني وتحفيظ القرآن الكريم، كان لها الدور الكبير في حماية العقيدة الإسلامية من حملات المبشرين التشكيكية والتنصيرية، وفي الحفاظ على القرآن الكريم وبقاء قيمه ومفاهيمه نظيفة خالصة رغم المقاومة الاستعمارية التي لم تنفك تثير لها الشبهات لتزعزعها وتقضي عليها!

والجدير بالملاحظة أن أهمية التعليم في هذه الزوايا رغم بساطته في بعضها يتجلى في ارتباطه بالأخلاق الإسلامية ارتباطا وثيقا، فالطالب إذا قلّ محصوله العلمي لظروف خاصة، فإنه لا يعدم محصولا أخلاقيا يبوئه مكانة مرموقة في مجتمعه!

فإذا كانت الأخلاق في المناهج العلمية الحديثة، قد أصبحت لها فلسفتها الخاصة، وأصبحت علما ذا شأن له قواعده وبواعثه وضوابطه ونتائجه، فإن منهاج الإسلام في الأخلاق هو كتاب الله الذي يحفظ ويتلى صباح مساء، وتبذل الجهود –وإن كانت محدودة– لفهم آياته، وخاصة ما يتعلق منها بالعقيدة والدين والأخلاق.

ومن هنا فالتعليم في هذه الزوايا –وإن كان في بعضها بسيطا مقصورا على الدين والأخلاق واللغة العربية– له أهميته الكبيرة في تكوين المسلم الواعي لدينه، الغيور على قيمه وأخلاقه!

والتربية هي أرضية التعليم التي ترسى عليها حياة المتعلم الفردية والاجتماعية في هذه الزوايا، إذ قد يتسامح مع المفرط في جانب الدرس ولا يتسامح مع المخل بالصلاة –مثلا– أو الملتوي في السلوك!

ففكرة الدين والأخلاق والسلوك، واضحة بارزة في حياة المتعلمين بالزوايا، بل هي المالكة لأمرهم، المهيمنة على مشاعرهم، المحددة لمعالم حياتهم!

فليس التعليم في هذه الزوايا مجرد معلومات أو محفوظات يتلقاها الطالب ويعيشها نظريا، بل هناك معها تدريب عملي، وممارسة فعلية على الحياة القويمة في عالم الفكر والضمير، وفي عالم الوجود المعيش سواء في ذلك العبادات والمعاملات!

فالصلاة واجبة عندهم نظريا وعمليا، وتكتسي أهميتها البالغة عندهم لأمرين:

أحدهما: أن الدروس وحفظ القرآن كثيرا ما يشرع فيهما بعد أداء الصلاة، فما إن تنتهي حتى يحلق الطلبة حول شيخهم لتلقي الدرس أو حول معلم القرآن للتجويد، أو لعرض المحفوظ أو للاستملاء، وهذه الأعمال مرتبطة بالصلاة، حتى أن وقتها لا يعرف بالساعة –شأن الوضع في المدارس اليوم– وإنما يعرف بأوقات الصلاة!

وأذكر على سبيل المثال أن الدروس في زاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي التي تلقيت فيها دروسا في اللغة على العلامة الأستاذ الشيخ الرزقي الشرفاوي كانت كما يلي:

الحديث بعد صلاة الصبح، والفقه بعد صلاة الظهر، والنحو بعد صلاة العصر، والتفسير بعد صلاة المغرب.

وثاني الأمرين: أن يوم الطالب في الزاوية تتخلله خمس صلوات توقظه الأولى ليمارس الحفظ والدراسة، وتقدمه الأخيرة للنوم والراحة،

وبين اليقظة والنوم ثلاث صلوات تجدد عزمه، وتضاعف نشاطه، وتزوده بشحنة الإضاءة التي تجعله واضح الرؤية، سديد الخطى!

وإنما تفعل العبادة هذا الفعل في طلبة الزوايا لارتباطهم بها، ودوامهم على أدائها، وإحساسهم بأثرها في النفس وفي السلوك!

وليس من المبالغة أو المغالاة أن نقرر بغير تحفظ أن أبرز ما يميز طلبة الزوايا في الجملة هو رسوخ العقيدة، وقوة الإيمان، والخضوع لصوت الضمير، والإحساس الصادق بالمعية الإلهية، والثبات أمام المطامع والأهواء!

وهذه المنهجية تفتح أمام الطالب باب الترقي إلى الكمال الممكن في حياته الدراسية الثانوية أو العالية، أو إلى النجاح في حياته العملية الاجتماعية إن ترك التعليم ودخل ميدان الحياة!

وإذا كان للقدرة العملية في مجال التربية أنفع درس، وأقوى مؤثر، فإن شيوخ هذه الزوايا يحرصون كل الحرص على التعليم بسلوكهم أكثر من التعليم بأقوالهم، ويعدون السلوك القويم أهم طرق التربية والتعليم!

وهذا ما فقدناه اليوم كلية في المدارس والجامعات، حيث ترى الكثير من الأساتذة الذين يحملون أعلى الشهادات العلمية، يناقضون بسلوكهم ما يقررونه في دروسهم، من حقائق ونظريات، فيضيع الطلبة بين الأقوال والأفعال!

ولذا كان لشيوخ الزوايا الذين انقطعوا حقا لتعليم الدين وأحكام الشريعة قداسة ومكانة محترمة في مختلف الأوساط، ولم ينالوا هذه المكانة إلا لأنهم كانوا يمثلون الإسلام ويطبقونه على سلوكهم وتصرفاتهم!

وعن طريق هذه الزوايا والمعاهد التي أسست لخدمة الإسلام والمسلمين عرف الناس قدر العلماء وأدركوا معنى قول الرسول ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء» ورثوا عنهم وظيفة الدعوة إلى الله، والهداية إلى الصراط المستقيم، وإذا كانوا ورثة الأنبياء فالواجب طاعتهم وتقديرهم والاقتداء بهم!

بسطنا القول في رسالة الزوايا في الجزائر، في ضوء الإسلام، إلى حد الخشية أننا أطنبنا إطنابا يشعر معه القارئ الكريم بالملل، والذي دعانا إلى هذه البسطة وهذا الإطناب أمور:

أولها: لنبيّن دور هذه الزوايا في التعليم العربي الإسلامي في هذا البلد!

ثانيها: لنؤكد أهمية هذا النوع من التعليم في خدمة العقيدة الإسلامية والقيم والأخلاق.

ثالثها: ليتصور القارئ فعالية هذا التعليم في الحفاظ على الشخصية الجزائرية الإسلامية، تلك الشخصية التي ظهرت قوتها وقدرتها على المقاومة والتحدي في عهد الاحتلال البغيض، كما سنتحدث عن ذلك مستقبلا!

رابعها: لنخرس ألسنة أولئك الذين يستهينون بهذه الزوايا العلمية ويطعنون فيها، ويقولون بملء أفواههم، إنها دماميل في جسم الجزائر، أو أنها مصادر ضعف وخمول وجمود!

وهناك دور آخر هام يذكر للزوايا، وهو أنها كانت في عهد الاحتلال الفرنسي، مأوى المجاهدين وملتقاهم، فيها يخططون لمعاركهم

وكمائنهم، كما شاهدنا ذلك وعشناه في ثورة التحرير الكبرى، وكم كنا نلتقي مع أبطال أول نوفمبر في زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي، وكان الأبطال: عميروش، ومحمدي السعيد، وإعزورن محمد، وقاسي حدادن وسي الشريف كثيرا ما خططوا في هذه الزاوية للأعمال الثورية، وفيها كوّن العقيد عميروش لجنة الأوقاف، وجعل رئيسها أحد الأساتذة بهذه الزواية الشيخ صادق مشواط –رحمه الله– خريج جامع الزيتونة بتونس، وقد نهضت اللجنة بمهمتها خير نهوض، وقد حدثني العقيد عميروش عن نشاطها في تقدير لها ورضى بعملها!

بالإضافة إلى أن جلّ المقاومين للاحتلال الفرنسي، وحاملي لواء الجهاد في الثورات المختلفة المتعاقبة على الجزائر كانوا من أهل هذه الزوايا أو من المتخرجين منها.

والأوقاف الإسلامية في الجزائر ما شأنها في بناء الحضارة الإنسانية وإشاعة العلم والمعرفة؟

إن شأنها عظيم لا يتسع المقام لإفاضة القول فيه، حسبنا من ذلك كلمة وجيزة على حد المقولة الشهيرة: «يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق».

يعد الوقف من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية، ومن العوامل الهامة في نشر العلم والمعرفة، حيث ينفق منه على بناء المساجد وعمارتها، وإنشاء المكتبات، وبناء الزوايا، وينفق منه على الطلبة المحتاجين ليواصلوا مسيرتهم العلمية بلا توقف أو تأخر، وعلى العلماء الفقراء ليتمكنوا من أداء رسالتهم التربوية والتثقيفية دون أن يضطروا إلى استدانة أو طلب معونة!

وانتشر الوقف في الجزائر انتشارا مثيرا، وكان سنة حميدة يتنافس فيها المحسنون من الرجال والنساء!

ولأهمية الأوقاف في الحياة الدينية والعلمية والاجتماعية كانت من مستهدفات فرنسا الأولية عند احتلالها للجزائر، وفي هذا تقول مذكرة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي قدمتها إلى الجامعة العربية ونشرت في أغسطس سنة 1954:

كانت الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي لها في سنة 1830 دولة مستقلة غنية تملك خصائص الدولة في ذلك العصر، وأهمها العلم بالدين والدنيا، وفيها من الأوقاف الإسلامية الدارة على العلم والدين، ووجوه البر ما لا يوجد مثله في قطر إسلامي آخر، ومنذ تغلب عليها هذا الاستعمار الفريد في الخبث، وهو يعمل جاهدا على قتل شخصيتها بالقضاء على الدين واللغة العربية، وكان أول عمل قام به هو مصادرة الأوقاف الإسلامية والمعاهد التابعة لها من مساجد ومدارس وزوايا وتحويلها إلى كنائس وثكنات وإصطبلات وميادين ومرافق عامة[1].

ولمّا منّ الله تعالى على الجزائر بالحرية والاستقلال أخذ أولو الأمر ينظرون جديا في إعادة الأوقاف إلى مجراها الصحيح حتى تنهض بدورها الفعال، وتخدمَ الإسلام والمسلمين كخدمة العلم والدين واللغة العربية، وأخيرا قامت وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، بمشاريع هامة في هذا المجال تدعو إلى الطمأنينة، وتفتح في النفس زهور الأمل!

---

(1) عن كتاب "الجزائر الثائرة" للشيخ الفضيل الورتلاني ص 198.

في المجال الزراعي:

وكان الجزائريون في ضوء الإسلام، خلال القرن الثامن عشر الميلادي يهتمون بالزراعة اهتماما كبيرا، لأن دينهم الإسلام دعاهم إلى ذلك، وحثهم عليه بمثل قول الله تعالى: **(وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجّاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا)**[1]، وقوله تعالى: **(فلينظر الإنسان إلى طعامه أنّا صببنا الماء صبّا ثم شققنا الأرض شقّا فأنبتنا فيها حبّا وعِنَبًا وقضبًا وزيتونًا ونخلاً وحدائق غُلبًا وفاكهةً وأبًا متاعًا لكم ولأنعامكم)**[2].

فكانت حقول الغلال، والقمح، والشعير، تمتد على مد الطرف في مختلف أراضي الجزائر، الشهيرة بالرخاء والخصوبة، وهذا العالم النباتي المعروف (الأب ديفونتين) الذي تجول ببلاد الجزائر في الفترة ما بين السنتين: 1756 – 1757 يشهد بأن دقيق قسنطينة أحسن من دقيق تلمسان الذي كان معروفا بالجودة!

والذي ساعد على ازدهار الزراعة بالبلاد الجزائرية هو رطوبة الأرض الدائمة الري والسقي!

وقد جاء في كتاب "تاريخ أمم البربر" أن ريف الجزائر عظيم الخصوبة والجمال، غنيّ بقمحه، وخضرواته، وفاكهته، وأزهاره، فالسهول والتلال مكسوة بزرع ذي منظر خلاب، وهي دائمة الخضرة

---

(1) النبأ 14 – 15 – 16.

(2) عبس 24 – 32.

لأن رطوبة الأرض الدائمة الري والسقي تحمي أوراقها من الحر في الصيف، ودفئ الشتاء واعتداله يجنبها السقوط في ذلك الوقت، أما الكروم فمحصولها يثير الدهشة!

والجدير بالذكر والملاحظة، أن من التراب ما ينتج ثلاث غلات في السنة، وتثمر الحدائق الغنّاء التي يبلغ عددها مائة وعشرين ألفا محصولا وافرا يبعث على الدهشة والإعجاب، كما أن زراعة العنب ازدهرت كثيرا في ذلك الوقت، ويقال إن غرسه الأول جلبه (المور) من غرناطة عندما طردوا منها!

وهذه هي الأرض التي كان الفرنسيون يدّعون أنها قاحلة، ويزعمون من غير خجل أنهم تجشموا أنواعا من المشاق في تحويلها إلى أرض ثرية، وجنة زاهرة!

في مجال الصناعة:

كانت ثروات الجزائر المعدنية قبل الاحتلال مثل النحاس، والحديد، تستغل على نطاق واسع، فتصنع منها الأسلحة والتحف، وكانت الموانئ والمدن تزخر بالمصانع والورشات والدكاكين، كما كانت غابات بني عمروس وبني منصورة تزود المسالح بالخشب اللازم لبناء السفن والأساطيل[1].

---

(1) انظر منشورات حزب الشعب الجزائري.

في مجال الحياة الفنية:

وكانت الحياة الفنية في الجزائر متقدمة تقدما مرموقا في ذلك العهد، وخاصة فنّ العمارة بما يشمل المدنية والعسكرية والدينية، فكم في الجزائر من قصور فخمة، وحمامات بديعة، ومدارس فاخرة، ومساجد مهيبة!

ومن ذا الذي يمر بقصور جنينة وقصبة، وجامع كشاوة، دون أن يقف معجبا بروعتها الفنية الساحرة التي تشهد بالتفوق البعيد في البناء والنقش والهندسة؟

وليست المباني الخاصة بأقل روعة وإبداعا، فحسب الزائر للجزائر أن يجول بالأحياء الأروبية -خلال عهد الاحتلال- فإنه يشاهد مباني الحكومة الفرنسية، وقصور رجالها التي كانت بالأمس مساكن أبناء الجزائر قبل أن يغتصبها المحتلون.

حرية الاعتقاد:

من مظاهر الحضارة في الجزائر قبل الاحتلال حرية الاعتقاد، فقد أجمع المنصفون من المؤرخين على أن الجزائريين كانوا يعاملون أهل الذمة معاملة إنسانية كريمة، وذلك لما تفرضه الشريعة الإسلامية، وتقضي به التعاليم القرآنية، لذلك كان اليهود محل رعاية الجزائريين كغيرهم من الطوائف الأجنبية الأخرى على اختلاف مللهم ونحلهم، وكانوا جميعا يمارسون الحرف والتجارة والمهن الأخرى بكل حرية وأمان، كما كان أهل الكتاب منهم، يؤدون شعائرهم الدينية بكامل الحرية!

وقد جاء في كتاب "أمم البربر" بالأنجليزية ما يلي:

«... خلافا لما تذيعه الدعاية الاستعمارية[1] كان يهود الجزائر على الدوام محل رعاية في تلك المملكة، كما كان لجميع الطوائف الأجنبية الأخرى، قسيسوهم وكنائسهم... بل كان يسمح لليهود بممارسة الحِرَف والتجارة بكل حرية، فهم في ذلك متساوون مع التجار الأجانب الذين كانوا يعيشون في الجزائر آمنين على أموالهم، وحقوقهم، وأرواحهم، ومعظم أولئك اليهود ممن طردهم الاضطهاد العنصري والديني في إيطاليا وإسبانيا»[2].

فأولئك اليهود إذن لاجئون مطرودون لا سند لهم ولا حماية من جانب دولهم، شأن التجار الأجانب، ولكنها سماحة الإسلام، والتعاليم القرآنية التي توصي بذلك، وبوقوف المسلمين عند حدود الإسلام!

هذه بعض مظاهر الحضارة الإسلامية في الجزائر قبل الاحتلال، وتحت ظل الإسلام وفي ضوئه، اختصرنا على الأهم منها لكي لا يمتدَّ بنا الحبل ويتسع المجال، ونحن نريد الإيجاز ما أمكن، وإنما ذكرناها لنجسم بشاعة الاحتلال، وفظاعة جرمه في هذا البلد الطيب العظيم!

وتنوّعت تلك المظاهر من مادية ومعنوية، لأن الإسلام كذلك دين مادة وروح! والحقيقة التي نريد الوصول إليها وتقريرها أيضا من عرض هذه المظاهر هي أن الإسلام وجد في الجزائريين –وحديثنا عنهم طبعا– قلوباً متفتحة، وصدوراً رحبة، واستعدادا كاملا، فصنع بهم حضارة إنسانية اعترف بها كل المؤرخين المنصفين، تلك

---

(1) أي في عهد الاحتلال.

(2) نقلا عن منشورات حزب الشعب الجزائري: دولة الجزائر قبل سنة 1830.

الحضارة التي كانت يُمناً وبركةً على جميع سكان الجزائر من الأهالي والأجانب على حد سواء!

وحقيقة أخرى تفرض نفسها على الملاحظ وهي أن المشكلة في تخلف المسلمين اليوم تكمن في المسلمين لا في الإسلام!

فالمشكلة الحقيقية للمسلمين اليوم ليست في الإسلام كما يدّعي الجهلة من أنصاف المسلمين، أو العنصريون الأجانب، بل هي في الإنسان الذي يطبق الإسلام، الإنسان الذي يحيا بمعاني إنسانيته، ويتفاعل مع الكون بفطرته، ويرى قيمته فيما يفهمه من الإسلام، وفيما يطبقه منه.

إن الإسلام لا يقوم ولا يؤدي رسالته إلا بأسبابه، وأسبابه في النفس، علم ومعرفة، وعقيدة وإيمان، وعمل جاد منظم!

والإسلام ما حلّ أرضا إلا نعِمت به واطمأنّت، على شرط أن تتفاعل معه، وتعمل به، وما تعودنا أن ننتفع في مرضنا بدواء دون أن نستعمله!

ومن العبث أن يُعَدّ هذا نوعا من الوعظ نخفّف به غلواء الناس، بل هو الحق الناصع الصارخ!

﴿قد جاءكم بصائر من ربكم، فمن أبصر فلنفسه، ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ﴾[1].

---

(1) الأنعام 104.

الفصل الثالث

الجزائر في ليل الاستعمار الفرنسي

تمهيد:

يقول "ألفريد الوسيس هورن" :

«إذا كان الله قد خلق مستعمراً أسوأ من المستعمر الفرنسي فإنه لم يطلعني عليه، ولم يخبرني به».

ويقول "نيتشة" : «طبيعة الأوروبي هي طبيعة الوحوش الضارية، هل عرفتم الآن كيف يستطيع أن يقيم مستعمراته ؟».

وعلقت مجلة "الأسبوع" في عددها (140) على هذه الكلمة الأخيرة بما يلي: «إن نيتشة لم يشاهد ما وقع في الجزائر، ولو عاش إلى يومنا هذا ورأى بعينيه بعض ما يسجله المستعمرون في الجزائر من فظائع وجرائم، لا يتصورها العقل البشري، لرأف بالوحوش الضارية، واعتذر لها عن إهانة تاريخية وجهها إليها، إهانةِ وصْفِها وتشبيهها بأولئك الفرنسيين الذين هدّموا خلال سبع سنوات ونصف كل ما بناه آباؤهم وأجدادهم من مدنية وحضارة خلال مئات السنين».

هكذا يقول هؤلاء عن المستعمر الفرنسي، بعد أن عرفوه عن حقيقته، وتبيّنوا طبيعته وخسّته ونذالته، واطمأنوا إلى أنه مخلوق فريد. وإذا كان الله قد خلق أسوأ منه فإنه لم يطلعهم عليه!

الاستعمار الفرنسي مخلوق طفيلي

ونحن مع هؤلاء فيما ارتأوه عن المستعمر الفرنسي، وإذا كان هناك من إضافة أو بيان، فإن أقل ما نقوله عن المستعمر الفرنسي ونضيفه، هو أنه مخلوق طفيلي يعيش على دماء الشعوب المستعمرة كما يعيش القمل والبق والبعوض حتى إذا ما تأوه الملسوع من ألم اللسع، أو تضرر الممصوص من فقر الدم أجلب عليه في وحشية وقساوة بالنار والحديد وأذاقه من البؤس والعذاب ما يريه الموت خيرا من الحياة!

ولا تجد شعبا أوقعه سوءُ طالعه في قبضة الاستعمار الفرنسي قد ذاق ألوانا من الذل والهوان، وأنواعا من الألم والعذاب، مثل الشعب الجزائري، ومع ذلك لم يرض يوما بالهون، ولم يصبر على الخسف، وكيف يرضى بذلك ودينه دين الجهاد، وتاريخه تاريخ الفتوح، وأدبه أدب الفتوة والقوة، وقصصه قصص البطولة، وملاحمه صفحات مشرقة في تاريخ الإنسانية!

والكلمة الوجيزة الجامعة هو أن الجزائر قد عاشت منذ الاحتلال الفرنسي المشؤوم سنة 1830 إلى أن افتكت حريتها سنة 1962 في ظلام دامس معتم وفي مقاومة عنيدة، وعقيدتها الراسخة في الأعماق، التي تحفزها إلى العلا، وتدفعها إلى الأمام، وتحفظها من الضعف، وتعصمها من الاستسلام هي وعد الله بإحدى الحسنيين: «إما النصر الذي تعقبه العزة لله، والحرية للوطن، والكرامة للأمة، وإما الشهادة التي يعقبها البقاء في الدنيا بالذكر، والخلود في الجنة بالروح».

استعمار كافر، وشعب مؤمن

إن القضية التي يؤمن بها كل مفكر عاقل –وخاصة إذا كان ممن ابتلوا بالاستعمار– هي أن الاستعمار ملّة واحدة سواء أكان من فرنسا، أم من أنجلترا، أم من أمريكا، أم غيرها، لأن الاستعمار معناه غلبة وتسلّط، وسطوة واستعلاء، وسلب واستيلاء، وإغارة ونهب، وانتزاع للعيش، وتعدٍ على الحقوق، وتحكم في المصائر، وإهانة وإذلال، ومحو للشخصية، وقضاء على القيم والأخلاق، ولكن الاستعمار الفرنسي في الجزائر –بالخصوص– له مفهوم آخر، ومعنًى لا يدركه إلا من مُني به وعاشه وتلظى بناره، فهو لا يصوره القلم ولا تعبّر عنه الكلمات، وإنما يدرك بالممارسة والمعايشة!

وإذا كان الاستعمار الفرنسي قد بلغ شأوا بعيدا في كفره وطغيانه، في وقاحته وتجبره، في تنكره للقيم والأخلاق، في معاملته الوحشية القاسية للشعب الجزائري، فإن هذا الشعب قد ارتفع بإيمانه القويّ، وإرادته الفولاذية، ومعدنه الذهبي الخالص، إلى مستوى دونه قوة الاستعمار، ودونه طمعه في النيل منه!

ورحم الله كاتب مصر العظيم الأستاذ "أحمد حسن الزيات" الذي أدرك هذه الحقيقة بعمق وكتب يقول:

«دلَّني إن استطعت بالعيان أو بالخبر، فيمن بقي أو فيمن غبر، على شعب غير الشعب الجزائري الباسل الحر، ألحّ عليه الاستعمار الفرنسي الكافر الفاجر الأهوج بالقهر والفقر، والعذاب والخراب، وسلْب الاستقلال، وسوء الاستغلال، وفساد التعليم، ونسخ اللغة، ومسخ

العقيدة، طوال ثلاثين ومائة عام، ثم لا تزال في رأسه نخوة العروبة، وفي نفسه حمية الإسلام، وفي يده سيف الفتوح، يذكر ولا ينسى أن له وطناً يحتله الغريب، ويستغله المستعمر، على ظهره الولد والبلد والرزق والأمل، وفي بطنه الآباء والأجداد والأمجاد والذكرى، فجاهد بالسيف، وصارم بالعزم، ورابط بالقوة، ثم ابتلاه العدو في ماله وفي نفسه بالتقتيل والتنكيل والأذى، فما وهن لما أصابه في سبيل وطنه ودينه، وما ضَعُفَ وما استكان»[1].

أما أحد المكتوين بنار الاستعمار الفرنسي في الجزائر، والمدركين بعمق لطغيانه وجبروته فيها، الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، فإنه يقول عن الاستعمار الفرنسي في الجزائر:

«الاستعمار كله رجس من عمل الشيطان، ولكن الاستعمار الفرنسي هو المثل الأسفل من أعمال الشيطان، وكأن الشيطان استعرض أتباعه، وامتحن أشياعه، فوجد الجنس اللاتيني أخلص هؤلاء الأتباع في طاعته، وأطوعهم مقادا في أمره ونهيه، وما يأمر إلا بالفحشاء والمنكر، وما يربّى تلاميذه إلا على الأفحش والأنكر، فكانت فرنسا هي الصفوة المختارة في الشر وإني لأعلم أن في الشرقيين من ينكر عليّ هذا الحكم، ويجادلني فيه بالتي هي أخشن، ولو نضى عن نفسه ثوب الاختيار بمظاهرها، ورأى ما تفعله فرنسا المتمدنة العالمة المعلمة بإخوانه الآدميين في الجزائر لأقلع فورا عن كل ما كان يعتقده فيها تقليدا أو افتتانا بمدنيتها الزائفة،

(1) في ضوء الرسالة، ص 226.

واستغفر سبعين مرة في الدقيقة الواحدة من كل ما كان يضمره من الاحترام لها»[1].

والكلمة الجامعة هي أن الاستعمار الفرنسي الوحيد في نذالته وخبثه ووحشيته بذل كل ما في وسعه طوال عهد الاحتلال في الجزائر من أجل التدمير والخراب، حتى استشرى داؤه، وعم بؤسه، وبلاؤه، ولكن الشعب الجزائري بقي مع كل ذلك يقاوم ويجاهد، ويتحدى الموت ويعاند، ويُعلن للورى أنه أكبر من الأحداث، وأقوى من الموت والفناء، لأن قوته من الله، ومن كان الله ناصرَه فإنه يغلِب ولا يُغلَب وينتصر ولا ينهزم!

تفصيل بعد إجمال

ما قدمنا عن طبيعة الاستعمار الفرنسي ومآسيه في الجزائر، وعن طبيعة الشعب الجزائري وقوته وتحديه ومقاومته، كلام مجمل يعوزه التفصيل، وهذا تفصيله في إيجاز واقتضاب:

لم تكد فرنسا الغازية تحتلّ الجزائر سنة 1830 حتى عقدت اتفاقية بين الداي حسين، وبين قائد الجيوش الفرنسية الجنرال دوبومون.

وكان من شروط هذه الاتفاقية «أن تطلق الحرية التامة للدين الإسلامي وللجوامع الأهلية وتكفل أملاك أهل البلاد وتجاراتهم وصناعاتهم وتحفظ أعراضهم وتعتبر نساءهم»[2].

---

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج5 ص2.

(2) تحفة للزائر في تاريخ الأمير عبد القادر.

ولكن أنّى للمستعمرين الفرنسيين وأحفاد الصليبيين أن يحترموا عهدا، أو يقيموا (للميثاق) قيمةً ووزناً، وهم منهومون إلى السطوة والسيطرة، متعطشون إلى إراقة الدماء، وتدمير الديار، وتخريب البلاد، ونشر الفزع والرعب والهلع في أوساط المدنيين، وارتكاب أفظع ما ترتكبه الوحوش الضواري.

فكم أرواح بشرية أزهقوها، ومدن ومداشر دمروها وأحرقوها على أهلها، واستباحوا أعراض نسائها.. وكم أقراط وخلاخل وأساور بيعت وهي على الآذان والأرجل والأيدي.. وكم أموال نهبوها.. حتى أن كثيرا من الجنرالات الفرنسيين كونوا ثروات عظيمة مما اغتصبوا من أموال الشعب الجزائري. وما زال التاريخ يروي لنا قصة جنرال وضابط شاب نشب بينهما عراك عنيف من أجل قطعة ثمينة من الماس... وإلى القارئ فيما يلي صورا من (عار فرنسا في الجزائر) في ذلك العهد كما أثبتها الفرنسيون أنفسهم.

وهذه أولا فقرات من تقرير لجنة التحقيق البرلمانية في نوفمبر سنة 1833 تصور تهور الفرنسيين ونزعتهم إلى السرقة والنهب وإراقة الدماء.

«لقد استحوذنا على الأوقاف الدينية، ونهبنا الممتلكات التي وعدنا باحترامها. كما وضعنا أيدينا على الممتلكات الخاصة من غير أن نعطي لأصحابها أي تعويض. بل وذهبنا إلى أبعد من ذلك في بعض الأحيان فأجبرنا أصحاب الأملاك التي استحوذنا عليها أن يدفعوا ثمن تهديم ديارهم، بل وحتى تهديم المساجد.

لقد اعتدينا على حرمات المساجد والمقابر والمنازل والأماكن المقدسة عند المسلمين. لقد قتلنا رجالا يحملون رخص المرور التي أعطيناها لهم، كما أننا ذبحنا كثيرا من الجزائريين بشبهة عارضة، لقد أبدنا قبائل بأكملها تبيّن بعدها أنها بريئة. لقد حاكمنا رجالا يقدسون السكان الجزائريين، لا لشيء سوى أنهم تجرأوا على التعرض لغضبنا. وقد وجدنا القضاة الذين حكموا عليهم بالإعدام، والرجال الذين نفذوا فيهم أحكام الإعدام، لقد كنا أكثر وحشية حقا من السكان الذين جئنا لتمدينهم»[1].

ولا تتسع المجلدات الضخام لاستعراض جميع تلك الجرائم الوحشية، والفظائع الشنيعة، التي قام بها الفرنسيون عند الاحتلال، فحسب القارئ الكريم أن يرهف أذنيه إلى هؤلاء الضباط الكبار الذين قادوا تلك الحرب الوحشية، ومارسوا بأنفسهم تلك الجرائم، ولوثوا بأيديهم التي تقطر بدماء الأبرياء تاريخ فرنسا (المحطمة للباستيل).

فهذا المارشال (دوسانت أرنو) يقول في (رسائل جندي) ما يلي:

«.. إن بلاد بني سناسن جميلة للغاية، وهي أغنى قطعة أرضية عرفتها في القارة الإفريقية.. الناس فيها يسكنون قرى متجاورة.. قد أحرقنا كل شيء فيها، وهدمنا كل ما يعترض سبيلنا.. ما أسوأ الحرب ما أسوأ الحرب.. كم من نساء وأطفال فروا منا والتجأوا إلى جبال الأطلس المغطاة بالثلوج.. وهناك ماتوا جميعا من جراء البرد والعري والبؤس»[2].

---

(1) المقاومة الجزائرية عدد 5–11 مارس 1957 ونشرت هذه الفظائع في كتب تاريخ الجزائر بأقلام العرب والمنصفين الغربيين.

(2) نفس المرجع السابق.

وقال الجنرال (مونتياك) في رسائل جندي:

«.. لقد قطعت رأسه ويده اليسرى ثم وضعت الرأس في طرف الرمح، وعلقت اليد في البندقية، وسرت بها إلى المعسكر.. وهناك تكفل أحد الجنود بحملها كهدية إلى الجنرال (براني ديلي) الذي كان يعسكر قريبا منا فأحدث ذلك في نفسه أعظم السرور»[1].

وقال الضابط الطاغية (بان) يصف إحدى المجازر البشرية التي أقامها بنفسه:

«إنها مذبحة فظيعة اختلطت فيها الجثث بالحجارة والحيوانات وبيوت الشعر والتراب. وقد تبين من تقدير دقيق قمنا به بعد الانتهاء من العملية أننا قتلنا ألفا وثلاثمائة شخص بين نساء وأطفال.. وكان جنودنا يهجمون على المنازل، ويذبحون فيها كل مخلوق يعثرون عليه أمامهم».

وقال الكولونيل (دمونتياك):

«.. وتسألني في فقرة من رسالتك عما نفعله بالنساء اللواتي نأسرهن فأقول: إننا نحتفظ ببعضهن بمثابة رهائن، ونبيع الباقي لقائد الجياد أو نبيعه بالمزاد كما نفعل بالمواشي. وكنت أحيانا أفرج عن همومي بقطع الرؤوس.. رؤوس الرجال طبعا».

وقال (آلم. ديوزايد) في كتابه (تاريخ الجزائر):

«.. جرد الجنرال (شانغاني) حملة على القبائل المعادية لفرنسا في شهر أكتوبر سنة 1836 لتأديب القبائل العربية القاطنة بين قرى الأحراش وبورقيقة.. وبعد أن أباد هذه القبائل عن بكرة أبيها، عادت الحملة بالغنائم والأسلاب. لقد باع الجيش الفرنسي مواشي العرب

---

(1) نفس المرجع السابق.

كلها إلى قنصل الدانمارك في الجزائر. أما الغنائم الأخرى فلقد عرضت للبيع في سوق باب عزون.. لقد شوهد من بين الأسلاب كمية من أساور ذهبية نسائية وهي ما زالت عالقة بقطع من أرانب الآذان. وقد تقاسم أثمان هذه الغنائم الجنود الذين ذبحوا نساء العرب.. ولم يكتف البوليس الفرنسي بهذه النتيجة فقط، بل أمر العرب في مساء ذلك اليوم نفسه أن ينيروا المشاعل والمصابيح أما حوانيتهم ودورهم علامة على الابتهاج والسرور»[1].

وقال الكونت (ديرسون):

«لقد كان الزوج من آذان الوطنيين يساوي عشرة فرنكات، وكانت نساؤهم طرائد فاخرة في نظرنا، والواقع أننا عدنا ومعنا برميل مليء بالآذان التي جمعناها زوجا فزوجا من الأسرى».

وقال المارشال (بيجو) يصف معاملة الفرنسيين للجزائريين:

«ولما كان تمدينهم -أي الجزائريين- غير ممكن فيجب أن نحشدهم بعيدا مثل الحيوانات المتوحشة التي لا تجاور المساكن الآهلة. إنه يجب أن يبعدوا إلى أعماق الصحراء، حتى يتركوا الطريق لمنشآتنا العصرية، ويرمى بهم إلى الأبد في أقاصي الرمال»[2].

والملحوظ أن حملات الإبادة كانت سياسة تطبق بتوجيه وانتظام في أيام الجنرال (روميجو) وحجته في ذلك صريحة واضحة تتجسم في قوله:

---

(1)، (2) ذكر هذه الصور البشعة القادة المشتركون في حرب الإبادة: (لامورسيير) و(كافينياك) و(سانترنو) وغيرهم.

«إن الجزائريين قوم يرفضون الاستسلام فلكي نقهرهم يجب علينا أن نحطم اقتصادهم.. يجب أن نقضي على زراعتهم وقراهم».

وقد هب في فرنسا رجال يؤيدون هذه السياسة ويدافعون عنها باسم المدنية والعمران فكتب أحدهم يقول:

«أما وقد عجزنا عن تمدين الجزائريين، فلنرم بهم بعيدا كالوحوش الضارية، التي تطرد من الأماكن المأهولة، علينا أن ندفع بهم أمامنا مع تقدم العمران، حتى نرمي بهم في الصحراء».

أما قوانين الأخلاق فقد كتب عنها أحدهم يقول:

«.. ودون خروج عن قوانين الأخلاق أو انتهاك للقانون الدولي، يمكننا أن نحارب أعداءنا الإفريقيين.. بالحديد، والنار، والجوع، وبإثارة الخلافات الداخلية، وبالحرب بين العرب وبين البربر، وبين التل وقبائل الصحراء، وبالخمر، والرشوة، والفساد وهذه أمور سهلة».

وأما الاعتبارات الإنسانية فيكشف عنها كاتب ثالث في قوله:

«إن مصادرة أراضي الأهالي هي الشرط الضروري لاستقرار الفرنسيين.. وليس لدينا الوقت الذي نضيعه في مناقشة اعتبارات الإنسانية.. لأننا إذا أردنا نشر المدنية وأردنا أن يستفيد الجميع من ثروة الجزائر، فيجب ألا نتردد في مصادرة الأرض للصالح العام».

ويبرهن الفرنسيون عن وحشيتهم وهمجيتهم في فخر واعتزاز فيقول بعضهم:

«كم هي جميلة حدائق البرتقال التي سأبيدها.. سوف أحرق اليوم قرى وممتلكات بني القائم وبني سالم».

ويقول آخر: «إنه المجد.. لست أرغب في تغيير ما أقوم به.. كم أتمنى لو أصبحت حاكما في قصر الجزائر، نفس القصر الذي قمت بحراسته كملازم صغير».

وكثيرا ما يقوم القادة بواجب المجاملة والملاطفة نحو أصدقائهم فيتركون لهم قبائل ودشائر ليبيدوها، فهذا (الكونت دي هريسون) يروي صورة عن ذلك ويقول:

«... وجاءت قبيلة أخرى تطلب الأمان.. ورفض الجنرال، لأن الكولونيل الشجاع الذي على يساره لم يحظ بعد بشيء من المجد. وإذن فلنترك له هذه القبيلة ليبيدها... وبعد أن يثبت اسمه في الصحيفة العسكرية سوف نقبل الأمان..».

ثم لم يمض وقت طويل حتى أصبحت هذه السياسة بقواعد ونظم، ومن قبيل ذلك أن النساء يعتبرن صيدا كاملا.. إذ يمكن الاحتفاظ بقسم منهن كرهائن.. ويمكن مبادلة قسم آخر بالخيل.. وأخيرا يمكن أن يباع القسم المتبقي في المزاد.

وقد كانت (الفظائع) الاستعمارية مجالا واسعا للفخر والاعتزاز بالنسبة أيضا للصحف والمجلات.. فهذه صحيفة (المونيتير) الجزائرية تكتب في شهر أكتوبر سنة 1831 وتقول:

«وصلتنا اليوم عشرون رأسا.. وحصر ثمان وستون رأسا على أطراف السنكي عند العودة.. وهذا شيء عظيم وبدء رائع للعمل..

واستمع أخيرا إلى الجنرال (شانجارنييه) يدلي هو الآخر بشهادته ويقول: «إن عساكري تجد تسليتها في عمليات (الرزايا) المتكررة التي قمت بها أثناء الشتاء ضد قبائل الحراش وأبو رقيقة..».

ولكن كيف كان وضع الشعب الجزائري في هذا الظلام الدامس، وأمام هذه المآسي الرهيبة؟ هل استسلم للقهر المفروض، ورضي بالوضع الحتمي، وانطوى على نفسه يندب حظه، ويبكي سوء طالعه، وينتظر النهاية الرهيبة التي يريدها له عدوه ويدفعه إليها؟

كلا، وألف كلا، إن الشعب الجزائري بما ركب فيه من عناصر القوة والأصالة، والحماية والمناعة، يأبى أن يخضع ويهون لأي قوة مهما كان وزنها ونوعها وشأنها!

إن هتافه منذ الفتح الإسلامي: (الله أكبر)، هذا الهتاف الذي يتضمن (سر الاعتقاد) و(سر الجهاد) و(سر التضحية والفداء) و(سر العلا والاستعلاء).

هذا الهتاف الذي تصرخ به الدماء في كيان الجزائري، ويُضفي على النفس تلك المعاني والأسرار، ويضيء الطريق أمام العقل والقلب، فتتضح الرؤية، وتتحدّد الوجهة، ويتعين الاتجاه، كان دأباً الحامي، والحافز والموجه!

فمن يسمع هذا الهتاف في أعماقه، كان أصعب شيء عليه وأقبحه، وأشد عارا أن يهون، أو يخون الأمانة، وكيف يهون أو يخون، وهو العزيز الأمين، وكيف يضعف أو يستسلم للأمر الواقع، وهو القوي الذي بيده التغيير، وتقرير المصير، ما دام في حمى (الله أكبر)؟

فمنذ أن وطئت أقدام الغزاة المستعمرين أرض الجزائر، فالثورات متواصلة، ونيران المقاومة متسعرة، فلم تطب لهم حياة، ولم يهدأ لهم قرار![1]

أصدر الكاتب الفرنسي (بارون لاقي) كتابه (آراء في استعمار الجزائر) سنة 1831 يقول فيه:

«.. ما دمتم تحتفظون بعاصمة الجزائر، ما انفككتم في حرب مستعِرّة مع إفريقيا.. فتبدو لكم هذه الحرب الضروس قد انتهت، إلا أن الشعوب الإفريقية، لا تزدادلكم إلا بغضا، وعليكم إلا حقدا.. تعتقدون أن النار قد خمدت غير أن النار كامنة في الرماد، وعلى حين غفلة وبدون انتظار، يلتهب الحريق من جديد».

وفعلا صدق هذا الحدس فتوالت الثورات منذ ذلك الحين إلى أن تحررت الجزائر بدون انقطاع فكان الجزائري يولد في الجهاد، ويعيش في الجهاد، ويموت في الجهاد..

وقد اشتهرت في التاريخ حروب بطول مدتها.. فحرب الأنجليز والفرنسيين دامت مائة عام. وحرب الألمان والفرنسيين دامت ثلاثين سنة. وحرب الفرس واليونان دامت عشرات السنين، وحرب البونيقية دامت أكثر من قرن.. ولكن حرب الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي أطولها مدة، وأبعدها عن الشفقة والرحمة والاعتبارات الإنسانية، حيث دامت (132 سنة) وهذه المدة التي قضاها الاستعمار الفرنسي في الجزائر تكاد تكون مجموعة المدد التي قضاها الاستعمار بتونس والمغرب وسوريا ولبنان.. حيث قضى بتونس 57 سنة، وبالمغرب 43 سنة، وبسوريا

(1) حرب الإبادة في الجزائر: جبهة التحرير الوطني الجزائري: مصلحة الدعاية والنشر، القاهرة.

ولبنان 25 سنة.. يلطف بعنوان الحماية أو يلين بعنوان المشاركة الفعلية أو يموه بعنوان الانتداب من طرف جمعية الأمم.

والجدير بالذكر أن الشعب الجزائري تعرّض أثناء هذه المدة الطويلة لشتى أنواع من الحروب، من شأنها أن تبيده، وتمحو شخصيته، ولكنه بالرغم من ذلك ظل محتفظا بمقومات شخصيته من الإسلام والعروبة والأصالة.

وها هي بعض تلك الثورات التي فجرها الشعب الجزائري في مختلف أنحاء القطر، ردعا لظالمه، وطلبا لحريته، وإعلانا للعالَم أجمع، أنه لم ولن يرضى بالاستعمار، وأن موته عن آخره خير له من حياته تحت وطأة الاستعمار، وأنه ما يزال يحفظ قول الشاعر العربي الأبيّ:

وحاربْ إذا لم تُعط إلا ظُلامة　　شبا الحرب خير من قبول المظالم

ثورة الأمير عبد القادر سنة 1832 – 1847

تلك الثورة التي أبدى فيها الأمير شجاعة نادرة، ومقدرة حربية مرموقة، وسجل الشعب الجزائري خلال هذه المقاومة بقيادة الأمير عدة انتصارات باهرة، مني فيها العدو بخسائر فادحة نكراء، ولما عجزت القوات الفرنسية عن إخماد الثورة الشعبية وتوالت الهزائم على المارشال (بيجو) اتفق مع حكومته أن يعتمد خطة الإبادة الجماعية، فأصدر الأمر إلى جيوشه بتنفيذ قانون الغاب فاندفعوا في وحشية تفوق كل تصور: يحرقون المدن والقرى، ويفتكون بالشيوخ والنساء والأطفال، ويدمرون الآبار والعيون الطبيعية، ويحرقون المزارع والغابات، ويسدُّون جميع نوافذ العيش أمام الجزائريين، ولا شك أن هذه الخطة الوحشية الجهنمية

تنهك الشعب وتشغله عن الواجبات الحربية، ولم يسع الأمير أمام هذه الظروف العصيبة القاسية إلا أن يستسلم للجنرال (لاموريسيير)[1] وذلك يوم 23 ديسمبر سنة 1847 بعد خمسة عشر سنة من الكفاح البطولي.

ثورة الزعاطشة سنة 1849:

وفي سنة 1849 أرسل القادة الفرنسيون قوة هائلة من جيوش الاحتلال إلى واحة الزعاطشة بالقرب من بسكرة (لتأديبهم) فهبّ هؤلاء بقيادة الشيخ أبي زيان لمقاومة قوات الاحتلال، رغم التفاوت البعيد بين الجانبين في العدد والعدة، وقد صمد أبطال الزعاطشة أمام القوات الغاشمة، وسجلوا في تاريخ البطولات أروع الصفحات، وحسبنا أنهم قتلوا في جانب العدو (2100) جندي من بينهم (30) ضابطا برتب مختلفة، وأصيب آلاف آخرون بجروح متفاوتة منهم (20) ضابطا أصيبوا بجروح خطيرة!

ثورة أبي بغلة سنة 1851 – 1855

وفي سنة 1851 هبّت قبائل زواوة وأثاروها رهيبة على القوات الفرنسية، انتقاما لإخوانهم الزعاطشة في أقصى الصحراء، وكان أبو بغلة هو الذي أعدّ النفوس وهيأها لخوض المعركة، وقد برهن أبطال جرجرة عن شجاعتهم وبسالتهم، وأوقعوا الجنرال السفاك (بيليس) في حيرة واضطراب، ولقنوه درسا في رباطة الجأش وصداقة البأس لا ينسى، وقد استمرت هذه الثورة خمس سنوات لمع في نهايتها اسم البطلة الخالدة الذكر (لالا فاطمة نسومر) قائدة المسبلين.

---

(1) قائد الحملة الاستعمارية في عمالة وهران.

ثورة محمد عبد الله بالأغواط سنة 1852

ولم تكد تخمد ثورة القبائل حتى قام محمد بن عبد الله في واحات الجنوب، يدعو إلى خوض المعركة، وما هي إلا أيام الدعوة والتهيئة والتأهب حتى تقدم المزابيون بالأسلحة والذخيرة وأخذت القبائل والقرى تتسابق إلى الميدان في حماسة وشجاعة ورغبة في النصر أو الشهادة ودارت المعارك قوية شديدة في الأنهج، وداخل البيوت، وفي كل مكان، تلاقى فيه المقاتلون. وكانت القوات الفرنسية يقودها الجنرال (بيلسير) والجنرال (ماك ماهون) والكومندان (مورون)، وما أن انتهت المعارك حتى شن الجنرال (بيلسير) حملة إبادية على الأهالي العزل، شأن قادة فرنسا العسكريين كلمّا تلقوّا ضربات قاصمة من أبطال المقاومات الشعبية الثائرين، انتقموا من الشيوخ والنساء، والأطفال![1]

ثورة البطلة (فاطمة نسومر) سنة 1854

كانت هذه البطلة من تلامذة الشيخ محمد المهدي السكلاوي اليراثني شيخ الزعيم البطل الشيخ محمد أمزيان بن الحداد شيخ الطريقة الرحمانية وقائد ثورة (1871).

واجهت هذه البطلة الغزاة المحتلين لمنطقة بني يراثن، وعين الحمام، ببطولة نادرة، وبرهنت هي وجيشها عن وطنية صادقة، وإيمان قوي، وغيرة وشهامة وإباء!

---

(1) وذلك ديدنهم في حرب التحرير الفاصلة فلا يبرهنون عن شجاعتهم إلا أمام المدنيين العزل.

وقد سجنت بتابلاط في زاوية الشيخ الطاهر بن محيي الدين باشا بني سلمان برفقة إخوتها: الطاهر بن أحمد أمزيان، ومحمد، والشريف وبقية أفراد أسرتها البالغين ثلاثين نسمة، وكان الفرنسيون يسمونها (نبية جرجرة)[1].

ثورة أولاد سيدي الشيخ سنة 1864م

أولاد سيدي الشيخ أسرة دينية تتمتع بالسلطة والنفوذ في عمالة وهران، وكان لها زاوية يشرف عليها ويدير شؤونها رجل يدعى (سي حمزة) وكان الأمل الذي يراوده منذ الصغر أن يصبح خليفة في جنوب وهران، وشعر الفرنسيون بهذه الرغبة وأدركوا ما سينجر وراءها من فوائد فاتفقوا معه وأصبح (سي حمزة) لعبة في أيدي الضباط الفرنسيين وآلة يسخرونها في سبيل مصالحهم، وكان لهذا السلوك المقيت أثر سيء في نفوس الأهالي، فاتفقت زوجة (سي حمزة) مع ابنها أن تدس السم لزوجها لتطهر الأسرة من رجس الاستعمار، وتولي ابنها قيادة القبائل والعشائر ونادى بالثورة، فاندفع الأبطال الأشاوس على اختلاف أعمارهم يلبون النداء، وزحفت قوات فرنسية هائلة، بقيادة الطاغية الجنرال (بوبويتر) بيد أنها لم تصل إلى ميادين القتال حيث أنها أبيدت في كمين محكم نصبه الثوار في مكان يدعى (عين بوبكر) على بعد (550) كيلومتر من البيض وتواصلت الحركة الثورية خمس سنوات[2].

---

(1) عن مجلة (الأصالة) ع8 س2 جمادى الأولى 1392 هـ ماي 1972 م.

(2) أنظر تفصيل هذا في كتابنا (الجزائر بلد التحدي والصمود).

ثورة المقارنة سنة 1871

وما إن حلّت سنة 1871 حتى كانت موجة التذمر تسري في الأوساط الشعبية من جديد، لأسباب وعوامل أهمها استيلاء المستعمرين على أراضي الفلاحين، فما كان من محمد المقراني أحد زعماء الأشراف إلا أن أعلن الثورة، وأخذت طبقات الشعب وزعماء الأسر الدينية يتسابقون إليه، وكان في مقدمتهم الشيخ بن حداد الذي قام بدعاية واسعة، وهيأ العقول والقلوب للثورة، وكانت المعارك بين المجاهدين والقوات الفرنسية، شديدة اندكت فيها حصون الاستعمار، وأرسلت فرنسا لتعزيز قوتها بالجزائر نجدات هائلة بقيادة الجنرالات: (سيريس) و(لالمان) و(بوسييه)، وفي 5 ماي 1871 استشهد المقراني في معركة رهيبة شارك فيها (8000) مجاهد وتولى قيادة الثورة شقيقه (بومزراق) في مختلف مناطق التل والصحراء إلى أن وقع في الأسر يوم 20 يناير سنة 1872م[1].

ثورة الأوراس سنة 1916

وفي سنة 1916 شبّت ثورة الأوراس التي تواصلت مدة طويلة استمات فيها الأبطال الأوراسيون في سبيل الدفاع عن الجزائر، وامتدت ثورتهم إلى قلب الصحراء حتى بلغت ورقلة، وكانت المعارك بينهم وبين الغزاة الفرنسيين شديدة تشهد لأهل الوطن بغيرتهم الوطنية الدينية، وشهامتهم ورفضهم الصارم للاستعمار!

---

(1) انظر تفصيل هذه الثورة وأجواءها وظروفها في كتابنا (الجزائر بلد التحدي والصمود).

وهناك ثورات أخرى ومقاومات شعبية، أظهر فيها مغاوير الجزائر رفضهم الصارم للاستعمار، وتحديهم لقواته الغاشمة الباغية، أعرضنا عنهارغبةً في الإيجاز والاختصار واكتفينا بما قدمنا، ولا بأس بالتذكير بها، وهي هذه:

ثورة بومعزة سنة 1844م – 1847م.

ثورة الشريف بوعود سنة 1845م – 1853م.

ثورة بوخنتاش في المسيلة والحضنة سنة 1860م

ثورة الشريف محمد بن عبد الله سنة 1842م

ثورة الشريف بوشوشة سنة 1869م

ثورة واحة العمري سنة 1876

ثورة الشيخ بوعمامة سنة 1881م – 1883م.

وقفتان للاعتبار

يتضح للقارئ الكريم مما قدمنا أن الشعب الجزائري كان منذ اللحظة الأولى من الاحتلال، رافضاً للاستعمار بكل قواه، ثم ظلّ يقاومه بكل ما يملك من قوة، ولم يتوان يوما عن إثارة الثورات، وخوض المعارك، حتى اندلعت ثورته التحريرية الفاصلة أول نوفمبر سنة 1954، وهذا يعني في دلالته الواضحة العميقة أن الشعب الجزائري أصيل بطبيعته، وأنه يدرك بعمق قيمة الحرية، ويدرك أن الإنسان المستعمر مستعبَد، ممسوخ الآدمية، وأن من يَرضى بالاحتلال يجهل نفسه، ومن ينقاد لغيره من بني آدم هو والغنم على حدّ سواء، والشعب الجزائري خُلق حراً ويجب أن

يظل حراً ومَن أراد أن يستلب منه هذه الحرية قاتله بلا هوادة، وهذا ما فعله مع المحتلين الفرنسيين!

وقبل المضيّ في رحلتنا التاريخية مع هذا الشعب الأسطوري الخالد، نقف وقفتين في ضوء تلك الثورات للعظة والاعتبار.

الوقفة الأولى

إن معظم الثوار الذين فجروا الثورات[1] وقادوا المقاومات الشعبية بالجزائر خلال عهد الاحتلال، كانوا أصحاب زوايا أو متخرجين منها، وهذا يعود إلى أسباب، وأهمها في نظرنا أن هؤلاء هم الذين تأصل فيهم الإسلام وتغلغلت فيهم قيمه وأخلاقه، ويضمرون للكافرين كراهية شديدة، حسبنا أن من هؤلاء من كان يقول بحرمة مصافحة الكافر، ويرى أنها من نواقض الوضوء.

قد يقول قائل إن هذا أنانية ذاتية لا تدلّ إلا على ضيق في الأفق، وجمود في الفكر، وتأخر وانطماس، ولكن من يعرف أن هؤلاء قد امتزجت بدمائهم كراهية المستعمر المعتدي الظالم، مما قرأوه من أحكام الإسلام على المجرم الذي يستحل الحرمات ويعبث بالمقدسات، ويحول حياة الآمنين إلى رعب وهلع، وقلق واضطراب، يعلم السر ويسلم في اقتناع وإذعان.

وأسوق هنا حادثة سمعتها من شيوخ بمنطقة القبائل وهم يذكرونها بالتواتر أبا عن جد، ولا يشكون في صحتها، وعلى فرض أنها مختلقة – ونحن نستبعد هذا – فهي لا تخلو من دلالة وبعد في الموضوع، وخلاصتها

---

(1) انظر تفصيل هذه الثورة وأجواءها وظروفها في كتابنا «الجزائر بلد التحدي والصمود».

أن حاكما فرنسيا اعتزم زيارة قرى في نواحي عزازقة، فأخبر "قايد" الدوار بذلك حتى ينظم له استقبالا يليق به، فقام هذا باتصالات مع أعيان القرى حتى يتهيأوا للاستقبال، وكان من بين هؤلاء شيوخ زوايا، وكان من التعليمات التي أرشدهم بها، كيفية مصافحة الحاكم، وكان من بينهم شيخ زاوية لم يكد يستوعب أمر المصافحة، حتى ثار وهاج، وقال أنا أصافح يد الكافر الذي احتل أرضنا، ومسخ عقيدتنا، واستعبدنا شر استعباد، كلا وألف كلا، إن هذا لن يكون أبدا، ولو كان فيه فصل رأسي عن جسدي!

وظل «قايد» الناحية في محاولة إقناعه بأن مصافحة الحاكم لا تعني حبه والإخلاص له، وإنما هي صورة شكلية، قد تكون مطية لنيل رضاه، ثم لنيل ما قد يطلب منه ، ولم يقبل الشيخ مصافحة الحاكم بعد نقاش واستعطاف إلا بشرط، وهو أن يلُفّ على يده منديلاِ حتى لا تمس يده يد الحاكم، ويعتذر عنه القايد إلى الحاكم بأن يده مريضة وهو يخاف أن يعديه بمصافحته بها، وبهذا وقعت المصافحة.

الوقفة الثانية:

يلاحظ أن الثوار في مختلف ثوراتهم ومقاوماتهم، هم الذين يلُحِقون بقوات الاحتلال خسائر فادحة، وإنما ينهزمون في النهاية للحملات الإبادية التي يشنها العتاة المستعمرون على الأهالي العزل، والتدمير الشامل لمعالم الحياة، وممارسة الأفعال الدنيئة اللاإنسانية مع النساء!

أما سبب انتصار الثوار على قوات الاحتلال في مختلف معاركهم فيرجع إلى هذه الأمور:

أولها: أن الثوار هم أهل البلد، العارفون لطبيعة الأرض: مسالكها ومساربها ومداخلها ومخارجها.

ثانيها: أنهم يُدافعون عن وطنهم المسلوب، وأرضهم المغتصبة، وأسرهم المهددة بانتهاك الحرمة، وتلويث العِرض، فهم بذلك شديدو الرغبة في القتال، حريصون على الإقدام ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، أما العدو فإنه يقاتل مُكرَها على القتال، مدفوعا إليه دفعا!

ثالثها: أن العربي يعتبر الشجاعة والثبات في المعركة من أجل الحق، شرفاً وفخراً، وأن من يموت مقبلاً هو أقوى من الموت، لأنه لم يخشه، ولم يفر منه، بل أقبل عليه بقوة وشجاعة، وهذه المعاني والقيم هي التي تُلهمه أساليب الكفاح، وتسمو به إلى مستوى الحدث الذي يدافع عنه، وهي التي يعيش في حماها وهو يقارع العدو وينازله.

إن الظلم هو الذي يسعر الحقد بين الجوانح، ويدفع إلى المعركة، ثم يظل يضطرم ويحمس ويغلي الدماء في كيان المحارب حتى يسقط في ميدان الشرف، وعلى ثغره ابتسامة الرضى والطمأنينة، وأين هذا في جنود الاحتلال؟

إن الظلم ظلام، ولكنه في كيان المحارب المظلوم نارٌ تحرق الخور، والضعف، والجبن، والاستخذاء، والحواجز التي تحول بين البشرية، والنصر والعلا.

إن الظلم ظلام، ولكنه في كيان المحارب المظلوم نورٌ يهدي إلى تقديس الواجب، واحترام الحق، وتفدية الوطن والدين بالنفس، والدم، والمال والراحة، ومتاع الحياة الدنيا!

الفصل الرابع

حروب من نوع آخر واجهتها الجزائر خلال عهد الظلام

تمهيد:

لم تبق لكم فرنسا -أيها الجزائريون- شيئا تخافون عليه، أو تُدارونَها لأجله، ولم تبق لكم خيطا من الأمل تتعلَّقون به، أتخافون على أعراضكم فقد انتهكتها؟ أم تخافون على الحرمة، وقد استباحتْها، لقد تركتكم فقراء تلتمسون قوت اليوم فلا تجدونه؟ أم تخافون على الأرض وخيراتها، وقد أصبحتم فيها غرباء، حفاةً عراةً جياعًا، أسعدُكم من يعمل فيها رقيقًا زراعيًا يباع معها ويشترى، وحظكم من خيرات بلادكم النظر بالعين، والحسرة في النفس، أم تخافون على القصور وتسعةُ أعشاركم يأوون إلى الغيران، كالحشرات والزواحف؟ أم تخافون على الدين، ويا ويلكم من الدين الذي لم تُجاهدوا في سبيله، ويا ويل فرنسا من الإسلام.. ابتلعت أوقافه، وهدّمت مساجده، وأذلّت رجالَه، واستعبدت أهلَه، ومحت آثاره من الأرض، وهي تجهد في محو آثاره من النفوس؟

إنها سارت بكم من دركة إلى دركة، حتى أصبحت تتحكّم في عقائدكم، وشعائركم، فالصلاة على هواها لا على هواكم، والحج بيدها لا بأيديكم، والصوم برؤيتها لا برؤيتكم، وقد قرأتم وسمعتم من رجالها المسؤولين عزمها على إحداث (إسلام جزائري) ومعناه إسلام ممسوخ، مقطوع الصلة بمنبعه في الشرق وبأهله من الشرقيين...

(الأستاذ محمد البشير الإبراهيمي، مِن كتاب "في قلب المعركة" ص: 17).

خطة جهنمية، وحروب متنوعة

ولكي تبقى الجزائر مرتعًا خِصبًا للمستعمرين الفرنسيين أبد الآبدين؛ ولكي يبقى الشعب الجزائري كالغنم لا يصلح إلا للاستغلال؛ الرجال عبيد، والنساء إماء، سواء حرثوا الأرض، أو بنوا القصور، أو شيَّدوا العمارات، أو شقّوا الطرق، اعتمدوا خطة جهنمية، وفلسفة شيطانية، وهي أن يحرموا هذا الشعب من كل وسيلة تمكنه من الحياة الكريمة، بل من أبسط حياة يعيشها الحيوان، ويعملوا -جاهدين- على مسخ الشعور الإنساني فيه، وقتل كل القيم والمعاني والمقوّمات التي من شأنها أن تُهيبَ به يومًا، أن يرفع رأسَه، ويقيم ظهره، ويطالب بالحياة!

«وشر ما في هذا الاستعمار الوبيل أنه كالمرض الذي يسلب المريض به رغبة العلاج أو رغبة الشفاء، لأنه يمسخ ما بقي فيه من معنى الآدمية فيُحيله إلى حيوان لا خلاق له، ولا فارقَ بينه وبين سائر العجماوات إلاّ أنه يستبقي رذائل الإنسانية: من الخسة والحسد، ولؤم البغضاء، والقحة التي عوفيت منها فصائل الحيوان»[1].

واعتمد المستعمرون لتحقيق هذا الغرض الجهنمي، وهذه الغاية المأساوية الرهيبة حروبا متنوعة، بعضها معنوي، وبعضها الآخر مادي، وفيما يلي عرضها بإيجاز واقتضاب.

---

(1) ثورة وثوار، للرائد السيد عبد الحفيظ عبد ربه ص 196.

حرب ضد العقيدة

من أهم أسباب غزو الجزائر الرغبة في القضاء على العقيدة الإسلامية، يدل على هذا ويجلوه ما جاء في مذكرة أرسلها (الكردينال لافيجري) إلى الإدارة الفرنسية جاء فيها ما يلي:

«علينا أن نخلص هذا الشعب ونحرره من (قرآنه) –هكذا– وعلينا أن نعني على الأقل بالأطفال لننشئهم على مبادئ غير المبادئ التي شب عليها أجدادهم، فإن واجب فرنسا تعليمهم الإنجيل، أو طردهم إلى أقاصي الصحراء بعيدين عن العالم المتحضر»[1].

وعبر سكرتير الحاكم بيجو عن أهداف الصليبية الفرنسية في الجزائر وعن الضغائن العنصرية التي يؤججها تدين مفتعل حيث قال:

«إن آخر أيام الإسلام قد دنت، وفي خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح، ونحن إن أمكننا الشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا فلا يمكن لنا أن نشك على كل حال أنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد، أما العرب فلم يكونوا ملكا لفرنسا إلا إذا أصبحوا مسيحيين جميعا»[2].

ولم يكن هذا مجرد كلام قيل للتمويه أو الخداع أو الدعاية، إنما هو نتيجة خطة مرسومة، وفلسفة مدروسة، فقد تمخضت الأيام بعد ذلك عن مسلسل من الأحداث لمحاولة القضاء على العقيدة الإسلامية، وتنصير الشعب الجزائري، ولكن هل نجحت فرنسا الاستعمارية في هذه الحرب، وفي هذه السياسة؟ الجواب: لا وألف كلا، فبالرغم من اضطهاد الفقهاء،

---

(1)، (2) الجزائر المجاهدة: جبهة التحرير الوطني ص 12.

والعلماء، وحفظة القرآن، وإغلاق المدارس والجوامع والكتاتيب، ومحاربة زوايا العلم والقرآن، وتضييق الخناق عليها، وبالرغم من الجهود المبذولة، والوسائل المتخذة، والقوانين المفروضة، والإجراءات التعسفية الجائرة، فإن الشعب الجزائري بقي على عقيدته الإسلامية لا يزيده الظلم والجور إلا التمسك بها، والذود عنها، فكان المستعمرون في مواجهة الشعب الجزائري في تلك المحاولات:

كناطِحٍ صخرةً يومًا ليُوهنَها فلم يُهِنْها وأوهي قَرنَه الوعِلُ

حرب ضد الإسلام ومعالمه ومقدساته

عرفت فرنسا أن الإسلام بالنسبة إلى الشعب الجزائري يعني الحصن الذي يعتصم به، والملاذ الذي يأوي إليه، والمعقل الذي يحفظه من كل رجات وهزات، والمدفع الأقوى في معارك الحق والحرية والدفاع - عرفت فرنسا كل ذلك وأكثر من ذلك، فجعلته نصب عينيها، ووفَّرت للقضاء عليه كل ما تملك من قوى ووسائل وجهود، وكان أول ما قامت به هو تجريده من قوته المادية وذلك بالاستيلاء على الأوقاف التي تكوّن ثروة هائلة، فأصدر الجنرال "دوبومون" في 7 ديسمبر 1830م أمرا يقتضي حق التصرف في الأملاك الدينية مع أنه كان قد أمضى معاهدة مع الداي حسين تقتضي احترام الديانة الإسلامية، وضمان ممتلكات الأهالي، وبذلك أصبحت فرنسا تتصرف حسب هواها في شؤون الدين ومعالمه، وكان هذا التصرف الأهوج أبرز مجال ظهر فيه الاستعمار الفرنسي، بحقده وقذارته، وسوء استغلاله، وفجوره وقهره!

الحرب ضد اللغة العربية

لم يكد يتم للاستعمار الفرنسي احتلاله للجزائر حتى أخذ في محاربة العربية، ولم تمض إلا فترة وجيزة حتى كان الاستعمار قد قضى قضاء كليا على المدارس والكليات الجزائرية التي كانت مزدهرة في مختلف أنحاء القطر الجزائري قبل الاحتلال الفرنسي المشؤوم، ولم تمض إلا ثمانية أعوام على الاحتلال حتى أصدر الوزير الفرنسي "ألم. شوتان" مرسوما يقضي بتحريم اللغة العربية باعتبارها لغة أجنبية، وبذلك جهل المواطن الجزائري لغة دينه وقرآنه، وصارت بالنسبة إليه غريبة لا يمت إليها بصلة، وأي وجود يذكر لمن لا لغة له؟ وأية تبعة أدل على العبودية والوجود الملفق من هذه التبعة: حرمان المرء من لغته، وهو في وطنه، وبين أهله، ووسط داره، وإذا مُنَّ عليه بتعلم لغة المحتل فإنما ذلك ليقوى به المحتل ويستعين به على فرض وجوده وهيمنته أكثر!

الحرب ضد أسماء الشوارع

لم يكتف الاستعمار الفرنسي بما شنَّ من حروب قاسية ضد العقيدة الإسلامية، والإسلام ومعالمه، وضد اللغة العربية، فشنَّ حرباً ضد أسماء المدن والشوارع والساحات، فغيّرها وحولّها من أسماء عربية تاريخية إلى أسماء فرنسية!

وقد يبدو للناظر السطحي أن هذه العملية لا تعدو أن تكون عملية وفاء لعظماء التاريخ الفرنسي، ولكن المتأمل البعيد النظر، يدرك خطورتها، وأنها إنما تعني في دلالتها العميقة، أن أول ما يفتح عليه الطفل الجزائري عينيه وهو يسير مع أبيه في شارع، أو يقف معه في ساحة، هو اسم من أسماء عظماء فرنسا، ثم إن البقية على والده الذي يحدثه عن تاريخ هذا العظيم، دون شعور منه أنه أعطى ابنه درسا في تاريخ فرنسا.

الفصل الخامس

الدرس الأخير أو تضحية الجزائر، وطغيان المستعمر يوم 8 ماي 1945

تمهيد

يقول الأستاذ المرحوم محمد البشير الإبراهيمي في أحد فصوله عن الشعب الجزائري المجاهد وفرنسا المستعمرة الطاغية:

أما والله لو أن تاريخ فرنسا كتب بأقلام من نور، بمداد من عصارة الشمس في لوح منحوت من صفحة القمر، ثم قرظه عشاقها المتيّمون منا باللؤلؤ المنثور بدل القرض المشعور، والشعر المنثور، ثم كتب في آخره هذا الفصل المخزي بعنوان مذابح -سطيف وقالمة وخراطة- لطمس هذا الفصل ذلك التاريخ كله ولجلله بمثل ما لجلل الأفق من ليلة محاق ظلماؤها معتكرة، ونجومها متكدرة، فكيف وفي تاريخها كثير من هذه الفصول السوداء[1]؟

(1) في قلب المعركة ص 158.

مجزرة 8 مايو 1945

هذه المجزرة الرهيبة التي لا يتصورها العقل –مهما كان تفكيره– حتى من الوحوش الضارية، والكلاب المسعورة، أكدت للورى، وخاصة للشعب الجزائري أن لا خير يُرجى –على الإطلاق– من فرنسا للشعب الجزائري، ودلت دلالة الشمس على النهار، أن فرنسا قد ضاعت منها كل القيم الإنسانية، وتنكرت لكل العهود والمواثيق، وأن ضميرها قد قبر في الجزائر ولم يعد هناك ما يربطها بعالم الإنسان.

لقد كانت فرنسا والدول الحليفة لها تحتفل في اليوم الثامن من ماي، بانتصار الديمقراطية على النازية والفاشية، وكان العالم يطوي صفحة سوداء من تاريخ البشرية، مليئة بالدماء والدموع، ويفتح صفحة جديدة تتلاءم وتطور التاريخ ومتطلبات حقوق الإنسان، ورفاهية البشر، وحق الشعوب في الحرية والاستقلال، فهبّ الشعب الجزائري يشارك العالم أفراحه، كما شاطره أحزانه وأتراحه بالأمس، إذ هو الذي خاض تلك الحرب الضروس إلى جانب فرنسا، فلوّحت له بحفنة من الوعود في تقرير المصير، فانخدع لها وأدركته رقة الشعور، فأشفق على فرنسا ورحِمَها وأعانها على عدوها فخلّف في المعركة نحو مائتي ألف من خيرة أبنائه، ولم يكن يعلم إذ ذاك أنه يُعين فرنسا على عدوها وعلى نفسه أيضا..

خرج الشعب الجزائري في مدن متعددة تضمه مظاهرات شعبية للمشاركة في الاحتفال، مع تذكير الواعدين بوعدهم، وقد حان وقت إنجازها، فلم يكن يعلم أن وراء جدران الثكنات العسكرية قوى من غلاة

الاستعماريين الفرنسيين تتأهب لإقامة مجزرة بشرية مهولة من أولئك الذين نصروهم على أعدائهم بالأمس.

فانطلقت النيران تحصد المتظاهرين، وحلقت الطائرات المحملة بالقنابل والدمار تدك المدن والقرى، وتسوى الأرض بجثث الأحرار، وبلغ عدد القتلى خمسة وأربعين ألف جزائري أقيمت منهم مجزرة تظل عبر التاريخ تلعن فرنسا، وتنطق بوحشيتها وبعدها عن الحضارة الإنسانية!

فعندئذ أيقن الشعب الجزائري أنه مخدوع، وأن الوسائل السلمية لا تحقق الغاية المطلوبة مع استعمار كافر أهوج، وأن اللغة التي يجب أن يستعملها معه إنما هي لغة النار ولغة القوة والموت.

التخطيط للثورة وأخذ العدة لها

ومنذ ذلك اليوم، أخذ الشعب الجزائري يخطط بحكمة رشيدة، وعزم صادق، وفي سرّية تامة ليوم أول نوفمبر الخالد؛ فاندلعت ثورة التحرير المباركة، وخاض الشعب غمارها ببطولة واستبسال، ورغم قوة فرنسا وحلفائها الذين لم يبخلوا عليها بالرجال والعتاد والمال، فإن الشعب الجزائري، قد حقق نصراً مبينا، ووضع بشجاعته وعزمه الفصل الختامي لمأساة رهيبة ظلت فرنسا تمثّلها على مشهد من العالم قرنا وربع قرن..

ومن هنا نبارك 8 ماي وإن كان يُثير في أعماقنا حسرات، ويُسيل من عيوننا عبرات، لأنه كان حجر الزاوية، في هيكل الثورة التحريرية، ونباركه لأنه لقّن الشعب الجزائري درساً لن ينساه، الدرس الأخير في حياته الذي اهتزت له قلوب الجزائريين من مختلف الطبقات، وانفتحت به

أبصارهم، هذا الدرس العميق القاسي الذي علم الشعب الجزائري أن السياسة التي لا تكون وراءها حركة مسلحة ليست إلا خِداعاً وتثبيتاً لقدم الاستعمار، وعلَّمه أيضا أن الباطل لا تستقر أقدامه إلا حينما يغفل عنه أنصارُ الحق ويستسلمون للضعف والهوان، وبذلك تموت الأمم وتُطوى صفحتها من الوجود! أما عندما تقوى العزائم، وتتوحد الصفوف، ويوثر الموت على الحياة الذليلة، فإن الباطل لابدّ أن ينهزم ويندحر، ولو بلغ ما بلغ من القوّة والبأس والجبروت، مصداقا لقوله تعالى: ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناسَ فيمكث في الأرض﴾، وهكذا مصيرُ الاستعمار الفرنسي أمام ثورة الجزائر: الهزيمة والضياع والخسران، رغم قوته وتمكنه وجبروته، فقد ضعف وهان لظلمه وبغيه ومنُاهضته لسنن الله الكونية التي تغلِب ولا تُغلَب..

إن يوم 8 ماي الذي كان قبَساً أضاء القلوب إيمانا بالجهاد والتضحية، وأنارَ الطريق إلى المعركة الفاصلة، سيبقى على الدَّوام كوكبا يتألق في ليل جهادنا الطويل، وعلَماً يخفق على شواهق تاريخنا المجيد، وعبرةً نافعة للمعتبرين، وشعلةً تتقِدُ في الأعماق تُذكي نار الحقد والكراهية للاستعمار.

الفصل السادس

الشعب الجزائري يفجر ثورة التحرير ويخوضها ببطولة

تمهيد

وهكذا عاش الشعب الجزائري في ظلام الاستعمار الدامس حياة أقل ما يقال عنها أنها حياة ذل وهوان، ونكد وبؤس، وعبودية واستبداد، وليس من المبالغة في شيء أن نقول أن التاريخ لم يعرف في مختلف عصوره شعبا عانى من أنواع الحرمان، وألوان العذاب، وضروب الهيمنة والسيطرة والتسلط، وصور رهيبة من الموت البطيء مثل ما عانى الشعب الجزائري!

صحيح أن الاستعمار ملة واحدة في كل زمان ومكان، سواء أكان أنجليزيا أم فرنسيا أم أمريكيا أم إيطاليا أم روسيا، أم من أي دولة أخرى مستبدة، وأن أسلوبه متشابه في كل شعب مني بالاستعمار، ولكن الاستعمار الفرنسي في الجزائر -بالخصوص- قد تجاوز كل حد، وفاق كل وصف وتقدير، وطبق سياسته التقليدية الخرقاء في المسخ والتشويه، والتسخير والإذلال، والسلب والنهب، تطبيقا واسعا عميقا جعله متميزا في العالم حتى قال (ألفريد ألوسيس هودن):

«إذا كان الله قد خلق مستعمرا أسوأ من المستعمر الفرنسي، فإنه لم يطلعني عليه ولم يخبرني به» -كما تقدم-.

ومع كل ما عاناه الشعب الجزائري من ويلات الاستعمار وبلاياه، فإنه ظل طوال عهد الاحتلال ثابتا صامدا يتحدى المحن والشدائد ويعلن للورى أن جوهره بقي سالما لم يمسه الاستعمار بأذى وإن مس عرضه، وأن روحه المعنوية ظلت في علو وشموخ، وإن استبدت بكيانه ذوات المخالب والناب، وأنه يتهيأ ليوم الفصل، وما أدراك ما يوم الفصل، يوم تقف فيه الدنيا وتقعد عند حدث سيظل عبر التاريخ يزلزل ذكره أقدام الطغاة المستبدين، يوم يعنى بدلالاته البعيدة العميقة أن السيول العارمة التي تجمعت من عرق الأبطال، ودموع اليتامى والأرامل، ودماء الشهداء، عبر عهد الاحتلال المشؤوم قد تحولت إلى تيار قوي جارف سيكتسح الاستعمار والمستعمرين في الجزائر !

يوم أول نوفمبر سنة 1954

في هذا اليوم التاريخي الخالد فجر الشعب الجزائري ثورته التحريريةالتي طهرت أرض الجزائر من جرذان الاستعمار وأعادت السيادة المسلوبة إلى أهلها، وأكدت للورى أن إرادة الشعوب من إرادة الله، وإرادة الله تغلب ولا تُغلَب، تهزم ولا تنهزم!

إذا الشعب يومًا أراد الحياة فلابدَّ أن يستجيب القدر

أما كيف اندلعت الثورة، وكيف انطلقت عملاقةً تحطِّم البغاة والجبابرة، وتقضي على الطواغيت والأصنام، وتهيئ المناخ للحرية والاستقلال فيتضح فيما يلي باختصار:

إن الثورة كانت نتيجة الأزمات المختلفة والشدائد المتنوعة، والضغوطات القاسية التي كان يتعرض لها الشعب الجزائري.

وكل تلك الأزمات على الأصعدة المختلفة، دفعت جماعة من المناضلين الوطنيين إلى الاجتماع لمناقشة المشاكل المختلفة والتفكير في كيفية حلها، حلا يؤدي بالشعب الجزائري إلى التحرر النهائي من الاستعمار:

وقد تمثلت لهم سبل النجاة في التجارب التي عاشها غيرهم، ومن بينها تجارب الأجداد الذين كافحوا وحملوا السلاح بدون جدوى، وكذلك تجارب الشعوب التي أحرزت على بعض النجاح، بينما مني البعض الآخر منها بالفشل.

إن هذه الجماعة من المناضلين المتشبعين بالدروس التي استنتجوها من هذه التجارب التاريخية، استخلصوا درسا بليغا من فشل الحركات السياسية التي لم تستطع أن تحقق الرغبات الشرعية للشعب الجزائري رغم الجهود والتضحيات المبذولة بسخاء في فترات مختلفة!

وقد درسوا بدقة وعمق لماذا نجح قطر باتباعه الطريق السلمي، وفشل قطر آخر مع اتباعه نفس الطريق، ولماذا نجد بعض الشعوب بعد أن استنفدت كل الوسائل السلمية تضطر إلى حمل السلاح دون أن تحقق نجاحا جديدا، ونجد شعوبا أخرى اتبعت نفس الطريق ونجحت وحققت الرغبة المنشودة.

وبعد هذه الدراسة النظرية العميقة التي تواصلت شهورا، وتطلبت لقاءات ومناقشات ونظريات، اتضح لهؤلاء المناضلين، أنهم لكي يحققوا أهدافهم يجب أن يعقدوا مؤتمرا يخرج بالشعب الجزائري من النظر إلى العمل، ومن الأمل إلى التنفيذ، ومن الكفاح السياسي إلى الكفاح المسلح،

لا سيما والشعب الجزائري ملّ من الوعود، وأرهقه الاستعمار بتعسفه وتنكيلاته. ولم يعد يفكر إلا في الكفاح المسلح ليعيش سعيدا، أو يموت كريما شهيدا!

وجاء في النشرة النظامية الداخلية لجبهة التحرير الوطني: وزارة الداخلية للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية عدد 1 شهر مارس 1961:

لقد كانت الحالة المعنوية للشعب قبل 1954 منخفضة، حيث ساد جو من التشكك، ومعلوم أن أي حزب سياسي أو جزء من الشعب يصل إلى هذا المستوى، لا يستطيع التخلص من وضعه إلا إذا اتبع طرقا جديدة للعمل.

وكان الكفاح المسلح في هذه الفترة مشتعلا في تونس والمغرب، بينما كان المناضلون الجزائريون يتساءلون في تلهف عن أسباب خمول الحركة الوطنية بالجزائر وتفككها، بعد أن كانت طليعة الحركات الوطنية في شمال إفريقيا، وكان كل مناضل لا يرى علاجا إلا الكفاح المسلح، والتضحية الكبرى. إذ لا طريق إلا هذا للسلامة والنجاة.

ولكن الأسف الذي يقطع نياط القلوب، أن هؤلاء الوطنيين لم يجدوا زعيما قادرا على أن يعطيهم المثل من سلوكه الخاص، وأن يخطط للطريق الذي يسلكونه، ويعيد لهم الثقة التي فقدوها ويفجر في أعماقهم الأمل في المستقبل، وقد دفعت هذه العوامل بهؤلاء الوطنيين في تلك الفترة إلى عقد اجتماع ضمن اللجنة الشهيرة باسم لجنة الاثنين وعشرين، وقد حضره أعضاء اللجنة من مختلف المناطق، وكانوا يمثلون عمالات الجزائر المختلفة!

وقد اجتمعوا في الجزائر –العاصمة– مدة ثلاثة أيام وقرروا تأسيس جبهة التحرير الوطني وتحديد تاريخ بداية الكفاح المسلح، وحددوا وسيلة لافتكاك حرية الجزائر من أيدي غاصبيها، هي الكفاح السملح الذي لا يفهم الاستعمار إلا بلغته.

والجدير بالملاحظة أن هذه الجماعة التي قررت بداية الكفاح المسلح في فاتح نوفمبر، لم تكن تملك حينذاك سوى القرارات التي اتفقوا عليها، والإرادة القوية الماضية في تحرير الجزائر، وكثير ممن شاهدوا انطلاق الثورة وأخذها في التوسع والتأجج يوما بعد يوم، كانوا يظنون أن قاعدتها وأرضيتها أموال ضخمة، ووسائل مادية معتبرة، ومساعدات أجنبية كبرى، والواقع أن كل هذا غير وارد، ولا أساس له من الصحة، فكل ما كان موجودا في الواقع هو اثنان وعشرون مناضلا وطنيا، مصممون على وضع حد نهائي، وفصل ختامي لمهزلة (الجزائر فرنسا) التي ما انفكّ قادة فرنسا يرددونها من حين لآخر!

وبعد اجتماع اثنين وعشرين الذي قرر اندلاع الثورة ويوم انطلاقها، أخذ كل مناضل من هذه المجموعة يجمع الخلايا الأولى للمنظمة بالوسائل المحدودة التي يملكها، كما أخذ في إقامة الهيكل الأول لجيش التحرير الوطني، كما كان همُّ كل واحد منهم أن يصنع جواً من الثقة والأمل لدى الشعب الجزائري، وأن يوقظ وجدانه الوطني، والواقع أن هذه المهمة ليست عسيرة لتهيؤ الشعب الجزائري،

واستعداده لذلك، ولم يكن ينتظر سوى إشارة ليبرز إلى الوجود، وتنطلق إرادته في مجال العمل الثوري!

وهنا لابد من الملاحظة مرة أخرى بأن أهم ما يربط بين هؤلاء المناضلين، وأهمّ معوَّلهم في الكفاح، هو تحرير الجزائر، والعمل الجدّي المتواصل من أجل تفجير الثورة ونجاح اندلاعها!

وكانت كل الجهود مركزة على شيء واحد فقط، هو اندلاع الثورة –كما جاء في النشرية السابقة– أما ما عدا ذلك فلا يوجد شيء سوى الفراغ، فليس هناك اتجاه محدد على المدى الطويل وليس هناك برنامج مخطوط ولا تنسيق مدروس، وقد كان السبب في هذا الضعف هو ضرورة الإسراع بإشعال الثورة دون انتظار للوقت المناسب الذي يضمن لها النجاح.. وذلك لتطور الأحداث الذي يفرض وضع المشكلة في نطاق كفاح الشعوب: المغربي، والتونسي، والهند الصيني ضد الاستعمار الفرنسي، فقد امتازت سنة 1954 بأن هذه الشعوب الثلاثة قد أنهكت بحربها فرنسا، وفتحت هزيمة فرنسا في (ديان بيان فو) أبواب التفاوض، وسيطرت العقلية التفاوضية في تونس والمغرب، رغم الالتزام الذي كان يربط الحركات الوطنية في شمال إفريقيا، والذي يفرض بصفة صريحة على كل شعب في المغرب العربي ألاَّ يلقي السلاح ما دامت كل شمال إفريقيا لم تتحرر التحرر الكامل، وكان المناضلون الجزائريون يخشون أن يعود السلام إلى الهند الصينية، وتونس والمغرب، وتركز فرنسا بعد ذلك إمكاناتها وجميع طاقاتها العسكرية في الجزائر، فتحاول تحطيم الثورة الجزائرية!

وأمام هذا الوضع الخطير، وهذه الحالة الصعبة، التي توقعها المناضلون الوطنيون، لم يكن أمامهم إلا تعجيل القيام بالثورة المسلحة دون انتظار للخطة المحدودة المطلوبة، ودون انتظار لوضع برنامج كامل للعمل وتنسيق شامل لكل المستويات!

وهو موقف يدل على وضوح الرؤية، ونضج العقلية السياسية، وتفكير سليم في النتائج والمقدمات!

وكانت الطليعة الثورية للشعب الجزائري نظمت في نواة ضمت حوالي ثلاثة آلاف وطني، ويقول المناضل المرحوم كريم بلقاسم عن هذه البداية:

«وفي البداية تكونت الثورة في خمس نقط رئيسية تتفق مع المناطق الجغرافية الخمسة، التي عينت لتكون الحصون الأولى لجيش التحرير، وشيئا فشيئا كانت فرقنا تمتد وتتغلغل في المناطق الأخرى.

وكما ينتشر الزيت عمّت الثورة كل المناطق وأصبحت كلها أجزاء مترابطة في كل واحد متماسك، وكانت سنة واحدة كافية لكي يصبح جيش التحرير الوطني مشرفا على كل أنحاء القطر الجزائري، وفي نفس الوقت الذي تم فيه هذا الامتداد الأفقي كان جيش التحرير يمد جذوره القوية في أعماق الجماهير الشعبية» (المجاهد عدد 31، 1 نوفمبر 1958).

أثر الثورة التحريرية في الشعب الجزائري

يتجلى أثر الثورة التحريرية في الشعب الجزائري بعرض صورة له قبل الثورة، وخلاصة ذلك أن الشعب الجزائري كان قبل فاتح نوفمبر 1954 مفكك الأوصال، لا تربط بين أبنائه روابط التعارف، لأن الاستعمار

الفرنسي قطع الصلات، وفصم الروابط، ليتمكن من السيطرة والهيمنة والاستغلال على القاعدة المعروفة: (فرّق تسُدْ).

وقد صورّت صحيفة (المجاهد) وضع الشعب الجزائري قبل الثورة تصويراً صادقا عميقا ننقله منها مع طوله لأهميته في الموضوع، قالت الصحيفة بعد أن تحدثت عن قضاء الاستعمار الفرنسي على اللحمة التي تربط أبناء الأمة الجزائرية الواحدة بروابط التعارف والتساكن والتشارك في الحياة:

«وإلى جانب هذا التمزيق الداخلي المادي والاجتماعي الذي حققته السياسة الفرنسية في الجزائر نجد شكلا آخر وهو التمزق المعنوي الروحي!

إن المرأة الجزائرية التي وجدت نفسها مجبرة على أن تعيش في جهات كثيرة مع المجتمع الدخيل الذي كوّنه الاستعمار الفرنسي في الجزائر ولم تجد إلى جانب ذلك مدرسة وطنية تربط نفسيتها بحضارتها القديمة.

وإن الشاب الجزائري الذي يعيش نفس هذه المأساة الروحية والذي لا يجد في حياته الثقافية، الاجتماعية أو السياسية ما يربط بين نزعاته القومية، وبين الحياة الواقعية التي يجدها.

وإن الطفل الجزائري الذي يعيش في حياة التشرد ولا يجد في الشارع أي مظهرمن مظاهر قومية بلاده فلا يعرف علما وطنيا، ولا يشاهد بذلة رسمية ترمز إلى السيادة، ولا يسمع بعيد قومي، ولا تلقى في أذنه كلمة واحدة عن أجداده وهو على كرسي المدرسة!

وإن المثقف الجزائري الذي يعيش في الإدارة الفرنسية، فيجد كل شيء فيها وكل أجهزتها إنما تتحرك وتعمل لنفع الجالية الفرنسية واستغلال الجماهير الشعبية من أبناء جلدته.

وإن الفلاح الجزائري لا يذكر أنه عرف من السلطة الفرنسية روحا من العون على نوائب الطبيعة، ولا تحدثه نفسه بأن له دولة في حمايته من المجاعة، وإنما الصورة الوحيدة التي يحملها في ذهنه عنها هي ابتزاز رزقه بعد أن يكدح في سبيله العام تلو العام!

وإن التاجر الجزائري الذي يجد أمامه أبواب البنوك موصدة، ويشعر كل يوم وفي كل حركة أن مجال عمله محدود في نطاق خانق لا يتجاوز التعامل مع أشباهه من مواطنيه في مواد كاسدة ميتة!

وإن الجندي الجزائري الذي تموت منه الأجيال تلو الأجيال تحت العلم الفرنسي ولا يعرف إلا الموت من أجل فرنسا!

وإن الإنسان الجزائري -باختصار- الذي ظل يعيش أكثر من قرن كامل في مستوى الحضيض من المهانة والاختناق المادي والمعنوي، والذي يحمل على كاهله أعباء قرون متطاولة من العبودية والمذلة والفقر والعزلة..

هذا الجزائري المشتت الهائم في مجاهل التاريخ فقد نفسه، ونسي خصاله وشخصيته ومظاهر قوميته، وأصبح لا يؤمن بنفسه ولا يثق فيها، ولا يتصور مجالا للحياة غير الذي ألفه في ظل هذه الأمراض» (المجاهد عدد 31، 1 نوفمبر 1958م.

هذا الشعب المنكوب المتكون من هؤلاء وأمثالهم، والذي فقد كل شيء يمكن أن ينازع به البقاء بحرية وكرامة إلا شيئا واحدا لم يفقده بل ظل على حاله وكنهه رغم ما تكسرَّ عليه من نبال، ذلك هو شخصيته التي ظلت عبر قرن وربع قرن من الاحتلال قوية نقية!

فما إن اندلعت الثورة التحريرية حتى اهتز الشعب الجزائري، ونفض عن نفسه الغبار، وأدرك بعمق أنه قادر على مواجهة الأحداث مهما كان حجمها وقوتها، وتحدى العواصف مهما كان عتوُّها وشدتها، وتكسير القيود المعوقة، والصخور المعطلة، مهما كان وضعها.

وهكذا فأول انتصار يسجل لثورة التحرير الخالدة هو أنها كشفت للشعب الجزائري أنه وإن فقد وجوده المادي الذي يتمثل في أرضها وعُمرانها، لم يفقد وجوده المعنوي الذي يتمثل في شعوره بقيمته في الحياة العامة، وبتمسكه بقيمه الروحية والأخلاقية.

والأمة قبل كل شيء بوجودها المعنوي، فإذا قوي وجودها المادي، وضعف وجودها المعنوي، ووقفت على حدود شخصيتها الحسية الماديّة، أصبحت ذليلة وإن كانت مقيمة على أرضها، فقيرة وإن كانت تملك قناطير من الذهب والفضة، قليلة وإن ضاقت الأرض برجالها ونسائها.

بهذه الشخصية، وبهذه القيم، وبهذا الوجود المعنوي المتميز، أخذ الشعب الجزائري يبني نفسه خلال هذه الثورة الرائدة، وبه انطلق يخوض معركته الفاصلة، ضد فرنسا والحلف الأطلسي.

إذا كان اندلاع الثورة التحريرية في ظروف شائكة غامضة متعفنة، كانت فيها الأحزاب السياسية ليست منقسمة فحسب بل كانت متحاربة متنافرة فيما بينها، وكان فيها الشعب الجزائري منطويا على نفسه تملأه المرارة والغضب ويعتصره التحسر.

وإذا كان اندلاع الثورة في هذه الظروف قد أثار دهشة العالم، وشغل أجهزة الإعلام في مختلف أنحاء المعمورة، فإن فرضها لوجودها،

وانتصارها على العقبات والمعوّقات التي واجهتها في بدايتها، واستواءها على الطريق الصاعد، ودخولها في التاريخ بفكرها، وفلسفتها، وأسلوبها، وإنسانيتها، وإيمانها، وعقيدتها، رغم شراسة العدو وضراوته، ورغم عتاده الضخم، وجيوشه الجرارة، وحلفائه الأقوياء – كان لغزاً محيّراً، وسراً مثيراً، وشغلَ العقول والألسنة والأقلام!

وكيف لا ولم تكن إلا جماعة قليلة من الوطنيين الأحرار، لا يملكون المال ولا السلاح يصمّمون على تفجير الثورة، وخوضها، وضدٌ من؟ ضدٌ فرنسا التي تسيطر السيطرة التامة على أرض الجزائر وبحرها وسمائها، وتملك عتاداً عصريا ضخما، بريا وبحريا وجويا، ويجمعون في ظرف ستة أشهر ثلاثة آلاف مناضل، وينظمونهم في تكتم وسر كاملين، ألا يدعو هذا إلى الدهشة؟

إن قادة الثورة يعرفون يوم أن أقدموا على تفجيرها قوة العدو وشراسته ووحشيته، وما سيواجهه الشعب الجزائري منه من تنكيل وتعذيب وإجرام ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يعرفون قوة الشعب الجزائري، وقدرته المتميزة على الثبات والصمود والمقاومة، وأنه ما إن يرى الثورة قد اندلعت واشتعلت حتى يلتف حولها، لتعطشه إلى الحرية وتلهفه إلى الاستقلال، ورفضه لحياة الذل والعبودية والهوان!

وبهذه الروح المعنوية الجبارة، التي كان الشعب الجزائري في حماها خلال عهد الاحتلال–وبها انطلقت ثورة نوفمبر الخالدة– انطلق الكفاح المسلح وأخذ يتسع لهيبه، وأخذت هجومات جيش التحرير الوطني على العدو، ومعارك النصر تتوالى في كل مكان من أرض

الجزائر، وما من وطني جزائري أو جزائرية إلا كان شعاره النصر او الشهادة ولسانه حاله يقول:

سأحمل روحي على راحتي وأرمي بها في وجود الـردى
فإما حيـــاة تسـر الصَّـد يق وإما ممات يغيظ العدى

وهكذا وجدت فرنسا نفسها أمام ثورة بأوسع معاني هذه الكلمة، ثورة لها فكرها وفلسفتها، ولها مبادئها وأسلوبها، ولها نظامها وقيمها، ولها أجهزتها الثورية القوية العنيدة!

وكان قادة فرنسا عند اندلاع الثورة يصرّحون بأن هذه الثورة ليست إلا تمردا قبليا، أو تهويش لصوص لا يلبثون أن يرتدعوا أمام عصى الشرطة. وأحيانا يوهمون أنفسهم والرأي العامَّ بأن الثورة على وشك النهاية، ويصرحون بذلك في مناسبات مختلفة، ولا يخجلون بعد ذلك أن يكذِب الواقع الثوري زعمهم وادعاءهم، والمهمُّ عندهم أن يتقولوا، ولا تهمهم بعد ذلك سمعتهم أو سمعة فرنسا التي يتحدثون عنها وباسمها!

وإذا تَتَبَّعنا الشهور الأولى للثورة فإننا نجد هذا النغم أنشودة كل قائد فرنسي سواء أكان عسكريا أم سياسيا، ففي 15 ماي 1956 صرّح (سامبيكش):

«إني أعتقد أننا سنكون في نهاية الصيف سادة الموقف»، وفي شهر جوان 1955 قدم وزير الداخلية الفرنسية آنذاك (بورجيس مونوري) أمام مجلس الوزراء الفرنسي عرضا عن الحالة بالجزائر قال فيه:

«إن حالة الطوارئ قد حالت دون تعميم الثورة وانتشارها كما نزال نوجه الضربات القاسية للثوار بقتل قادتهم أو إلقاء القبض عليهم وقد تحصلنا على نتائج مدهشة».

وفي 8 جوان 1956 صرح (ماكس لوجون) كاتب الدولة للدفاع آنذاك فقال: «لقد تحصلنا على نتائج مدهشة في الشمال القسنطيني حيث توقف نشاط الفرق المسلحة».

وفي 29 أكتوبر وجّه (غي مولي) و(لاكوست) نداءً إلى الثوار حتى ينضموا، وضمن لهم الأمان والتساوي في الحقوق مع الفرنسيين الآخرين.

وبعد أيام أعلن (لاكوست) تسليم عجول كنتيجة لذلك النداء وقدمه في شكل انتصار كبير على الثوار!

ومنذا الذي ينسى (ربع الساعة) الذي كان يلوكه لاكوست ويتشدق به في مختلف المناسبات، فقد كان يقول من حين لآخر: لم يبق للثورة سوى ربع ساعة حتى عرف به، وصار به مثار السخرية والتندر!

وهكذا لم يجد القادة الفرنسيون أمام هذه الثورة، التي تتطور كل يوم ويتسع لهيبها، ويشتد أوارها، ويقوى زحفها نحو النصر النهائي، إلا هذه التصريحات الواعدة، التي لا تلبث أن يدحضها الواقع، وتفندها الثورة بانتصاراتها الرائعة!

يضاف إلى هذه التصريحات المزيفة التي توهم بها القيادة الفرنسية جمهرة جنودها، تلك المبالغة السافرة في الأنباء الحربية، وتناقضها أحيانا، مما جعل الرأي العام لا يثق فيها، فعلى سبيل المثال: نشرت قيادة الجنرال (سالان) بلاغا عن مجموع خسائر جيش التحرير الوطني في جميع العمليات الواقعة في أسبوع (17 – 24) نوفمبر 1958 جاء فيه: إن الثوار خسروا (840) قتيلا، ثم أصدرت بعد ذلك بساعات قليلة بلاغا

آخر تقول فيه: «إن رقم (840) قتيلا مبالغ فيه جدا، وأنه لا بد من التحري في الأرقام لكي تعتبر رسمية».

وفي 23 نوفمبر أصدر مكتب (سالان) أيضا أن معركة آفلو قد انتهت بخسائر عديدة في جانب الثوار، ولم يذكر البلاغ مبلغ الخسائر الفرنسية بل لم يذكر إن كانت هناك خسائر مطلقا، وفي 26 نوفمبر –إلى بعد ثلاثة أيام– أذاعت وكالة ف. ب أن الجنرال سالان حضر بالجزائر تشييع أربعة عشر جنديا من جنود المظلات قتلوا في معركة آفلو (عن المجاهد ع 3 3 – 8 ديسمبر 1958).

وضع الجيش الفرنسي في الجزائر

كان الجيش الفرنسي في مجموعه يشعر دائما بالهزائم الحقيقية التي يلقاها أمام جيش التحرير الوطني، ويدرك طبيعة هذه الحرب التي لا يمكن أن ينتصر فيها، وتعليل هذا عند صحيفة المجاهد التي تقول: لأن مجموع القوى –معنوية ومادية– ليست متوازية وليست في صالحه ويدل على هذه الحقيقة، تلك الحركة التي ظهرت في صفوف الجيش الفرنسي سنة 1955 من رفض للتجنيد في الحرب واحتجاج صارم على أساليبها!

ولكن الإطارات العسكرية العليا ما انفكّت تعمل على تضليله فأوهمته أن الحرب في الجزائر تستند إلى أساس صحيح عادل (هو الدفاع عن القيم الحضارية) وأنه كان بإمكانه أن ينتصر لولا جهاز الحكم الفاسد في باريس الذي يعرقل كل خطة عسكرية حكيمة، ويحول دون تنفيذها ويبخل على قيادة الجزائر بكل ما تطلبه من عون وميزانية أو مدد

وسلطات جديدة، وبهذه الكيفية صرفت القيادة العسكرية سخط الجيش الفرنسي في مجموعه عن النظر إلى ضعفه الحقيقي (المصدر السابق).

وصرح قس اختطفه الفدائيون ليطلعوه على أساليب الثورة ونظمها وفشل الأساليب الاستعمارية لمراسل صحيفة (المجاهد) بأن معنويات الجنود الفرنسيين منهارة، وتزداد مع مرور الأيام سوءاً وانهيارا، وتحدث بالخصوص عن أكاذيب القادة العسكريين لرفع معنويات الجيش وقال: «لقد قصّ عليّ جنديٌ من جنود المظلات اسمه (بانتون غرالينا) وقال: وقع اشتباك عنيف في الولاية الخامسة بلغنا أن خسائرنا فيه كانت فادحة، وصادف أن الكتيبة التي أنتمي إليها لم تساهم في المعركة فجاءنا الكابتان وقال لنا: إن الكتيبة الفلانية قد قضت على الثوار وأبادتهم عن آخرهم في معركة اليوم، وبعد ذلك بقليل التقيت في المقهى بزميل لي ينتمي إلى الكتيبة التي قال عنها الكابتان أنها أبادت الثوار فسألته عن صحة ما قاله الكابتان، فأجاب بالعكس، لقد قال لنا قائدنا إن كتيبتكم هي التي اشتبكت مع الثوار وأنهم أبادوها عن آخرها (المجاهد ع 62 – 22 أبريل 1960).

والمثير أن القيادة الفرنسية تصرح بهذه التصريحات، وتعلن عن هذه الأوضاع، وهي غير مؤمنة بها في نفسها، بل هي مؤمنة أنها مجرد تعِلاّت تعلل بها الجيش، وتمدد في طمعه المحتضر في النصر!

وإنما كان القادة العسكريون يواصلون الحرب في الجزائر، لا طمعا في النصر عسكريا على الثورة، وإنما تجنبا للهزيمة السياسية التي تتمثل

حسب نظرهم في التفاوض مع جبهة التحرير الوطني، لأن الهزائم العسكرية المتوالية، يمكن إخفاؤها على الرأي العام الفرنسي والعالمي، أما الحل السياسي فلا يمكن إخفاؤه وهو يدل في نفس الوقت على الهزيمة العسكرية!

وهناك بجانب هذا أمر آخر هام لا ينبغي التغافل عنه أو إهماله، وهو أن أغلب القادة العسكريين الذين يخوضون الحرب في الجزائر قد عملوا في الهند الصينية، واكتشفوا هناك أسلوباً من التنظيم العسكري جديدا عليهم، وأنه هو الطابع الذي يستلزمه كل نظام ثوري، وكل حرب تحريرية!

والذي نصل إليه من كل ما تقدم هو أن الثورة أربكت القيادة الفرنسية، ولم تدر ما تقول وما تفعل، وأصبح هدفها أن تقول وتدعي دواعي كاذبة، وتحاول أن توهم الرأي العام بأن الثورة على وشك النهاية، وأن جيش التحرير قد تكبّد خسائر فادحة، جعلت معنوياته في طريق التلاشي والانهيار!

وما تلبث أقوالهم ودعاويهم تلك أن تفتضح وتنكشف عن الوضع الصحيح في الجزائر، وعن الحقيقة التي يعيشها الشعب الجزائري وجيشه، من قوة وتلاحم وتصميم على النصر النهائي!

وهكذا هزّت الثورة معنويات الفرنسيين وعلى رأسهم قادتهم، وجعلتهم يعيشون وضعا غامضا مُرْبكا يتناقض مع الحقيقة والواقع، وهذا كسب هائل للثورة ونوع من الانتصار!

ولا يتسع المقام لعرض صور رهيبة عن نفسيات الجنود الفرنسيين عندما يعودون إلى بلدهم، وقد نشرت مجلة (الطليعة) المغربية مقالا قيما في هذا الموضوع كتبه طبيب جزائري باللغة الفرنسية، وقد نشرته صحيفة (المجاهد في عددها الخاص بذكرى أول نوفمبر سنة 1960)، ويلاحظ أنه لم يكتب بلغة الحقد أو الغضب العاطفي، وإنما هو ملاحظات علمية تتجاوز التفاهات العاطفية، وقد استعرض المقال صورا من وحشية الفرنسيين (المتمدنين) التي تتمثل في محاولة إبادة الشعب الجزائري بالتعذيب والإعدام بالجملة، وتدمير القرى على ساكنيها، وإحراق آثار الحياة فوق التراب، وذكر المقال صورا عن الجنود الذين يعودون إلى بلدهم وهم يحملون عقدا نفسية، وأمراضا عصبية، من جرّاء ممارستهم للتعذيب الوحشي، أو مشاهدتهم للجلادين الفرنسيين وهم يتفننون في تعذيب الإنسان الجزائري، وأهون عقدة يصاب بها هؤلاء أنهم إذا سمعوا صراخا أو عويلا فقدوا عقولهم، وانتفضوا، ومنهم من ظَلّ يلاحقهم صراخ المعذبين في كل مكان حتى في وقت النوم، ومنهم من عادوا إلى بيوتهم ثم لم يلبثوا أن فارقوا زوجاتهم أو فارقتهم لتعذر الحياة بينهم، من جراء تدهور أحوالهم النفسية، وقد صرح أحد هؤلاء لكاتب هذا المقال:

«.. واليوم عندما أسمع أحدا يصرخ عن بعد أستطيع أن أعيّن لك في أي درجة هو من التعذيب، وهل أن صراخه ناتج عن ضرب باليد أو بالعصا الحديدية خلف الأذن أو نحو ذلك، فهو له صوت خاص في كل

مرحلة، وكذلك عندما يعلق من يديه مدة ساعتين، وعندما يدخلونه إلى حوض الاستحمام.

ويضيف: أما الصراخ الذي لا أطيقه فهو صراخ المعذبين بالكهرباء، على أن هناك من لا يصرخون، وهم الأشداء المتعنتون وهم يتصورون أننا سنقتلهم بسرعة، أما نحن فإننا نعرف أن قتلهم لا يهم بل الذي يهم هو المعلومات التي نأخذها منهم، ولذا فإن عملنا بالنسبة لهؤلاء الأشداء هو أن نتوصل إلى أن نثير صراخهم، فذلك عندنا انتصار عظيم.

ويضيف: إنني اليوم أريد أن أبتعد عن هذا الصراخ، ولكنه يلاحقني إلى داخل بيتي، وخاصة صراخ الذين توفوا تحت التعذيب في مركز الشرطة».

وإذا كانت هذه حال من يمارس التعذيب أو يشاهده فكيف بمن يمارس عليه التعذيب بأنواعه الوحشية؟

ولسنا في حاجة إلى الإطناب في وصف معنويات الجنود الفرنسيين، وما يؤول إليه أمرهم من عقد نفسية وأمراض عصبية، وأوضاع سيئة عفنة، لأن ذلك يمدد هذا الكتاب وقد يخرجه عن هدفه وطبيعته!

يضاف كل هذا إلى تأثير الثورة في الاقتصاد الفرنسي تأثيرا مهولا، جعله يتخبط في أزمة خطيرة لا حدّ لها، فالنفقات الحربية ما انفكّت تزداد وتتسع منذ اندلاع الثورة، ففي بداية أكتوبر سنة 1957 فقط طلبت الحكومة المستقيلة 92 مليارا من الفرنكات.

وإذا كانت الثورة التحريرية هي السبب المباشر في انهيار الاقتصاد الفرنسي، فإنها أيضا السبب في أزمات كثيرة أخرى لا يتسع المجال لذكرها، صارت كلها في كيان فرنسا دماميل وجراثيم وقروحا تعمل كلها على توهينه وإضعافه!

لم يكن جيش التحرير الوطني عندما اندلعت ثورة نوفمبر إلا ثلاثة آلاف وطني مناضل منتشرين عبر القطر الجزائري الشاسع، مختلفين أعمارا وأزياء وأسلحة ولكنهم متفقون كلمة واتجاها وهدفا!

ولم يكن سلاحهم الذي واجهوا به قوات فرنسا إلا بنادق صيد، بعضها بالأسلاك مشدودة، ولكنها كانت في أيدي هؤلاء المناضلين الأوفياء، قوية فتاكة، لأن العبرة في الواقع ليست بالسلاح وإنما هي قبل كل شيء في حامله ومستعمله، فكم رشاشة متطورة تعطل مفعولها لأنها في يد جبان رعديد، وبندقية صيد مشدودة جزّت رقابا، وأذلّت كبرياء، وقضت على جحافل الطغيان، ورأس نظام يقوم على الظلم والاستبداد.

هذا الجيش القليل العدد، الضعيف العتاد، أخذ يتكاثر شيئا فشيئا، وتتعدد هجوماته وكمائنه، وتتنوع أسلحته بالشراء وما يغتنمه من العدو، حتى أصبح يقف أمام قوات الحِلف الأطلسي الجهنمية، ويخنق الجيش الاستعماري، ويلحق به ضربات ماحقة، وكثيرا ما جعله يعيش في معزل عن العالم من جرّاء الهجومات العنيفة المظفرة، والمحاصرات المحكمة، والمواصلات المخربة!

هذا الجيش الذي طالما قال عنه لاكوست:

«بأنه كمشة من الخارجين عن القانون لا خلاق لهم ولا دستور» تطور في أمد وجيز وانتقل من حرب العصابات إلى مستوى الحرب النظامية، وتعزز جانبه بمن كان ينضم إليه من الضباط والمجندين الذين استيقظت فيهم مشاعر الوطنية، ففروا من صفوف العدو ملتحقين بجيش التحرير الوطني بما لديهم من سلاح وأجهزة حربية.

جيش التحرير الوطني وإطاراته

ولا بأس هنا أن نلم إلمامة بإطارات جيش التحرير الوطني، ورؤسائه ليكون القارئ على بيّنة منها، والذي يدعو إلى هذا أمور، منها أن أبناءنا - ربما بلا استثناء- يجهلون هذا كل الجهل، وأن المقام يتطلب ذلك، وسنلخص ذلك من صحيفة (المجاهد) ع 11 فاتح نوفمبر 1957.

إن جيش التحرير الوطني جيش حقيقي عصري منظم متكامل الأجزاء قوي الجهاز -كما قدمنا- يشهد بهذا كل من عرفه وفي المقدمة الأجانب الذين قضوا معه أياما وأسابيع، وخرجوا من جولاتهم بدراسات ضافية مدققة عن حياة هذا الجيش، ويعزز هذه الشهادات الأفلام التي صورها مراسلو كبار الشركات السينيمائية والتلفزة!

وينقسم القطر الجزائري إلى ست ولايات، وتنقسم كل ولاية إلى مناطق، وكل منطقة إلى نواح، وكل ناحية إلى أقسام، وفي هذه الأقسام والنواحي والمناطق والولايات يربض جيش التحرير: يترصد القوات الاستعمارية!

مراكز القيادة

يتألف مركز القيادة من قائد (سياسي عسكري) يمثل السلطة المركزية لجبهة التحرير الوطني ومن نواب له ومساعدين يعينون من بين الضباط الكبار والصغار وهم ثلاثة يشتغلون بالفروع الآتية: الفرع العسكري السياسي، فرع الاستعلامات، فرع الاتصالات، ويوجد مركز القيادة لكل ولاية وكل منطقة وكل ناحية وكل قسم.

النظام العسكري

يتركب جيش التحرير من فيالق، والفيلق من ثلاث كتائب، والكتيبة من ثلاث فرق، والفرقة من ثلاثة أفواج، والفوج من أحد عشر رجلا، منهم عريف وجنديان أولان.

ولجيش التحرير رتب هي: الجندي الأول، العريف الأول، المساعد، الملازم، الملازم الثاني، الضابط الأول، الضابط الثاني، الصاغ الأول، الصاغ الثاني.

وللمفاوضين السياسيين نفس الرتب التي للضباط في المرافق التي ينتمون إليها!

التركيب العام

مجاهدون، مسبلون، فدائيون

إن القوات المسلحة تنقسم إلى قسمين: قسم له زيه الخاص العسكري الرسمي وعتاده ومراكزه، والقسم الثاني لا زي له، وهو يشمل المسبلين والفدائيين.

1) المسبلون:

إن المسبل هو الذي يواجه أخطار الأماكن المظنون أنها ذات خطورة، وهو الذي يمون الجيش، ويقوم بحراسته في راحته، وهو الذي يحمل الذخائر والجرحى، وهو الذي يقوم بتخريب السكك وطرق المواصلات من أعمدة هاتفية وجسور وغيرها، وهو الذي يكتشف جميع المعلومات عن العدو واتجاهاته، وهو الذي يمكّن وحدات الجيش من التنقل داخل

التراب الجزائري بالليل أو بالنهار، وهو يُشارك في المعارك أيضا، وبعبارة مختصرة: إن المسبلين هم بمثابة الأعين والآذان والأعضاء في الجسم الحي.

2) الفدائيون:

هم طاقة الكفاح المسلح في المدن والعواصم والقرى، هم الذين يحملون قلوبهم على أكفهم يواجهون الموت فلا يرهبونه، وينجزون أعمالهم ناجحة، ولو أدى ذلك إلى متابعة العناصر الاستعمارية في عقر ديارهم.

من هذا الثالوث القوي الجبار تتكون قوة الجزائر المسلحة التي أرضخت فرنسا على الاعتراف بأن الجزائر للجزائريين، وافتكّت منها حرية الجزائر التي كانت أمدا طويلا أملَ كل جزائري وجزائرية، وأنشودته المفضلة!

من معارك جيش التحرير الكبرى

إن المعارك التي خاضها جيش التحرير الوطني خلال ثورة نوفمبر الخالدة كثيرة لا تُحصى، وإذا كانت هذه الثورة قد استمرت بحساب الأيام (2693) يوما وفي كل يوم معارك وكمائن وهجومات واشتباكات في مختلف أنحاء القطر الجزائري، فماذا عسى أن يستحضره الفكر، ويسجله القلم، من تلك المواجهات التاريخية بين كتائب الإيمان وجيوش الاستعمار الجرّارة، تلك المواجهات بين قوة صممت على تطهير أرض الجزائر من الغزاة الأجانب، وتغيير الحياة فيها تغييرا أساسيا وعميقا

في اتجاه الآمال الإنسانية الواسعة، وقوة من جحافل الشر والظلام، تعمل جاهدةً من أجل أن تظل هذه البلاد مرتعاً للمحتل المقيت، يقضي فيه كل يوم على أعواد خُضر تنبت في هذه الأرض الطيبة!

إن هذه المعارك لكثرتها لا يُمكن استقصاؤها، كما أن غرضنا في هذا العمل المحدود ليس الاستقصاء والتتبع، وإنما غرضنا أن نقدم نماذج وعينات منها، يتبيّن القارئ الكريم في ضوئها بطولة جيش التحرير، ومقدرته الحربية، وإيمانه القوي بشرعية حربه، وأن روحا قوية جديدة حولّت أبناء الجزائر إلى عمالقة وأبطال!

وسنقتصر إذن على عرض بعض المعارك الكبرى التي دارت رحاها في مختلف السنوات الحربية وإليكها فيما يلي:

معركة جبل العمور

في صبيحة يوم 2 أكتوبر سنة 1956 بدأت معركة جبل العمور، التي شارك فيها (500) جندي من جيش التحرير الوطني، وكانت قوات الاحتلال تعد بالآلاف، وتواصلت المعركة في شدة وضراوة أسبوعا كاملا، أظهر فيها المجاهدون بطولة خارقة، واستبسالا نادرا، رغم العتاد الحربي الضخم الذي كان يواجهه برا وجوا، وقد أسفرت المعركة عن قتل عدد كبير من الجنود الفرنسيين من بينهم 92 ضابطا دفنوا في تيارت.

وقد كان لهذا النصر الرائع أثره الإيجابي العميق في صفوف الثورة، وأثره السلبي في فرنسا وجيوشها، ومنذ هذه المعركة أصبحت القوات الفرنسية تنظر إلى الثورة نظرة رهبة وخوف وتقرأ لها ألف حساب!

معركة (بوزقزة)

وقد بدأت هذه المعركة يوم 3 أوت سنة 1957 بقيادة جنرالات كثيرين، من بينهم الجنرال (أولار) والجنرال (ماسو)، وجرت هذه المعركة في المنطقة الجبلية الواقعة بين (باليسترو) – الأخضرية حاليا– وسور الغزلان والمدية والبليدة ، وبالرغم من البون الشاسع بين القوتين في العدد والعتاد، فقد كان أبطال جيش التحرير في مستوى بطولي رائع يفتك الإعجاب والتقدير، وارتفعت خسائر العدو في هذه المعركة إلى (420) قتيلا و(500) جريح وأسقطت طائرة وحجزت كمية من الأسلحة والذخائر الحربية (عن المقاومة ع9 أغسطس 1957).

معركة عنابة

وقعت هذه المعركة يوم 24 جوان سنة 1959 وتمتاز بقلة المجاهدين فيها، وكانت فرقة (كومندوس) من جيش التحرير الوطني بقيادة الملازم حيدوش قادمة من الحدود التونسية وكانت على بعد ثلاثين كيلومترا من مدينة عنابة عندما اكتشفها الفرنسيون والساعة إذ ذاك تشير إلى السابعة والربع من مساء يوم الثلاثاء 23 جوان سنة 1959 فطوقوها بحصار محكم واستقدموا فرق القوم والحركى، وفرق اللفيف الأجنبي وفرق القلانس الحمراء والخضراء، والفرقة الرابعة عشرة للمصفحات، ووحدات أخرى مختلفة من البوليس (س. ر. س) واستقدمت هذه الفِرَق من قسنطينة، وسكيكدة، وقالمة، وسطيف، وسوق السبت، ووادي العنف.. بل أن بعض هذه الفرق استقدمت من جنوب وهران بواسطة الطائرات.

وكل هذا يدل بوضوح على الحساب الذي تقرؤه القوات الفرنسية لجيش التحرير الوطني، سواء أكان كثيرا أم قليلا، وقد وقف أبطال جيش التحرير في هذه المعركة موقفا تعجب التاريخ منه، وأصغى في ذهول إلى انتصاره الرائع المثير المدهش.

لقد استشهد جميع أفراد الكومندوس، ولم ينج إلا أفراد قليلون بأعجوبة لأن في العمر بقية، وكان من هؤلاء المجاهد، إغيل علي بوجمعة الذي ما يزال على قيد الحياة.

أما خسائر العدو فلم يمكن حصرها بالضبط ولكن المدنيين الجزائريين الذين أجبروا على نقل الجثث من المعركة أكدوا أن الخسائر البشرية تبلغ (840) بين قتيل وجريح، بالإضافة إلى الطائرات الثلاث التي أسقطتها مدفعيتنا، ودبابة دمرت بالبازوكا في بداية الهجوم[1].

وأصدر العقيد ناصر (محمدي السعيد) قائد أركان حرب التحرير الوطني للشرق الجزائري قرارا يمنح الملازم حيدوش قائد الكومندوس، الذي نظم هذه المعركة، وسام هلال الجهاد، والملازم حيدوش من أبطال جيش التحرير، فقد نفذ كل المهام التي أُسندت إليه في دقة، وبطولة واستبسال، وما انفكّ يواصل جهاده في اعتزاز بشرف الجهاد من أجل تحرير الجزائر، وقد رباه خاله (العقيد) إعزورن تربيةً وطنية نضالية، فكان مثالا للإخلاص، والشجاعة، وحبّ الوطن، والتلهُّف إلى الحرية، وأذكر أنني التقيته في مستشفى (عزيزة عثمان) بتونس مع الدكتور المرحوم تيجاني هدام، وأخبرني بأنه داخل إلى الجزائر في صبيحة

---

(1) أنظر كتابنا – الجزائر بلد التحدي والصمود للتوسع.

اليوم التالي، ولما أبديت له أملي في اللقاء القريب بالجزائر وقد استقلت، قال أن الجزائر ستستقل لا محالة، أما اللقاء ففي الجنة إن شاء الله، وفعلا كان ذلك آخر لقاء بيني وبينه.

هجوم (عين الزانة)

وقع هذا الهجوم الرهيب الذي ترك أعين الجنود الفرنسيين تهجر النوم ليالي طويلة يوم 14 من شهر جويلية سنة 1959.

ويكتسي كل من الهجوم والمركز أهمية كبيرة، فالمركز يتكون من أربع مباني أساسية: مبنى المنارة (الميرادور) مبنى الكومندوس حيث يقيم معظم الجنود الفرنسيين بالمركز، وأغلبهم من اللفيف الأجنبي، مبنى القيادة الفرنسية وهو مكتب فرنسي قديم، مبنى ضباط الشؤون الأهلية (لساس) وهو مزرعة فرنسية يملكها المعمر (غراسيس)، أما المركز فيقع على ارتفاع ألف و400 متر، وبهذا تتجلى أهمية هذا المركز واستراتيجيته في الناحية الشرقية، إذ يشرف على مسافة شاسعة تمتد من سهول عنابة إلى الحدود التونسية الجزائرية.

أما أهمية الهجوم على هذا المركز فتبرز في أن قيادة جيش التحرير الوطني نظمت في نفس الوقت هجومات منسقة على جميع المراكز الفرنسية القريبة من مركز (عين الزانة).

ولا يتسع المقام لوصف هذا الهجوم التاريخي الذي انتصر فيه المجاهدون انتصارا رائعا، حسبنا أنهم أنزلوا العلم الفرنسي، ونصبوا مكانه العلم الجزائري، وهم يرددون في صيحة مدوية تعالت إلى السماء في اعتزاز وكبرياء وعظمة: (الله أكبر) (أنظر تفصيلا عن هذا الهجوم في كتابنا: الجزائر بلاد التحدي والصمود).

معركة (جيمال)

هذه أكبر معركة في تاريخ ثورة الجزائر التحريرية، وعلى هذا أجمعت الصحف الفرنسية، وقد علقت فرنسا أملها على هذه المعركة في القضاء على الثورة نهائيا، ومن أجل ذلك وفّرت لها إمكانات هائلة ضخمة، وجندت لها كل ما تملك من وسائل الدعاية، وشاركت فيها القوات البرية والبحرية والجوية، وكان عدد السيارات العسكرية التي اعترفت القيادة الفرنسية باستعمالها في هذه المعركة هو أربعة آلاف.

وبالرغم من كل ذلك فشلت فرنسا في هذه العملية كعادتها، وخسرت خسائر فادحة في الأرواح والعتاد الحربي، وازدادت فرنسا إيمانا بأن جيش التحرير قوة لا تغلَب!

من معارك سد الموت

في يوم الخميس 24 مارس سنة 1960 تمكّن الأبطال المجاهدون في مواقعهم المحصنة، ولم تكد ثلاثة فيالق من الجيش الفرنسي تتوسط الخط الممتد عبره المجاهدون حسب الوضع العسكري المحكم الذي خططه القادة الثوريون، حتى فتح هؤلاء نيران أسلحتهم من كل نوع بتركيز هائل مدهش، جعل الجنود الفرنسيين يفرون من الميدان تاركين عددا كبيرا من القتلى، وأشجعهم من فرّ بسلاحه!

أما الكثير منهم فقد قتلوا أو جرحوا!

معركة جبل مزِّي

إنها في الواقع معارك عميقة رهيبة تواصلت ثلاثة أيام: 6 و7 و8 مايو سنة 1960 وقد ألحق جيش التحرير الوطني بالقوات الفرنسية **أفدح**

الخسائر في الأرواح والعتاد الحربي، وتقدر خسائرها -على الأقل- بثلاثمائة بين قتلى وجرحى، كما حجز كميات هائلة من الأسلحة والذخيرة الحربية، ولفداحة الخطب على القوات الفرنسية في هذه المعركة، استعملت قنابل (النابالم) بشدة وبلا هوادة، واحترق عدد من جنود جيش التحرير، ولوحظ أن جنودا فرنسيين قد آجهزوا على جرحى من جيش التحرير الذين أصيبوا بحروق النبالم وقتلوهم.

عوامل انتصار جيش التحرير الوطني

الذي يلاحظ -وقد انتهت الثورة بانتصار جيش التحرير الوطني، ولم يعد هناك داع إلى المبالغة أو الدعاية- هو أن جيش التحرير الوطني هو المنتصر في كل معركة خاضها ضد القوات الفرنسية، وفي هذه المعارك الكبيرة بالخصوص يتوقع الملاحظ أن يكون النصر فيها حليف القوات الفرنسية، لجيوشها الكبيرة، وعتادها الضخم المتنوع، ولكنه مع ذلك كان النصر حليف جيش التحرير الوطني، فما سر ذلك يا ترى؟

إن الفارق بين القوتين: الوطنية والاستعمارية، فارق جلي واضح يدرك بالبداهة، والعلم يحكم في أول نظرته بالتفوق والانتصار للقوات الاستعمارية، فالجنود الفرنسيون متخرجون من معاهد وكليات حربية، وعددهم يفوق جيش التحرير الوطني عشرات المرات، وعتاد الجنود الفرنسيين ضخم هائل ومتنوع ومتطور، يغطي برَّ الجزائر وجوها وبحرها، وتنقلاتهم المختلفة، في الشؤون المتنوعة مريحة لا تعب فيها ولا إرهاق، وليس كذلك جيش التحرير الوطني، فأسلحته محدودة،

وتنقلاته مرهقة، وأكثره فلاحون ومزارعون وبنّاؤون، ومع كل هذا فجيش التحرير الوطني هو سيد الموقف دائما، وحامل لواء النصر، ومصير الجيش الفرنسي الجرار، المنايا من كل جانب، والهزائم في كل مكان، حتى قال قائلهم:

«لا يمكن أن يكون هؤلاء الشياطين هم الآدميين الذين عرفناهم هنا منذ قرن وثلث قرن ربيناهم على الاستكانة، ودربناهم على الطاعة، وقتلنا في نفوسهم الإسلام، وأمتنا على ألسنتهم العربية، وجهدنا بالظهير البربري أن نجنسهم بالبربرية، وأن نبشرهم بالمسيحية، وأن نفصل بينهم وبين العرب في الأقطار الأخرى) (في ضوء الرسالة) للأستاذ الزيات ص 227.

مرة أخرى نتساءل: ما هي عوامل انتصار جيش التحرير الوطني، وما هو سر تلك المواجهة الصامدة التي يواجه بها هذا الجيش تلك القوات الحربية الهائلة؟

عوامل ذلك كثيرة متنوعة لا يتسع لاستقصائها والتعمق فيها هذا المجال، ولكننا سنستعرض بعضها فيما يلي وفيها الكفاية.

1– إن الشعب الجزائري يؤمن من أعماقه أن الاستقلال قضية كرامة، وحق مقدس، لا يمكن التهاون فيه، وفي سبيل هذه الكرامة وهذا الحق ظل الشعب الجزائري يقاوم الاحتلال طوال قرن وثلث قرن، ويقدم تضحيات جسيمة متنوعة، وجيش التحرير الوطني عندما يخوض المعارك ضد القوات الفرنسية يدفعه هذا الشعور إلى القتال والصمود والاستبسال، ويتذكر جيدا أنه ينازل من احتلوا أرضه، وسلبوا حريته!

2– الجندي في جيش التحرير الوطني يشعر دائما براحة البال، وطمأنينة الضمير، لأنه يدافع عن أرضه وأرض أجداده، ومن هنا فإنه يقدم على المعارك بصدر رحب، ويقاوم بشجاعة وبطولة، بينما الجندي الفرنسي يعلم في قرارة نفسه أن الأرض التي يحارب عنها وقد يموت من أجلها ليست أرضه ولا أرض آبائه وأجداده، وأن حربه غير شرعية وغير عادلة، وإنما فرضت عليه فرضا، وجُرَّ إليها جرا، ومن هنا فإنه يحارب بضمير قلق، ونفس غير مرتاحة يدل على هذا، القلق والاضطراب، الذي يعيش فيه الجنود الفرنسيون بعد تسريحهم من حرب الجزائر، مما جعل (أندري ستيل) وهو كاتب شيوعي ومحرر في جريدة (لومانيتي) يكتب قصة بعنوان (سنحب بعضنا غدا) والقصة تثير المشكلة التالية: هل يستطيع الشاب الفرنسي العادي، الذي ليس له تكوين سياسي، وليست له أية فكرة عن قضايا الاستعمار ومشاكل الاستعمار، والذي يشارك في حرب الجزائر، أن يقوم بمهمته، وهي محاربة الوطني الجزائري، وأن يرجع بعد ذلك إلى حياته المدنية في فرنسا، ويبتدئ فيها من حيث تركها؟

والكاتب يجيب عن ذلك بالنفي (انظر المجاهد ع 16 / 15 جانفي 1958).

والواقع المعيش يدل على أن الثورة الجزائرية قد أثرت على مجموع الجنود الفرنسيين، وأنها قد زعزعت نفسياتهم، وقلبت سلوكهم، وحطمت معتقداتهم السياسية، وغيّرت نظرتهم إلى الحياة. هذا بقطع النظر عن الجنود الفرنسيين الذين باشروا أعمال التعذيب ولمسوا عن قرب صمود الوطني الجزائري!

3- إن الجندي الجزائري قد تعود في بلده على شظف العيش وقساوة الطبيعة، والحركة الدائبة في طرق ملتوية، صعودا أو هبوطا في الجبال وفي الأودية وفي أحراش الغابة، وكل هذا هيأه لحياة الكفاح الشاقة، ومواجهة الطوارئ، وليس كذلك الجندي الفرنسي الذي أَلِف العيش الرغد، والحياة الرخوة، والتنقل الميسر، والأرض المنبسطة، التي لا تكلف تعبا ولا رهقا.

4- الجندي الجزائري ابن البلد يعرف مساربه ومهاربه، ويعرف كهوفه ومغاراته، ويعرف كيف يذوب في لمحة البرق، أو كيف يختفي كالزئبق، بعد أداء مهمته، أما الجندي الفرنسي فهو غريب عن هذا البلد، لا يعرف الاتجاه الصحيح إذا انفرد عن أصحابه، ولا يعرف من أين يأتيه الخطر، ولا كيف يتقيه!

5- الجندي في جيش التحرير الوطني، مجاهد، ومن ثمّ فهو يعتقد اعتقادا جازما بأن الله معه، سينصره، ومن هنا فإنه يخوض المعركة بهذا الشعور الذي يعتمد على الله ثم على السلاح، أما الجندي الفرنسي فإنه لا يتمتع بهذا الشعور، ولا يعتمد إلاّ على قوته وسلاحه، وشتان بين الجنديين، وشتان بين المصيرين!

6- ذلك التأييد المادي والمعنوي، الذي ما انفكت الثورة التحريرية، تتلقاه من مختلف الأقطار العربية والإسلامية والصديقة، ذلك التأييد العظيم، الذي يُشعر الجندي الجزائري بأنه لم يكن وحده في الميدان، والذي يرفع معنوياته، ويجعله يستبسل في ساحات الوغى، ليكون عند ظن هؤلاء الأنصار، ومحقق ثقتهم وأمنيتهم في تحرير الجزائر!

7– الجندي الجزائري يشعر من أعماقه –وهو يخوض معارك التحرير– أنه يواصل مسيرة الجهاد، التي بدأها أجداده، وأنه بهذا يحقق آمالهم، ويحوز شرف الانتماء إليهم، وهذا طبعا يشجّعه على الثبات والصمود، ويفجر في أعماقه طاقات العزم والتحدي، ويدفعه إلى الاستبسال!

8– الجندي الجزائري يتمثل أمام عينيه وهو في طريقه إلى المعركة، أو هو يخوضها ما فعله المستعمر الفرنسي ببلاده، وما قام به من فظائع الجرائم، من تقتيل، وتعذيب، وهدم وتدمير، وهتك للحرمات والأعراض، فيتقّد حماسا، ويتأجج قلبه غيظا وحقدا!

9– الجندي في جيش التحرير الوطني يشعر شعوراً قويا عميقا بأن شعبه وراءه، وبأن هذا الشعب قد صمّم على الاستقلال، وعزم على مواصلة الجهاد، حتى النهاية السارة التي تُرضي الأحياء والأموات، وهذا التصميم الشعبي على افتكاك الحرية، يغذي الشعلة الوطنية في أعماق الجندي المجاهد ويدفعه إلى الأمام، إلى النصر (أو الشهادة)، وهذا ما لا نجده في الجندي الفرنسي!

10– المجاهد الجزائري يتذكر دائما يوم اندلاع الثورة وكيف انطلقت ببنادق صيد معدودة، وكيف أخذت صفوف جيش التحرير تتقوى وتتضاعف وتتحسن وسائلها وأساليبها الحربية، بفضل ما تغتنمه من أيدي العدو وما يأتيها من الخارج، وبفضل شرعية هذه الثورة وانتصاراتها المختلفة، يتذكر كل ذلك فيرى الطريق إلى الغد الوضيء المشرق يتضح أكثر، وأن هذه الثورة في تصاعد مستمر وأن يومها خير

من أمسها، ومن هنا يقف المواقف البطولية، ولا يرهب الأقوياء، ولا يتردد في مقاومة الطغاة.

11- المجاهد الجزائري يخوض المعركة وهو مطمئن إلى أحد أمرين: إما النصر وإما الشهادة، فهو في كلا الحالين رابح.

ومن هنا نراه يقبل ولا يدبر، يثبت ولا يتزعزع، ويقوى ولا يضعف، وهذا من عناصر الانتصار التي يفتقدها الجندي الفرنسي!

12- قدرة جيش التحرير الوطني العجيبة على الاختفاء وسرعة التنقل مما يجعله يلحق الضربات الماحقة بالجيش الفرنسي، ثم يذوب دون أن يقدر العدو على ملاحقته وضربه، ومما يكشف عن ذلك هذه الرسالة التي وجهها جندي فرنسي عنصري متطرف إلى صحيفة (ريفاوول) الأسبوعية المتطرفة:

«بمجرد وصولنا إلى مكان العملية أخبرتنا الطائرة الكشافة أن هناك فرقة من الثوار تقدر بـ (170) شخصا، فاتخذت القيادة جميع الاحتياطات اللازمة لمحاصرة الفرقة، واستقدمت الإمدادات وأنزلتها في ميدان العملية بواسطة الطائرات العمودية، لكن الفرقة الجزائرية ذابت في طرفة عين، إن الإنسان لا يستطيع أن يعرف طبيعة الحرب التي نواجهها إلا إذا شاهد ميادين العمليات الحربية بالجزائر».

وأضاف يقول:

«والغريب أننا كلما قتلنا المدنيين كلما ازداد عدد الثوار! ومع هذا تؤكد مصالح الدعاية الفرنسية أن الجزائريين يؤيدون الثورة تحت الضغط، لكن الذين يواجهون الحقائق ويلمسونها مثلنا لا يؤمنون بهذه النظرية

ويتأكدون أن السكان يؤيدون الثورة بمحض اختيارهم» (عن المجاهد ع 47، 1959/07/27).

13– المجاهد الجزائري يحتقر الموت، ويشعر دوما أن هوانه تحت وطأة الاستعمار الفرنسي، وما كان يعانيه من الذل والعبودية، والتعسف والاضطهاد، أشد عليه من الموت، ومن هنا يستبسل في المعركة وينتصر فيها، وليس كذلك الجندي الفرنسي الذي ترتعد فرائصه من الموت، ويخاف أن ينتهي نعيمه في هذه الحياة!

14– شعور جيش التحرير الوطني بأن ما يقوم به من عمليات وما يقدم من تضحيات، إنما هو في سبيل هدف نبيل، وغاية شريفة، هي استعادة سيادة الجزائر، وهذا طبعا يشجعه على المضي قُدُماً في طريقه، ويجعله يخوض المعارك بقوة وينتصر فيها بقوة، وليس كذلك الجيش الفرنسي الذي يعلم أنه إنما يحارب من أجل مصالح استعمارية خاسرة وأن الذين يموتون منه، إنما يموتون من أجل أقلية من الكولون ومن الاستعماريين، وهذا طبعا لا يشجع ولا يدعو إلى الانتصار!

15 – أما صحيفة (المجاهد) فتقول عن انتصارات جيش التحرير الوطني الرائعة:

«قد يتعجب الملاحظ البعيد كيف يتسنى لجيش التحرير أن يحرز على هذه الانتصارات العسكرية الخارقة، وكيف تمكن من الاحتفاظ بطاقته النضالية، رغم الوسائل التي جندها العدو للقضاء عليه، وكيف استمر الشعب الجزائري في تزويد جيشه بالجنود والمتطوعين رغم المليون من الضحايا ورغم المليونين المهددين بالموت في مراكز التجمع!

لكن تفسير هذا الانتصار بسيط في الواقع، وهو يرجع قبل كل شيء إلى هذا الالتحام الوثيق بين الجيش والشعب، هذا الالتحام الذي تؤكده وتصهره صور الكفاح اليومي، والضباط الفرنسيون المتخصصون في الشؤون النفسية أعجز من أن يدركوا هذه الحقيقة، لأنهم لا يستطيعون أن يشعروا بها!

إن صورة العلَم الجزائري بنجمته وهلاله، وبأبيضه وأخضره وأحمره عندما يرتفع مرفوعا فوق منزل في قرية يتمركز فيها جيش التحرير ويمر بها، إن تلك الصورة تبقى مرسومة في أذهان السكان، ومنقوشة في قلوبهم إلى الأبد، وعندما تنظم فرق جيش التحرير بجبال القبائل، أو الأوراس، أو في أحراش الشمال، أو في غابات الونشريس، عندما تنظم تلك الفرق استعراضا عسكريا أمام السكان، وعندما يشاهد الجزائريون المجاهدين وهم في لباس الكفاح، إن تلك الصورة تهز فيهم مشاعر النخوة والاعتزاز والمجد والوطنية ما تعجز عن محوه عشرات الآلاف من جنود المظلات مهما تفننوا في أساليب التعذيب أو الترعيب) (ع 52 – تاريخ 1959/10/05).

هذه هي عوامل انتصار جيش التحرير الوطني على القوات الفرنسية الرهيبة التي وراءها حلف الأطلسي وزهاء خمسمائة مليون من الناس، يشدون أزرها بالتعصب والرأي والهوى، وهي عوامل قوية عميقة، لم يكن العسكريون الفرنسيون يدركونها، وليس في طاقتهم أن يدركوها، ولو أدركوها لكفّوا عن محاولاتهم العابثة في تحطيم الثورة حكم التاريخ لها بالانتصار، وهيأتها هذه العوامل للغلبة، وجعل أرض الجزائر مقبرة للاستعمار!

الفصل السابع
الثورة في زحف وإقدام، وفرنسا في وعود وأوهام

تمهيد:

إن الثورة الجزائرية العظمى، لم تنتصر على مطامع الاستعماريين العسكرية فقط، وإنما انتصرت أيضا على الحرب الدعائية التشويهية الهائلة، التي شنها المستعمرون على حركة المقاومة الجزائرية، بصفة منسقة منظمة، سواء في داخل القطر الجزائري أو في فرنسا أو في أي بلد آخر من بلدان العالم!

المقاومة الجزائرية

العدد الأول، نوفمبر 1956

خطأ فرنسا وخيبة ظنها

أخطأ الفرنسيون في تقديرهم، وخاب ظنهم في أن الشعب الجزائري قد ملّ من المقاومة، وأن الخير كل الخير في الرضوخ لفرنسا، وإسلام القياد لسلطانها، والرضى بالوضع المفروض عليه، وفاتهم أن يعلموا أن الشعب الجزائري لم يستكن ولم يرضخ للاستعمار، ولم يمل من الحرب والمقاومة وإنما كان يعد نفسه لليوم الفاصل، ويخطط لثورة تكون الفصل الختامي لخرافة (الجزائر فرنسية).

ولذا فإنهم عندما اندلعت الثورة التحريرية أول نوفمبر سنة 1954 جنّ جنونهم، وفقدوا السيطرة على عقولهم، واستودّت الدنيا أمام أعينهم، وتداخلت الأمور في نظرهم وتقديرهم، ولم يستطيعوا أبدا أن يهضموا اندلاع الثورة من هذا الشعب الذي أرهقته أوضاع، وشتتت قوته أحزاب متحاربة متناحرة، وظل طول عهد الاحتلال يقاوم بلا جدوى، ويموت بلا غاية، وأطلقوا أبواق دعاياتهم، بأنها تمرد قام به الخارجون عن القانون، سرعان ما ينتهي تمردهم تحت القمع والتنكيل، أو أنها ثورة طائفة من الجياع سرعان ما تختفي حينما تشبع بطونهم، أو بأنها حوادث متفرقة قام بها لصوص لا يلبثون أن يعلنوا ندمهم أمام عصي الشرطة، وتحت حرارة التأديب والتعذيب.

ولكن التمرد لم ينته، وثورة (الجائعين) لم تتوقف، وحوادث اللصوص لم تختف، بل اتضح بعد أيام أنها ثورة شعب فضل الموت على حياة الذل والعبودية، وثورة أبطال بواسل استهتروا بالمضانك والمهالك

واعتزموا أن يواصلوها رهيبة ماحقة حتى يفتكوا حرية الجزائر، وثورة عملاقة تكتسح كل ما يواجهها من عقبات ومعطلات ومحطمات وتطيح بكل الأشجار الواهية، وتهيء المناخ للربيع الباسم!

وكلما اتسعت الثورة، وتأجج لهيبها اشتد حقد المستعمرين على الثوار، وجندوا وأعدوا القوة وخططوا ورسموا، ونظروا وقدروا، وتضاعف تكالبهم على الانتقام من الشعب الجزائري، والمصالح النفسية إزاء كل ذلك لا تنفك تردد في أبواقها أن الثورة في طريق النهاية وقد دام ربع ساعة لاكوست سنوات حتى عرف به وأصبح مثار السخرية والتندر!

السياسة الفرنسية تجاه الجزائر وثورتها سنة 1956:

ولا بأس أن نقدم هنا عن (المجاهد) صورة عن السياسة الفرنسية تجاه الجزائر وثورتها التحريرية سنة 1956 ليعلم القارئ الكريم أنها قائمة على الوهم، وليقف أيضا على حجم القوات الفرنسية في النصف الأول من هذه السنة. عندما عيّن لاكوست وزيرا مقيما بالجزائر في فيفري 1956 شرع يدرس الخطط العسكرية والسياسية التي سيقضي بها على الثورة التحريرية.

ولم يفهم لاكوست طبيعة هذه الثورة والأسس التي تقوم عليها، فظن أنه يستطيع بحشد قوات عسكرية ضخمة أن يقضي على الثورة، لأنه توهم أن المسألة مسألة قوة، واستجابت الحكومة الفرنسية للاكوست الذي طالب بمائة ألف جندي جديد في 5 أفريل 1956، وشرعت الإمدادات الفرنسية تتلاحق إلى الجزائر، فلا يمر يوم دون أن تشاهد الموانئ باخرة

جديدة ملأى بالجنود والعتاد تفرغ شحناتها فوق التراب الجزائري لتعزيز قوات الشر والطغيان، وجندت فرنسا طيرانها، المتعدد المتنوع، وسرعان ما اكتشف الفرنسيون أنهم في حاجة إلى طائرات الهيليكوبتر فراحوا يعقدون الصفقات مع حلفائهم لشراء هذا النوع من الطائرات التي علقوا عليها أملا كبيرا في إيقاف الثورة، فنجد مثلا أن شركة بلجيكية تخلت في أوائل أفريل 1956 عن كل ما تملكه من طائرات الهليكوبتر وتنازلت فيها إلى فرنسا مضحية بمصالحها التجارية لأن الفرنسيين أقنعوها أن ذلك سيعجل بالقضاء على الثورة الجزائرية. ودور سلاح الطيران في الجزائر ندركه بالرجوع إلى الأرقام التي أعطاها الجنرال (باي) القائد الأعلى للطيران الفرنسي في ندوة صحفية عقدها في 12 أبريل 1956 جاء فيها:

يوجد الآن بالجزائر 55000 من الجنود التابعين لسلاح الطيران و750 طائرة، وسيرتفع عدد هؤلاء الجنود إلى 64000 في أكتوبر المقبل وفي نفس الوقت نحن الآن بصدد إنشاء مطارات جديدة فعوض الأحد عشر مطارا التي كانت موجودة قبل، تحت تصرف سلاح الطيران صرنا نملك ما يقرب من مائة من طرق الطائرات من بينها عشرون تستطيع أن تنزل بها الطائرات النفاثة، وستون يمكن أن تنزل بها الطائرات ذات محركين من نوع (نور 2501) هذا وإن 750 طائرة التي ذكرناها لا تدخل ضمنها طائرات النوادي الرياضية للطيران التي تستطيع قيادتنا أن تحجزها في كل وقت، كما أن عدد طائرات الهليكوبتر قد ارتفع من 8 إلى 16 وقد أنشأنا مدرسة في (شامبييري) لتخرج الطيارين بسرعة.

وسنواصل جهدنا في هذا الميدان إلى أن نتحصل على (1400) طائرة في الأشهر القادمة وذلك بفضل الإعانة الأمريكية التي ستعطي لنا (300) طائرة من نوع ط 6 وستين طائرة من حاملات القنابل نوع ب 26 وطائرتان من نوع آخر، ونستطيع أن نكوّن فكرة عن ازدياد عدد الطائرات إذا عرفنا أن لاكوست أعلن في 24 ماي 1956 عن وصول 17 من طائرات الهليكوبتر الثقيلة ومائة من الطائرات الخفيفة إلى الجزائر.

تزايد القوات الفرنسية باتساع لهيب المعركة:

ولكي تكون للقارئ الكريم صورة عن نسبة تزايد القوات الفرنسية في النصف الأول فقط من سنة 1956 عليه أن يعرف أن عددها ارتفع من مائة وتسعين ألفا في مارس 1956 إلى (373000) في أول جوان من نفس السنة، هذا عدا وحدات الدفاع الذاتي التي تكوّنت في كل جهة، والتي انخرط فيها أغلب المدنيين الفرنسيين، (انظر المجاهد ع 15 فاتح جانفي 1958).

أما القوات الفرنسية في سنة 1961 فقد تضخمت وصارت كما يلي:

الجيش الفرنسي:

على أساس أرقام الميزانية – تقرير (فالنتان لوفان) فإن القوات الفرنسية في الجزائر تعد على الشكل التالي:

الجيش البري (80000) من بينهم (50687) جزائري.

الجيش الجوي (80000)

الجيش البحري (40000)

جنود الخدمات وأركان الحرب: (49000)

المجموع الأول: (519000)

ويضاف إلى هذه القوات وحدات البوليس والجندرمة المختلفة وهي
كما يلي:

جندرمة وحرس متنقل: (30000)

بوليس مسلح: (30000)

س. ر. س (20000)

المجموع الثاني: (80000)

ثم يأتي بعد هذا مختلف القوات الإضافية المكونة من جنود
جزائريين وهي:

الحركة: (60000)

وحدات الأمن المتجولة: (8167).

المخازنية: (19442).

أفواج الدفاع الذاتي (60000).

حراس مسلحون (10754).

المجموع الثالث: (158813).

وهكذا فإن القوات العاملة تحت أوامر الجيش الفرنسي في الجزائر
يبلغ مجموعها:

(519000)

(80000)

(158813)

المجموع الكلي: (757813).

إلى جانب هذا العدد يوجد: (125000) رجلا تابعون للوحدات الإقليمية ـ الرقم الصادر في أول جانفي 1960، أي أن مجموع القوات الفرنسية في الجزائر يبلغ: (882813) رجلا!

وسواء أضفنا الوحدات الإقليمية المكونة من أوروبيين مسلحين يدعون للعمل في الجيش بين وقت وآخر، أو تركناها جانبا فإن الجيش الفرنسي في الجزائر أيام حرب التحرير يعتبر أكبر جيش استعماري عرفه التاريخ! (انظر (المجاهد) عدد 89، 13 فيفري سنة 1961).

والسؤال المطروح: كيف لم يستطع هذا الجيش الجرار المجهز بأحدث الأسلحة، والذي يسيطر على بحر الجزائر وجوها بأساطيل حربية عصرية أن يقضي على جيش التحرير الوطني الذي تدعي فرنسا أنه مجموعة من الفلاقة يرهبون السكان؟

حقائق ناصعة تكشف الواقع وتدحض الباطل

على أن الذي يهمنا الآن، ونستهدفه من وراء هذا العرض، ونريده في هذا التمهيد هو هذه الحقائق الناصعة السافرة:

إن الفرنسيين لم يكونوا يتصورون اندلاع الثورة في الظروف التي اندلعت فيها.

وأنهم لم يكونوا يتخيلون أن هذه الثورة ستتسع وتقوى وتحظى بالتأييد الذي حظيت به في أمد وجيز، وأن يكون لها فكرها الرائد، وفلسفتها الحكيمة، وأسلوبها المتميز!

وأنهم لم يكونوا يهضمون أن جيشا من الفلاحين والبنّائين، والتجار، والمعلمين، يواجهون في الخطوط الجهنمية، جيوشا جرارة

متكونة من جنود متخرجين من مدارس وكليات حربية ومدربين على الأسلحة والحرب!

وأنهم لم يستطيعوا أن يدركوا كيف يواجه سلاح تقليدي بسيط الأسلحة العصرية المتطورة.

وأنهم لم يفتأوا يمدّون قواتهم العسكرية بإمدادات متنوعة ضخمة في مجالات مختلفة، فلم يجدهم ذلك شيئا.

إنهم يضعون مخططات رهيبة، ويتخذون وسائل هائلة للقضاء على الثورة، كالتطويق المعروف باسم (الكدرياج)، و(فتح الأرواح)، و(معسكرات الاحتشاد)، و(تجميع السكان)، و(برنامج سالان)، و(برنامج شال) ولكنها كلها قد عجزت أمام عزيمة الشعب الجزائري وتحديه، وأمام قوة جيش التحرير الوطني الجبارة، لأن الثورة راسخة في النفس، والقلب، والفكر، والوعي، والوجدان، وهذا ما جعل قادة فرنسا السياسيين والعسكريين يفركون أكفهم من الغضب والسخط والالتياع، ويحملقون يمنة ويسرة من القلق والحيرة والاضطراب.

وأنهم ما انفكوا يصرحون بأن الثورة في طريق نهايتها ويؤكدون ذلك في أساليب مختلفة حتى إذا اقتنع به الفرنسيون واطمأنوا إلى أن الحرب التي تحصد أبناءهم على وشك النهاية نقلت إليهم الصحافة أنباء المعارك الكبرى في جبال الجزائر وأنباء عمليات فدائية خطيرة في المدن المختلفة!

وإذا كانت تصريحاتهم تتطور من (أرباع الساعة الأخيرة) في عهد لاكوست، إلى (آخر الكتائب المتبقية) في سنة 1959 إلى أغنية (انتهاء التهدئة) سنة 1960، فإن القتال هو الآخر كان يتطور، مما جعل

الفرنسيين لا يثقون في تصريحات قادتهم، وجعل الجيش الفرنسي تتدهور معنوياته لتوالي خيباته، وجعل القادة الفرنسيين يشعرون بالخيبة والهزيمة!

والواقع أن القادة الفرنسيين لم ينجحوا من بداية الثورة إلا في محاولة إبادة الشعب الجزائري، بأشنع وسائل الفتك، وأبشع أساليب التعذيب، وهدم القرى على أهلها، ورمي قنابل النبالم على جنود جيش التحرير الوطني، وتنظيم عمليات التفتيش، والانتقام بالقتل الجماعي، وحتى هذه لم ينجحوا فيها لأن الشعب الجزائري كان بإيمانه وصموده وتحديه أكبر من كل ما سلّط عليه، وأقوى من كل المِحن والشدائد التي واجهها على أيدي هؤلاء، الذين نزلوا إلى الدرك الأسفل من الوحشية، وتنكروا لكل القوانين السماوية والوضعية.

وإذا كانت الثورة التحريرية لم تفتأ تتطور، وتتحسن أساليبها على أصعدة مختلفة، فإن حرب الإبادة هذه لم تفتأ تتطور وتتسع وتتضخم أهوالها.

الفصل الثامن

فرنسا تقود حرب الإبادة في الجزائر

تمهيد

دُلَّني إن استطعت بالعيان أو الخبر، فيمن بقي أو فيمن غبر، على شعب غير الشعب الجزائري الباسل الحر، ألحّ عليه الاستعمار الفرنسي الكافر، الفاجر، الأهوج، بالقهر والفقر، والعذاب والخراب، وسلب الاستقلال، وسوء الاستغلال، وفساد التعليم، ونسخ اللغة، ومسخ العقيدة طوال ثلاثين ومائة سنة، ثم لا تزال في رأسه نخوة العروبة، وفي نفسه حمية الإسلام، وفي يده سيف الفتوح يذكر ولا ينسى أن له وطنا يحتله الغريب، ويستغله المستعمر، على ظهره االولد والبلد، والرزق والأمل، وفي بطنه الآباء والأجداد والذكرى، فجاهد بالسيف، وصابر بالعزم، ورابط بالقوة، ثم ابتلاه العدو في ماله وفي نفسه بالتقتيل والتنكيل والأذى، فما وهن لما أصابه في سبيل وطنه ودينه وما ضعف وما استكان.

أحمد حسن الزيات.

ولكي لا ينسى الأبناء والأحفاد ثمن هذه الحرية التي ينعمون بها، وما عاناه آباؤهم وأجدادهم في سبيل هذه الحرية، من ضروب التعذيب، وأنواع التقتيل، وألوان الإهانة والزجر!

ولكي تظل كراهية المحتلين المستعمرين، محفورة في قلوب الأبناء والأحفاد عبر الحياة المقبلة، وجرائمهم تتمثل أمام الأعين على الدوام.

ولكي لا ننسى، كل ذلك، هذه جرائمهم بشيء من التفصيل:

موجات من الاستنكار ذهبت أدراج الرياح

وقبل ذلك ننبه القارئ الكريم إلى أن قادة الثورة التحريرية، وأجهزة الإعلام الثوري، حاولوا أن ينبهوا الضمير العالمي إلى الحالة المنكرة التي كانت تقع تحت سمع العالم وتحت بصره، ولكن تلك المحاولات كان أكثرها يذهب عبثا، ولم تحدث النداءات المتوالية إلا قليلا من الصدى.

«بل إن الكثير من الشعوب لم تصدق انحدار فرنسا الاستعمارية إلى تلك الهاوية، وتنكُّر حكومتها لكل القيم الإنسانية والأخلاقية، التي كانت تتباهى باحترامها فيما سلف، لكن الجزائريين كانوا يتساءلون في لهفة – وهم يرون رأي العين مدى الأهوال التي تنصب يوميا على بلادهم –كانوا يتساءلون: هل يحين يوم يبلغ فيه لأسماع العالم أنين الأبرياء، وصراخ المعذبين، وحشرجة المحتضرين في أيدي الجلادين؟ وهل يكون لتلك الأصوات الرهيبة أثرها في تمزيق تلك الحجب التي نسجتها أيدي التشكك حول ضمائر أصحاب النيات الحسنة؟

ولكن الحق يعلو ولا يُعلى عليه، ولقد بلغ من فداحة الخطب، ومن امتداد هول الكارثة، واتساع مداها أن أخذت حجب السكوت تتمزق شيئا

فشيئا، واندفع رجال من الأحرار الفرنسيين أنفسهم الذين استيقظت ضمائرهم، وهالهم ما رأوا من تنكر حكومتهم وجنودهم لكل المبادئ السامية، والتعاليم الأخلاقية، فأصبحوا يرفعون عقيرتهم باستنكار هذه الأعمال الوحشية، وهذه الموبقات الإرهابية، وصاروا يتبارون في فضح هذه الأعمال، ويجهرون بالحقيقة أمام العالم بأجمعه.

موقف الأحرار من الإبادة !

ولقد جرّبت الحكومة الفرنسية المجرمة كل أنواع الوعد وكل أنواع الوعيد لمحاولة إخماد هذه الحركة الحرة الإنسانية، فما أغنى عنها ذلك شيئا، واستمر الأحرار، أحرار الفكر وأحرار الضمير، يقصون على الدنيا بأسرها أفظع الجرائم الإرهابية التي سمعوها بآذانهم، أو شاهدتها أعينهم، وهم حينما لم يكن في استطاعتهم أن يغيروا ذلك المنكر العظيم بأيديهم عمدوا إلى فضحه، وإلى التشهير به بأقلامهم المصلتة، وألسنتهم البليغة!

لقد كان أغلب هؤلاء الأحرار ممن شملهم أمر التجنيد الفرنسي، وتشبّعوا قبل وصولهم إلى الجزائر، تلك الدعايات التي كانت الحكومة الفرنسية تتفنن في تعمير أذهان الأربعين مليونا من الفرنسيين بها، لكن هؤلاء لم يلبثوا غير قليل حتى فهموا الحقيقة الناصعة، واعتقدوا أن الكلمات التي كانت تقال لهم حول مهمتهم السلمية، لم تكن إلا من أشنع ضروب الكذب والبهتان وأنها تنافي الحقيقة على خط مستقيم.

إن أشهرا قليلة قضوها فوق ميادين البلاد الجزائرية قد جعلتهم يشهدون أفظع الجرائم، وأبشع المذابح، وأقذر الأساليب التنكيلية الوحشية التي يستهدف بها وحوش فرنسا إبادة الشعب الجزائري، فاستيقظت في ضمائرهم كوامن الهمة، وعمدوا إلى تسجيل ما رأوا وما سمعوا، ونشروا ذلك على الرأي العام الفرنسي والعالمي في كتب عديدة أهمها: (ضابط في الجزائر) بقلم ج. ج سرفان بهريبر، ونشرات (الشهادات المسيحية)، وكتاب (المجندون يؤدون الشهادة) الذي نشرته لجنة (المقاومة الروحية)، وأخيرا الكتاب المدهش (ضد أعمال التعذيب) الذي دبجته يراعة الكاتب المبدع (بيار هنري سيمون)، وقد جمعت هذه الشهادات جبهة التحرير الوطني تحت عنوان: (حرب الإبادة في الجزائر) الذي سنقدم منه شهادات عن هذه الجرائم الفظيعة التي حاولت بها فرنسا الاستعمارية أن تحوّل الجزائر إلى مقبرة ولكن الله تعالى نصر الشعب الجزائري، وانتصر على فرنسا، وأسدل الستار نهائيا على أشلاء الاستعمار وأطلاله وأوزاره، وطهّر أرضه من خنازير، وصراصير، وجرذان.

أما الجرائم الفظيعة الوحشية، التي مارستها فرنسا الاستعمارية في الجزائر خلال حرب التحرير، والتي نسيانها ضلال مبين، فهي أنواع وأساليب في منتهى الفظاعة والبشاعة، وها هي، بشيء من التفصيل كما سبق أن ذكرنا.

الإبادة بالتعذيب:

«سعداء هم أولئك الذين ماتوا من غير أن يضطروا أبدا إلى التساؤل: أتراني أتكلم إذا هم نزعوا لي أظافري؟ وأكثر سعادة منهم أولئك الذين لم يجبروا وهم لم يكادوا يفارقون الطفولة على أن يتساءلوا هذا السؤال الآخر:

ماذا تراني أفعل إذا عمد أصدقائي وإخواني في السلاح ورؤسائي إلى انتزاع أظافر عدو أمام عيني؟» (الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر).

إن التعذيب شيء خطير للغاية، فالسعيد من مات من غير أن يضطر إليه، والذين يمارسونه هم أشباه بني آدم يحملون نفوسا فظّة، وعقولا متحجرة، لا يقيمون وزنا للرحمة، ولا يعرفون قيمة للإنسانية، هدفهم الوصول لمآربهم الدنيئة السافلة بالتعذيب الجهنمي، والقمع الرهيب الوحشي.

وقبل أن نتوغل في الحديث عن التعذيب خلال حرب التحرير في الجزائر نود أن نلاحظ أن التعذيب كان في الماضي البعيد أداةً شرعية يستعملها القانون، ولا ينكرها العرف.

وقد عرفت الإنسانية في العصور المظلمة الغابرة صورا فظيعة من الإجرام، هوت بالإنسان إلى الحضيض كالبهيمة الوحشية الوقحة!

والإنسان إذا تنكّر للقانون، وتجرد من المعاني الإنسانية، وتجاوز فيه الحقد البشري أقصى حدوده تحوّل إلى جرثومة فتّاكة، وخلية قذرة، وجرح متعفّن!

وقد سجل التاريخ في صفحاته السوداء، أن أغلب الشعوب في العالم طبّقت التعذيب في الجزاء أو الاستجواب!

وكان الإغريق يمارسون التعذيب ضد الأرقاء والغرباء، والرومان يطبقونه على الأرقاء بأمر من رب العائلة، كآلة للنظام المنزلي!

ولم يكد ينتهي القرن الثامن عشر حتى قضي على هذه الطريقة الشنيعة، ولم يعد لها وجود إلا في بطون التاريخ، وعلى ألسنة الناس...

ويرجع أول قضاء نظري على التعذيب عرف في العالم المسيحي إلى سنة 866، وينسب إلى البابا نقولا الأول في أجوبته على استشارة البلغاريين، وهذا نصه:

– تقولون أنه حين يجري عندكم القبض على سارق أو قاطع طريق، وينكر ما نُسب إليه، فإن القاضي يضربه على رأسه، ويلدغه بالنار في خاصرتيه إلى أن يعترف بالحقيقة..

ولكن لا القانون الإلهي، ولا القانون الإنساني يمكن أن يقبلا هذا بأي شكل من الأشكال، لأن الاعتراف يجب أن يكون تلقائيا، ويجب أن لا يغتصب بالعنف، بل يلفظ بملء الإرادة.

ثم إذا كنتم بعد استعمال كل هذا العذاب لم تتوصلوا إلى اكتشاف أقل الأشياء التي تتهمون المتهم بها، ألا تشعرون بالعار وترون أنكم تحكمون بشكل يخلو من التقوى؟..

ويعكس ذلك إذا تغلب الألم على المتهم، وأقر بجريمة لم يقترفها، فعلى من يقع عار هذا البغي الخطير، إن لم يكن على ذلك الذي أجبر المسكين على الكذب؟..

انبذوا إذن هذه الأعمال، واقضوا قضاءً مبرماً على ما فعلتموه حتى الآن بدافع الجهل[1]..

بيد أن التعذيب في القرن العشرين رجع إلى الحياة، وعرف كوسيلة شبه رسمية، لمحاربة العدو، وأصبح يحترف على أوسع نطاق، وخاصة في الشعوب المستعمرة ضد الأحرار الوطنيين، إلا أنه يعيش وراء الستار..

لأن متحضري أوروبا لم يستطيعوا أن يواجهوا العالم، وأن يواجهوا شعوبهم بهذا الوقع المخزي..

ويقول بيير هنري سيمون في هذا الصدد:

– إن ممارسة التعذيب هي إحدى مخازي الإنسانية، ويمكن الإيضاح أنها صارت إحدى عيوب المدنية الغربية التي ظلت ترضى بها باستمرار حتى نهاية القرن الثامن عشر واستعيدت في القرن العشرين تحت أشكال يكثر الاعتراف بها أو يقل[2]..

وفي الحرب العالمية الثانية شاهد التاريخ صوراً من التعذيب الوحشي ولا أفظع منها، قام بها النازيون ضد المساجين والأسرى والمقاومين..

ولما اندلعت الحرب التحريرية بالجزائر سنة 1954 للقضاء نهائيا على الأجهزة الاستعمارية المتعفنة التي لم يفتأ الشعب الجزائري يحاربها منذ الاحتلال البغيض، اهتزت فرنسا غضباً وشق عليها أن تشاهد الشعب الجزائري الذي استعمرته قرنا وثلاثين سنة يعلنها على قمم الجبال مدوية مجلجلة بأن عهد الاستعمار قد انقضى إلى الأبد..

---

(1) ضد التعذيب، هنري سيمون، ص 825.

(2) ضد التعذيب، ص 9.

فجندت كل ما تملك من وسائل الإبادة والقمع لإخضاع الشعب الجزائري والقضاء على ثورته، فكان التعذيب من بين هذه الوسائل، وإن كان أشدها خطرا، لأنه محاولة لاإنسانية، تستهدف تجريد المتهم من كل صفاته الإنسانية: الشجاعة، والإرادة، والذكاء، والأمانة، وتشويه جسمه وروحه وعقله، والنزول به إلى مرتبة الحيوان المملوك البائس..

ومحاولة إخضاع الإنسان الفاضل للتخلي عن العقيدة، وإجباره على الخيانة هي أقسى ما يعانيه الإنسان الحر..

ولما نشرت جبهة التحرير الوطني حقائق عن التعذيب في الجزائر، وأكدت أن الجلادين الفرنسيين يمارسونه في مختلف أنحاء القطر الجزائري بكيفية منظمة، استبعد الفرنسيون ذلك في بادئ الأمر..

أما بعض الديمقراطيين الواعين، فقد آمنوا أن هناك حوادث تعذيب فردية تطبق على مستوى واسع..

وبالرغم من الستار الكثيف الذي حاول لاكوست وسوستيل وأقطاب الاستعمار أن يسدلوه على الوضع الحقيقي في الجزائر، فإن عددا كبيرا من الفرنسيين الأحرار آلمتهم المآسي الإنسانية الفظيعة التي رأوا أنها لا تتفق والديمقراطية الفرنسية..

فاندفعوا يندّدون بالتعذيب في الجزائر، ويكشفون عن الواقع المؤلم الذي يعيش فيه الشعب الجزائري..

فنشرت صحيفة (تيموانياج كريستيان) المسيحية رسائل كتبها الجندي الفرنسي (جان مولير) الذي قتل في اشتباك بولاية الجزائر في أكتوبر سنة 1956، وصف فيها التعذيب الوحشي الذي يمارسه العدو ضد

الوطنيين الأحرار الذين يقعون في قبضته، ورفع الستار عن **(التهدئة)** التي يقوم بها لاكوست..

وقد اهتزّ الرأي العام الفرنسي للفظائع الوحشية المهولة التي أوردها الكاتب في رسائله، سيما وأن الصحيفة التي تولت نشرها مسيحية تقدمية..

ولم تمض إلا أيام قليلة حتى أصدر الكاتب الفرنسي (بيار هنري سيمون) كتابه (ضد التعذيب) الذي قدم له بقوله: «سأكتب هذا الكتاب.. وليس بدون سبب.. فأنا أعلم أن الكلمات ستمزقني في الغالب، وأعلم أنني سأثير ضدي غضباً سوف ينفجر شتائم ومطاعن، وأنا أشعر بالارتياح في التعاطف أكثر من الحقد، وأُفكر على الخصوص أنني سأباغت وأصدم أُناساً فضلاء، وكائنات عزيزة، وإنني سأتألم من توبيخهم أو من سكوتهم، ومع ذلك يجب أن أرفع صوتا يختفي منذ أن أزعجت ضميري –كفرنسي– معرفة بعض الأعمال.

إن على الكاتب الذي لا يفعل ذلك بدافع التسلية أو المصلحة، أو بروح التجارة أو الزهو، بل لأجل خدمة الروح – أن يقذف أحياناً فوق اختلاط الحوادث، وفوق ثغاء القطيع، صرخة توقظ الناس..»

وقدم للوثائق والشهادات التي أوردها في هذا الكتاب بقوله: «إنها باقة، لا من الزهور والآداب الإنسانية، بل من الأشواك الدامية المخجلة..

ولئن بقي ثمة فرنسيون يشعرون بعد بالشرف، ككورناي وبيغي، وبطهارة الجندي كفوفنارغ، وبعظمة فرنسا كميشيله، وبالرحمة كهوغو

– فإنهم لا بد أن يحمروا خجلاً إذ يقرأون هذه الشهادات التي أنقلها وأنا غاضب حتى الألم..

لا بد أن ندرج هنا فقرات من ذلك التصريح القيم الذي كتبه سنة 1957 (49) محاميا فرنسياً، وصفوا فيه التعذيب في الجزائر في وحشيته القاتلة، ووضعيته المخزية:

– لقد مضى الوقت الذي كان المسؤولون الفرنسيون ينكرون فيه وجود التعذيب أثناء الاستنطاقات أو أثناء عمليات التهدئة المزعومة..

لقد مضى الوقت الذي كان رئيس الحكومة، يصرح فيه بأن حوادث التعذيب ما هي إلا حوادث فردية تعد على أصابع اليد قام بها الأفراد..

لقد مضى ذلك الوقت، وصار وجود التعذيب أمراً مسلماً به، ولذلك يجب الآن أن ننظر إلى أية درجة بلغ انتشار التعذيب..

إن البعض يؤكدون أن التعذيب صار شيئاً عادياً، لا يطبق على مستوى عام.. والبعض الآخر يدعون أنه على العكس من ذلك، أمر عام. ولكنه ليس نظاما قائماً على أُسس معينة محدودة.

ومهما يكن من شيء، فإن في استطاعتنا أن نقدم الدليل على أن التعذيب صار مظهرا يوميا من مظاهر الحقيقة الجزائرية الفاجعة..

ولا شك أن لجنة إنقاذ الحريات الفردية قد لاحظت عدم وجود أي نوع من أنواع الحريات الأساسية، وأن كل جزائري معرض في كل وقت للإيقاف بدون تهمة..

إن (الإدارة الفرنسية) تصدر ضد الأشخاص الذين يراد استنطاقهم لمدة طويلة قراراً يعين لهم مكاناً للإقامة، ريثما ينظر في أمرهم، وفي كل مرة يتبيّن أن مكان الإقامة المعين هو السجن..

فهل تندد لجنة إنقاذ الحريات الفردية بعدم شرعية هذا الأسلوب الذي يطلق فيه اسم مكان الإقامة على مكان ما هو في الواقع إلا سجن؟.

وفي كثير من الأحيان مكان مخصص للتعذيب؟..

ثم لا تقف الإدارة الفرنسية عند هذا الحد من التدليس، فتطلق على محلات التعذيب هذه باسم (مراكز الفرز)..

أما الذين يقولون لنا بأن هذه الحالة اقتضتها وضعية الحرب فإننا نجيبهم بأن عليكم أن تختاروا إحدى اثنتين: إما أن تثبتوا أن الجزائر فرنسية، وإما أن تعترفوا بأنكم تقودون حربا حقيقية ضد جيش منظم..

وفي هذه الحالة يجب عليكم أن تطبقوا قوانين الحرب، التي تنص على وجوب احترام الأسرى، والتي لا تسمح إلا بسجنهم والاحتفاظ بهم أصحاء إلى أن تنتهي الحرب»[1].

كما أن الصحافة الفرنسية النزيهة أثارت موجة صاخبة من التشنيع بالقمع الجهنمي الذي تستعمله فرنسا ضد الجزائريين..

ولكن الحكومة الفرنسية بدل أن تواجه الحقيقة وتعدل عن سياستها الخرقاء إلى سياسة تنقذ بها ما قد يكون تبقى من سمعتها عند بعض الدول – عمدت إلى الكذب والتضليل والادعاء السافر بأن (ما نشر حول التعذيب في الجزائر بعضه كذب وبعضه محرف).

---

(1) «المجاهد» عدد 12.

وأصدرت وزارة الدفاع بياناً قالت فيه:

إننا وبالعكس من ذلك، عاقبنا الجنود على (بعض) ما وقع من تعذيب..

ولكن حبل الكذب قصير، فقد اعترفت وزارة الدفاع في البيان نفسه بوجود التعذيب، حيث هدّدت كل جندي تسول له نفسه الادلاء بشهادة حول التعذيب.

فقال البيان بالحرف الواحد:

(إن الحكومة قد قررت أن تحاكم كل من ينشر خبراً من هذا النوع، والجندي الذي يدعي أنه شاهد شيئا من ذلك يعتبر كاذباً، وإن لم يكن فهو إذن شريك للمجرم، وخائن لواجبه العسكري الذي يحتم عليه أن يخبر بذلك قادته الذين يقع تحت نظرهم..)

أما في السنوات الأخيرة للثورة، فإن التعذيب أصبح شيئاً عادياً في جميع نواحي الجزائر، وصار فناً خاصاً له قواعده وأجهزته وأمكنته، بل له مراكز للدراسة والتدريب.

ولم يعد هناك أحد في مختلف أنحاء العالم يجهل هذا النوع من الحرب الإجرامية في الجزائر..

ففي مدينة (سكيكدة) يوجد مركز للتدريب على فنون التعذيب ووسائله يحمل اسم (جان دارك) ويقوم فيه بمهمة التدريب وشرح ردود فعل المستنطق بدقة – ضابط إخصائي في طرق التعذيب وسكولوجيته..

ونشرت الصحيفة المسيحية الفرنسية (تيموانياج كريستيان) سنة 1961 حديثاً دار بين أحد محرريها وأربعة ضباط فرنسيين قضى كل

واحد منهم عاماً في الحرب الجزائرية يعمل قائداً في منطقة من مناطق العمليات العسكرية أو مساعد قائد..

وقد جاء في هذا الحديث أن من أهم الإرشادات التي تعطى في مركز (جان دارك) للتعذيب – أن تكون عملية التعذيب (إنسانية) أي يجب أن تنتهي حالما يصرح الشخص المعذب بما يطلب منه...

وأوجب من ذلك ألا تترك العملية أي أثر بالجسد، وهذا لا يتحقق إلا باستعمال الماء والكهرباء الذين لا بد منهما في كل عملية تعذيب..

وذكر أحد الضباط أن كثيرا من الذين يقولون بالتعذيب يرون أنه في الإمكان الحصول على بعض الإرشادات بواسطة استعمال وسائل التعذيب العنيفة الجهنمية التي لا يتحملها أحد.

وهنا لاحظ بعضهم لبعض في شيء من المزاح والمداعبة قائلا:

– سنستعمل معك وسائل الشدة والعنف، وسوف تعترف قطعاً بأنك تجمع الأموال لفائدة جبهة التحرير الوطني..

وإذا كان الإخصائيون في فنون التعذيب يحرصون على أن تكون عملية التعذيب (إنسانية)، بحيث تنتهي بمجرد الاعتراف، وبدون أن تترك أي أثر بالجسد، فإن ذلك في محيط أقوالهم ونظريتهم فقط..

أما عند التطبيق فإنهم يتجردون من كل معاني الإنسانية، ويهبطون إلى أسفل درجات الانحطاط الروحي والعقلي، ويفترسون الضحية، كأنهم وحوش ضارية مكلوبة..

وإذا صادف أن رأيت معذباً لم تظهر على جسده آثار التعذيب، فذلك قليل نادر، إن لم يكن يحمل آثار التعذيب على جسمه فإنه يحملها على عقله ونخاعه الشوكي..

ونشرت مجلة (أنفورماسيون كاتوليك أنترناسيونال) في عددها الصادر في شهر آب سنة 1960 – تحقيقا كتبه أحد المحررين، جاء فيه ما يلي:

– والحقيقة أن مسألة التعذيب والقتل بدون محاكمة أثارها عدد كبير من الأشخاص الذين حادثتهم: قساوسة، وأساتذة، وعسكريون، وموظفون، ومحامون، فمنهم من أجرى عمليات التعذيب بنفسه، ومنهم من شاهدها، ومنهم من سمع عنها ممن ارتكبوها، أو تلقى شكاوى الضحايا..

وقد قال لي أحد المعلمين الفرنسيين:

– إن ضابطا صديقاً له قصّ عليه كل تفاصيل عمليات التعذيب التي يجريها على المشبوهين.

ثم قال له في نهاية الأمر:

– تستطيع أن تحكي كل ما قلته لك، فلا يهمني.. إنني سوف أقسم بالإنجيل أن ذلك غير صحيح، لأني دائماً آخذ احتياطي، فلا أجري عملية من عمليات التعذيب إلا بعد أن أتأكد أنه ليس هناك شهود..

ويواصل الكاتب تحقيقه ويقول:

– لقد قال أحد القساوسة:

إني أقدر عدد الجزائريين الذي ماتوا من جرآء التعذيب في الدائرة التي يشملها وعظي فقط – بألف شخص على أقل تقدير !

وأكد لي أن الأشخاص الذين كانوا في حالة سيئة من جراء التعذيب لم يرجعهم الجيش إلى عائلاتهم، وقال إنهم فقدوا..

والواقع أن جثثهم موجودة في قعر البحر قرب العاصمة..

إن السجون والمعتقلات التي لا تخلو منها مدينة أو قرية في الجزائر، تتلقى كل يوم سيلاً من المعتقلين ذوي الأعمار المختلفة، من نساء وأطفال وشيوخ، يقيمون فيها آماداً مختلفة، يتعرضون خلالها للإهانة، والجوع، والبرد، والمرض، وألوان فظيعة من التعذيب على أيدي الجلادين الفرنسيين، ثم يخرجون أجساماً مشوهة إلى الأبد..

والكثير منهم هم الذين ينقلون من السجون إلى القبور..

لا نستطيع أن نعطي صورة مفصلة عن كيفية التعذيب ووسائله خلال سبع سنوات من الحرب الجزائرية، إذ أن الجلادين الفرنسيين الذي تخصصوا في الإجرام منذ حرب الهند الصينية، يكتشفون كل يوم طرقاً جديدة في التعذيب لا تخطر على بال إنسان...

فإذا كان أصحاب المواهب الفكرية في العالم يتباهون باختراع الطائرات والصواريخ وعجائب العلم الحديث، فإن هؤلاء يتباهون بما تكشف عنه عبقريتهم كل يوم من فنون التعذيب ووسائله...

فهم يمارسون تجارتهم الإجرامية التي ترمي إلى تحطيم إنسانية الإنسان كما تمارس التجارب العلمية على الحيوان والنبات..

وسائل التعذيب وكيفياته

إن التعذيب في الجزائر كان يتطور من حين لآخر، وتتنوع وسائله، وكيفياته، تبعاً لتطور الذهنية الاستعمارية في الجزائر، وتطور حقد المستعمرين على الجزائريين، وتوغلهم في الدناءة والسفالة والانحطاط، ونتيجة أيضا للاكتشاف المستمر لوسائل التعذيب وكيفياته، ومن هنا فإن ما نقدمه في هذا المحور من تلك الوسائل والكيفيات، ليس كل ما كان

يمارس به التعذيب خلال حرب التحرير، لأن الجلادين الفرنسيين كانوا يتنافسون في اختراع واستنباط وسائل التعذيب ويتباهون بذلك، ويرون أجدرهم بالتقدير والاختراع، ذلك الذي يفوق الشيطان في هذا المجال، فإذا كان أهل العلم والمعرفة يجدُّون في اكتشاف وسائل الترفيه عن الإنسانية وتطييب حياتها، فإن هؤلاء الجلادين يجدُّون في البحث عن وسائل تدمير الإنسان الجزائري!

ومن هنا فإن ما نقدمه هنا من تلك الوسائل والكيفيات ليس إلا قليلا، ارتفع عنه الستار، وظهر للعيان، وصاغه الفكر، وسجله القلم.

نشرت صحيفة (المجاهد) اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني في عددها الثامن وبتاريخ 6 أغسطس 1957 طائفة من هذه الوسائل والكيفيات قدمت لها بما يلي:

إن للتعذيب درجات مختلفة متفاوتة حسب شدتها وحسب المسرات البهيمية التي يستلهمها منها الجلادون، وبوجه عام نعرف خمسة أنواع من التعذيب تستعمل بكيفيات مختلفة، ثم استعرضت الصحيفة هذه الكيفيات:

التعذيب بالكهرباء: هذه العملية التي تنجز بدقة فائقة تمتاز بشناعتها، إذ لا تبقي أثرا باديا للعيان إذا عولجت بقاياها، وتقع هذه العملية ليلاً، فَيُمَدَّدُ المتهم عاريا على –طاولة العمليات– وتقيد رجلاه ويداه ثم يفرغ على جسمه وعاء من الماء لتعميم التيار الكهربائي عند إرساله، وهناك يسلط التيار على الأعضاء الحساسة من جسم الرجل أو المرأة المعذبة وهي الأذنان واللسان والأعضاء التناسلية والنهدان وتبلغ

الآلام درجة من الشدة تجاوز كل وصف، ويُرى الإنسان يتخبط ويتلوى من شدة الصدمة الكهربائية رغم القيود.

وقد يقيّد الشخص عاريا ويربط بالجدار ورجلاه واقعتان في صحن من ماء، وهذه الكيفية تضاعف شدة الصدمات، أو يكون الجسم مربوطا إلى سلم مغمورا في صحن من ماء كذلك، ويوضع الخيط الكهربائي على مختلف الأعضاء، وهذا الأسلوب هو الذي عذبت به البنات في فيلا سوزينو.

أو يوضع الشخص عاريا داخل آنية قوسية، مقيد اليدين والرجلين وهاتان الأخيرتان واقعتان في الماء، ويأتي الجلاد متقيا بقفازين من مطاط وقباقيب من خشب فيرسل التيار الكهربائي بواسطة قلم حديدي مسنون يغرزه في اللّحم. وكانت الكيفية تستعمل في -مركز قيادة الأبيار- وهي تترك على الجسم آثاراً تبقى ظاهرة أكثر من عشرين يوماً في بعض الأحيان.

والكيفية الأخيرة للتعذيب بالكهرباء هي إدخال الشخص في حوض مملوء بالماء وإرسال التيار الكهربائي في الماء لإغراق الجسد كلّه في الماء المكهرب.

وهذا الأسلوب، هو أقسى ألوان التعذيب بالكهرباء وأفظعها، وهو الذي يسلطه جنود المظلات على ضحاياهم، أما أصحاب القلاسن الخضر فإنهم يطلقون اسم -تلفزيون- على عملية التعذيب بالكهرباء، وأما أصحاب القلاسن الحمر فإنهم يسمونه -جيجان- أو -لو- أي الذئب المفترس إذا كانت الآلة أقوى.

وينبغي التنبيه على أن المعذبين لا يطلق سراحهم في الحال بعد تعذيبهم فلا يخرجون من محلات اعتقالهم حتى يعالجوا لكيلا يبقى على أجسامهم أثر للتعذيب.

التعذيب بالماء: يمكن ترتيب كيفيات التعذيب بالماء على ثلاثة أصناف.

الصنف الأول: هو إفراغ الماء في البطن من الفم، وذلك بكيفيات عديدة:

أ- يدخل قمع في الفم ويفرغ فيه الماء حتى ينتفخ البطن انتفاخاً فاحشاً، فإذا امتنع المعذب من الشرب، يغلق منخره حتى يختنق، فيقبل الماء وعندما يمتلئ البطن ماءً وينتفخ يقفز أحد الجلادين ويقع مستويا على رجليه فوق بطن المعذب، فيتطاير الماء من الفم ومن بقية المخارج الإنسانية.

ب- وهناك كيفية أخرى: وهي إدخال أنبوبة في الفم متصلة بحنفية وعندما يبلغ البطن من الانتفاخ أقصاه تكرر الكيفية المذكورة لإفراغه.

الصنف الثاني: المغطس: تختلف كيفيات التعذيب بالمغطس بحسب اختلاف الجلادين في التفنن والوحشية.

أ- ففي "فيلا كرا" بشاطئ "بان رومان" يجرد المعذب من ثيابه في الليل حين اشتداد البرد ويلقى في مغطس مليء بالماء ويبقى رأسه في الماء حتى يغص.

ب- في فيلا "سوزيني" يدخل الشخص في جراب ويغرق في المغطس حتى يقر أو يغص، وهذه الكيفية تستعمل في تعذيب البنات بالخصوص.

جـ- هناك نوع آخر من التعذيب بالمغطس يستعمل في نفس المكان وهو أشهر الأنواع ويقع كما يلي:

يجلس المعذب جاثيا وتوضع تحت ركبتيه عصا ويكف دراعاه تحت العصا ثم توثق ركبتاه، وهناك يدخل المعذب في المغطس، وتوضع طرفا العصا على حافتي المغطس، فيصير المعذب معلقا من ركبتيه ويديه على العصا وهي كالمحور يتأرجح تحته الشخص فيغطس رأسه في سائل قذر متعفن، كلما أنكر.

الصنف الثالث: القماط: في عمارة "كراند تيراس" بشاطئ دومولان بالعاصمة يربط جسم المعذب كما يربط الرضيع المقمط ويعلق من رجليه بحبل يدلى بعجلة من الطابق الأول إلى ماء البحر فيبقى غارقاً عدة ثواني تمر عليه كأنها قرون ثم يُخرج وهو يرتعد من البرد، ويستأنف الاستنطاق، ثم تكرر هذه العملية حتى يقر المعذب أو يفقد كل شعور أو يموت.

التعذيب بالنار: أما التعذيب بالنار فإنه لا يساويه شدة وقساوة إلا جنون الذين يعملون به، وها هي بعض ألوانه:

أ- يجلس المعذب على كرسي يوثقه بظهره الجلادون وهو عاري الصدر ثم ينفخ الجندي الذي يستنطقه على عينيه دخان التبغ ثم يطفئ لفافته المشتعلة في صدره ونهديه.

ب- يوثق المعذب ممدوداً على طاولة العمليات، وهو عاري الصدر، ثم يُبل بالبنزين وتشعل فيه النار، ومن مفعول هذه الكيفية أن المعذب يثب حتى يبلغ السقف في بعض الأحيان، أما الحروق الناتجة عن ذلك فإنها تبلغ درجة خطيرة جداً.

جـ- تقيد يدا المعذب من الخلف وتحرق أظافره وأطراف أصابعه بالكبريت. ويثير ذلك آلاما يعجز عنها الوصف.

د- تشد الرجلان عاريتين وتوضع تحتها شمعة موقدة، وقد خلفت هذه العملية في أرجل بعض المعذبين ثقوباً غائرة.

التعذيب بالحديد:

أ- يُحرق بالمكواة صدر المعذب وذراعاه وأصابع رجليه.

ب- يجلس المعذب على كرسي عاري الصدر والظهر فيعضه الجلاد بالكلاليب، ويقشط اللّحم من الظهر والنهدين والشفتين.

جـ- يقطع الجلاد بسكين حاد مسنون قطعا من لحم المعذب ثم يوسع الجراح ويحكها بالملح الحجري.

د- توضع الكفان على الأرض ويضرب الجلاد ظهرهما بمتون الخناجر وأيدي الفؤوس.

التعذيب بالحبل:

أ- عملية الجراب: يوثق المعذب من رجليه ويديه مجموعة بحبل كالماشية ثم يعلق ويرفع بالعجلة نحو السقف، وهناك يطلق الحبل، فيهوي المعذب إلى الأرض واقعاً على رأسه وظهره كالجراب. وتكرر العملية ما دام المتهم لم يعترف ولو كذبا أو لم يدل بأسماء تملى عليه ليلقى القبض على أصحابها. فإذا امتنع من ذلك يعذب حتى يموت ضحية ثباته وجنون معذبيه.

ب- الخنق: يوثق المعذب جالسا على كرسي يشد عنقه بحبل دقيق ثم يجذب اثنان من الجلادين طرفا الحبل حتى يغص المعذب أو يموت شنقاً.

جـ- الربط على الأرض: يمدد على الأرض الباردة الرطبة في بعض الغيران والكهوف بضاحية العاصمة وهو على هيئة الصليب وتشد رجلاه ويداه بأوتاد مضروبة في الأرض، ويُترك السجين هكذا أياما وليالي في الظلام الحالك والوحدة المطلقة. وقد جُنّ كثير من الذين سلط عليهم هذا النوع من التعذيب.

وسائل أخرى للتعذيب

وهناك أنواع أخرى من وسائل التعذيب وكيفياته لم تذكرها صحيفة المجاهد لأنها إنما ذكرت ما كان معمولا به من بداية الثورة إلى تاريخ صدور هذا العدد، وها هي بعضها:

1- أن يوضع المعذب في مرحاض أياماً وليالي، ومن حين لآخر يلطخ وجهه بالوسخ، وتقيد رجلاه إلى الوراء، حتى لا يتمكن من إزالة الوسخ!

2- أن يعلق من رجليه إلى السقف، وتوقد النار تحت رأسه لمدة حتى يكاد يموت، ومن حين لآخر يسأل: إذا كان مستعدا للاعتراف!

3- أن يدخل السكين في جسمه شيئا فشيئا. وكلما رفض الاعتراف أوغِلَ السكين في جسمه، حتى يصل إلى العظم، وقد يموت أثناء العملية!

4- أن يعذب الإنسان بواسطة الوخز بإبرة حادة بين كتفيه وعلى صدغيه، ويتخلل الوخزات استنطاق مصحوب بسخرية لاذعة، وعبث ملعون، يمس كرامة الإنسانية، والمعذب خلال العملية يتلوى ويهتز ويصرخ.

5- شل الأعضاء التناسلية واستئصال النخاع الشوكي بآلات عصرية خصوصية لا تخطر على بال!

6- أن يوضع المعذب بين لوحتين تصل بينهما قطعة من حديد، وبين اللوحتين مسامير حادة، ويوجد في أسفل اللوحتين زر كهربائي يضغط عليه، فتقترب اللوحتان أو تبتعدان، وعند التعذيب يضغط على الزر قليلا قليلا والمسامير تدخل في جسمه وهو يئن ويصرخ، ويصحب ذلك استنطاق بأساليب من التهكم والسخرية والزجر!

7- تقطيع رقعة صغيرة من جسم المعذب بواسطة ملقاط خاص!

8- التعذيب (باللكانة) أي المِنجر، وكيفية التعذيب بها هي نفس الكيفية في نجارة اللوح، توضع (اللكانة) على جزء من الجسم، ثم يحرك إلى الأمام وإلى الخلف، كما يفعل النجار تماما عندما يصقل اللوح، ثم يوضع الملح على الجراح الناتجة عن ذلك!

9- التعذيب النفسي، وهو أقسى أنواع التعذيب وأشده، ولا سيما على ذوي الشهامة والكرامة والغيرة، ويتمثل هذا التعذيب في أن الجلادين يحاولون استنطاق الإنسان بوسائل التعذيب المختلفة، فإذا لم يقدروا على انتزاع الاعتراف من المعذب أحضروا زوجته أو بنته أو أخته أو إحدى محارمه الأخريات فيخيّروه بين الاعتراف وبين أن يغتصبوا إحدى هذه المحارم تحت سمعه وبصره، وهذا -طبعا- إذا كان في الإمكان إحضارها لقرب مكانها، وهذا النوع من التعذيب دلّهم عليه الخونة السفلة اللئام، فهم الذين كشفوا لهم عن أهمية هذه العملية في حمل المتهم على الاعتراف وبيّنوا مكانة العرض لدى العربي، وخاصة المسلم الجزائري، فإذا رأى عرضه يتعرض للتلوث والدنس ضحّى بكل شيء في سبيله!

10- يحضر الجلادون أقارب المتهم ويجبروه على الرقص عارياً أمامهم، ثم يمثلون به أدوارا مخجلة، تفوق كل تصور!

11- أن يضعوا أحد وجهي الآلة المغناطيسية في جهاز التناسل والآخر على الرأس، وتتوالى ضربات التيار الكهربائي وهو يتألم ويتلوى ومعذبوه يضحكون ويسخرون وينكتون!

12- أن يوضع ستة إلى ثمانية من المتهمين في برميل خمر ضيق لا يتسع إلا لثلاثة أو أربعة. وهناك يمكثون من عشرين إلى ثلاثين يوما، ولا يوجد في البرميل فتحة يتسرب منها الهواء ما عدا فتحة صغيرة في أسفل البرميل طول قطرها ستون سنتمترا، وحتى هذه تغلق أحيانا بخرقة، ولا يخرج المتهمون من هذا البرميل إلا للاستنطاق!

وعندما يتحول المعذب إلى خرقة ملوثة لا تُرجى له الحياة يخرج من البرميل، ويجبر على حمل شيء ثقيل حتى يسقط جثة هامدة!

13- التعذيب بالشنق وهو مستعمل بكثرة في منطقة القبائل، ففي (بني دوالة) يعلق المشبوه من رجليه في سلك حديدي ملولب يمد بجرارة معلقة في السقف، ثم يغمس رأسه وصدره في إناء ضيق مملوء بالماء حتى يشرف على الاختناق، ثم يخرج لبضع لحظات ليغمس فيه من جديد، وهناك أسلوب آخر مستعمل بكثرة وهو أن يرفع المشبوه إلى أعلى السقف، ثم يطلق به السلك فجأة من أعلى فيتحطم على الأرض، وتتكرر العملية حتى يفقد الحياة بعد أن يصير جسمه كتلة حمراء من لحم مرضوض!

14- في القرى الموجودة على أعالي الجبال يوضع المشبوهون في صندوق خشبي مستدير ثم يرمى به من أعلى في منحدر صعب فيصطدم الصندوق بالصخور، إلى أن يرتطم في الأخير على الأرض الصلدة أو في أعماق واد عميق!

15- وفي (تيزي راشد) حيث كان يوجد ضابط الشؤون الأهلية (ديوي) يجرد المشبوه من جميع ثيابه ثم يربط بإحكام على لوحة كلها

مسامير، ثم يأتي جندي فرنسي فيضغط على جسد المشبوه بكل ثقله وقواه حتى تدخل المسامير في ظهر الضحية.

16- بمركز التعذيب بتيزي وزو وهو في الأصل طاحونة زيت قديمة كانت على ملكية صالحي، يكدس المساجين في خوابئ، ثم يقتلون بالاختناق بواسطة دخانٍ أسود يأتي من إحراق كمية كبيرة من المازوت وعلى هذه الصورة قتل (34) شخصا من بين 37 ألقي عليهم القبض!

17- في قرية (بابار) اعتقلت السلطات الفرنسية بعض المدنيين المشبوه فيهم فعذبوا عذابا أليما، وكان من بين ما عذّبتهم به أن خاطت أصابعهم اليدوية والرجلية بالخيوط الغليظة ثم لما لم يعترفوا بشيء، خاطت -لكل واحد- فخذيه فرجليه.

18- يجبر المشبوه فيه على تركيز قدميه على لوحة مليئة بالمسامير، وهذا بعد تشريح اليدين والرجلين بالسكين!

19- تقطع الأذن بالموسى، كما تقطع بعض الأعضاء الحساسة بطريقة بطيئة يصاحبها الاستنطاق.

20- يعلق المشبوه في شجرة، رأسه إلى الأرض، ويترك على هذا الوضع حتى يعترف، وغير بعيد عن ناحية (سلانيس) علقت زوجة مجاهد مدة طويلة حتى غمر وجهها الدم وتحقن، فماتت على هذا الوضع لأنها لم تنبس ببنت شفة!

21- من أنواع التعذيب الوحشي التي يستعملها (رجال الحضارة الغربية) ضدّ المدنيين الجزائريين خِلال حرب التحرير صب البنزين

عليهم ثم إضرام النار فيهم. ثم يؤمرون بالجري، حتى يسقطوا جثثا هامدة، وقد ذهب ضحية هذه العملية كثيرون لأنهم لم يعترفوا بما أجبروا عليه!

وممن أحرقوا بهذه الطريقة في جهة (بابار) في شهر ديسمبر سنة 1959 السيد إبراهيم بن محمد، بعد أن قتل الجنود الفرنسيون كل عائلته التي تضم (20) شخصا، كما أحرقوا السيد (عبد الحفيظ بوزكراوي) بهذه الكيفية وهو مسؤول شعبي، لأنه نفى كل ما أجبر على التصريح به! (المجاهد – ع 39 – 02/04/1959).

22– من أنواع التعذيب فقؤ العينين (بالبايونيت) وقد كان عدد كبير من المدنيين ضحية هذه العملية، ونذكر منهم (السيد محمد المدني) وهو مسؤول شعبي في نواحي (بابار) ولما يئسوا من اعترافه ذبحوه!

23– هذه كيفية أخرى من التعذيب استعملت عدة مرات في أماكن وأزمنة مختلفة نكتفي منها بهذه:

في (سلانيس)، منطقة خنشلة بالأوراس اعتقل الجنود الفرنسيون المسماة (الزهراء): يعمل زوجها مسؤولا شعبيا بتلك الناحية، واستنطقت –قبل الاعتقال– مرات عديدة حول عمل زوجها، وما إذا كان يزور البيت، وفي أيّ وقت ما، ولما نفت أن يكون معها أو له أية مسؤولية، ويئسوا من كل محاولة أخرجوها إلى (البطحاء) وربطوا يدها ورجلها اليساريين في سيارة (جيب) ويدها ورجلها اليمنيين في (جيب) ثانية، ثم انطلقت كل سيارة في اتجاه معاكس فتمزقت الزهراء شطرين!

24– وهناك تعذيب الأطفال الذين يعمل آباؤهم أو إخوانهم في الثورة، فإن الجنود الفرنسيين يعتقلونهم، ويُجرون عليهم –مع صغر سنهم– استنطاقات قاسية، وعندما ييأسون من التحصيل على اعترافات منهم، يرمونهم في بئر، أو قبو، ويتركونهم هناك أياما وليالي بلا أكل ولا شراب حتى يقضوا نحبهم!

25– كثيراً ما يتهافت الجلادون الفرنسيون على مريض أو ذي عاهة فيشبعونه ضرباً ولكما، وقد يرمون به في حفرة أو مستنقع، أو مزبلة لا لشيء سوى أن هؤلاء الجلادين الوحشيين يجن جنونهم عندما يرون جزائريا أو جزائرية ويزداد نهمهم إلى التعذيب أو إراقة الدماء من دون فرق بين صحيح ومريض، أو بين مشبوه وغير مشبوه، والمهم أن يكون جزائريا أو جزائرية!

وهناك مريض بالسل هو (مبارك دفان) في بني يراتن ضرب بالأرجل على الصدر حتى لفظ النفس الأخير، وفي قرية (كزوزة) حوز بني يراتن ثقب الجلادون عيني (فدالي الهادي) وقطعوا لحم يديه بالموسى لا لشيء سوى أنهم وجدوا عنده علبة قطن (المجاهد ع9 – 20 أغسطس 1957).

شهادات ضحايا التعذيب الفرنسي في الجزائر

ومهما حاولنا أن نصوغ صورة صادقة للتعذيب الذي كان يمارسه الجلادون الفرنسيون على الجزائريين أيام حرب التحرير، فإن العجز يصادفنا ما دام القلم أو اللسان هو الوسيلة الوحيدة للتصوير والتعبير!

ولكي ننقل إلى الغائب.. إلى القارئ الكريم صورة التعذيب في حقيقته، وبالعمق أيضا يجب أن نستعرض جميع طرق التعذيب ووسائله، وظروفه، وأماكنه، وفي مختلف مراحله، ونصور حالة المعذب النفسية والجسمانية، وهو في برميل خمر، أو على المركبة الحديدية، أو بين ألسنة النار الصاعدة، أو التيارات الكهربائية، أو أمام إحدى محارمه والجندي الفرنسي القذر يغتصبها، أو قرب نافذة الزنزانة، يستمع إلى عويل المعذبين، وأناتهم الحزينة التي تخنقها أحيانا سدادات الفم..

وهب أننا استعرضنا كل ذلك بتفصيل وإسهاب، وفي أسلوب واضح معبر، فهل نستطيع مع ذلك أن نجعل القارئ يشعر بأدنى ما يشعر به المعذب من الآلام الجسمية والنفسية؟ بواسطة اللغة، بحيث تصل إلى الغائب بنبضاتها وحرارتها وتأثيراتها حتى يحس بها ويشعر كأنه عاشها، ذلك أمر متعذر.

إن هذه الأحوال والأوضاع لا يقدر الفكر أن يصوغها في قالب وغير ممكن، وإنما يُدركها على حقيقتها من عاشها كما هي وذاق آلامها الرهيبة، وتنقلب في سعيرها الفاجع، ومن هنا فخير لنا أن ندع المجال للذين أوقعهم سوء طالعهم في أيدي هؤلاء الوحوش، وعاشوا هذه الظروف، وكُتِب لهم الحظ أن يتخلفوا عن قوافل الشهداء، ومواكب الأموات، بعد أن وضعوا أرجلهم على عتبة الآخرة، وليكن أولهم هذا الكاتب الفرنسي الذي ألقي عليه القبض سنة 1957 بسبب آرائه التقدمية، وتأييده للحركة الوطنية الجزائرية، وثورة الجزائر التحريرية، ألا وهو (هنري أليغ) مدير جريدة (ألجيه ريبوبليكان) التي كانت تصدر بالفرنسية في عاصمة الجزائر!

وقد وضع كتابه القيم (المسألة) في أعماق السجن كشف فيه عن صنوف التعذيب التي يمارسها جنود المظلات بالجزائر.

وقد قدم له بقول (جان كريستوف):

«إنني بمهاجمتي للفرنسيين الفاسدين، أدافع بذلك عن فرنسا».

واخترنا (هنري أليغ) من بين مئات بل آلاف من الذين تعرّضوا للتعذيب الفظيع في السجون والمعتقلات خلال سنوات الحرب، وأوليناه اهتماما خاصا، بالإفاضة بالقول فيه، وبتقديمه على غيره ممن سنتحدث عنهم في هذا المحور للأسباب التالية:

أولا– لأنه اعتقل في سنة 1957 عندما كانت السلطات الفرنسية تمارس جريمة التعذيب وراء الستار، وقبل أن يصير التعذيب فنا له أجهزته، وقواعده، وله مراكز للدراسة والتدريب، وقبل أن يصير التعذيب أيضا لذة يتمتع بها زبانية الاستعمار!

ثانيا– لأن (هنري ليغ) أوروبي والسلطات الفرنسية تعامل الأوروبيين حيثما تلتقطهم، بشكل أحسن من (الهمج) كما صرح بذلك أحد الضابط قبل الشروع في تعذيبه!

وإذا كانت حالة الزبانية مع (هنري ليغ) وهو أوروبي –كما سترى– فكيف بها مع الفدائيين والمجاهدين والمناضلين الوطنيين الذين يقعون في أيديهم؟

ومن هنا ندرك فظاعة التعذيب الذي يمارس على الجزائريين المعتقلين.

ثالثا– لأنه في طليعة الأحرار والفرنسيين الذين اشتهروا بأفكارهم التحررية، ومواقفهم الجريئة ضد الاستعمار الفرنسي، ومزقوا الستار الكثيف الذي أسدلته فرنسا على خزيها في الجزائر دون أن يحول بينهم وبين ذلك خوف.

رابعا– لأنه أول فرنسي في تاريخ الثورة عذب أفظع تعذيب بغية الحصول على معلومات حتى أشرف على الموت ولم يستسلم، فأحدث بذلك هزة كبرى في الشعب الفرنسي!

خامسا– لأنه لم يكن ضحية فريق صغير من الجنود المظليين، بل قبض عليه (قبض اليد) من قبل الضباط الكبار!

وقد شاهد هذا التعذيب عدد من الملازمين والمقدمين والعقداء، وزاره بين جلسات التعذيب معاون الجنرال (ماسو) وطلب إليه أن ينتحر!

ولهذه العوامل والأسباب نولي اهتمامنا الخاص بهذا الرجل الذي استطاع أن يقهر أولئك الزبانية، ويتغلب على التعذيب، ويكتب صفحة متميزة في تاريخ حرب الجزائر التحريرية، ويخدمها خدمة خاصة تظل عبر التاريخ تذكر له بالإعجاب والتقدير.

ولنرهف إذن أسماعنا، ولنستمع إليه وهو يصف عذابه بين أنياب الموت، ويصف قصة تعذيبه الجهنمي كاملة بمنتهى الدقة من الوصف، ويقول في معرض حديثه عن المرحلة الأولى من التعذيب:

– ووضع (لو) خشبة سوداء على الأرض، وقد عفنتها الرطوبة واتسخت، وأصبحت لزجة لكثرة القيء الذي خلفه بدون شك (زبائن) آخرون..

وقال:

– هيا بنا تمدد، وتمددت على الخشبة، وربط (لو) بمساعدة آخر يديَّ ورجليّ بواسطة حزامات جلدية معلقة بالخشب..

وكنت أرى (لو) واقفاً فوقي، وقد باعد ما بين ساقيه، ووضع رجلاً من كل ناحية بمستوى صدري، ويداه في خاصرتيه في موقف الفاتح، ثم صوب نظره إليّ، وهو ينظر في عيني محاولا كرؤسائه تخويفي..

وقال بلهجة وهرانية:

– اسمع.. إن الملازم يريد أن يدعك تفكر قليلا، ولكنك بعد ذلك ستتكلم، ونحن حين نلتقط أوروبياً نعالجه بشكل أحسن من (الهمج)، كل الناس يتكلمون، ينبغي أن تقول كل شيء..

ويقول (هنري ليغ) في وصف (جا) وهو أحد الجلادين الذين تولوا تعذيبه:

– إنه أسمر جداً شفته العليا مقلوبة بشكل مثلث تحت أنفه وافتر فمه عن ابتسامة طفل سيقوم بلعبة مدهشة..

وأخذ يلوح أولاً أمام ناظري بالملاقط التي كانت تتصل بها الأسلاك الكهربائية، وكانت ملاقط صغيرة مستطيلة ومسننة، ملاقط (كفك التمساح) كما يقول عمال الخطوط التليفونية الذين يستعملونها..

ووضع أحد هذه الملاقط في طرف أذني اليمنى، وآخر في أصبع اليد اليمنى..

وقفزت دفعة واحدة في أربطتي، وجأرت بأعلى صوتي.. فلقد أطلق (جا) دفعة كهربائية على جسمي..

وانطلقت بالقرب من أُذني شرارة طويلة، وشعرت بأن قلبي يكاد يقفز من صدري..

وأخذت أتلوى، وأنا أصيح من الألم، وتصلبت كل أعضائي حتى جرحت، بينما كانت الاهتزازات التي يوجهها (جا) بيده تتوالى دون توقف..

وعلى هذا النغم كان (جا) يوجه إليّ سؤالاً واحداً، وهو يلوك مقاطعه:

– قل لنا أين كنت تأوى؟..

وبين كل اهتزازة وأخرى كنت ألتفت إليه لأقول له:

– إنكم تخطئون، وستندمون...

وما كان ذلك إلا ليزيده غضباً، فكان يسلط التيار عليّ إلى أقصاه ويقول:

– كل مرة تحاول أن توجه درساً في الأخلاق، سأبعث إليك (بدفعة)..

وفيما كنت أتابع الصراخ والعويل قال (لو) لـِ (جا):

– يا إلهي، كم هو فاجر..

سد له فمه بخرقة..

وتناول (جا) قميصي الذي لفه حتى أصبح كالكرة، وسد به فمي..

واستؤنف التعذيب، وكنت أعصر القماش بكل قواي بين أسناني، وكنت أجد في ذلك بعض الراحة..

وفجأة شعرت كما لو أن حيواناً وحشياً عضني، بحيث سلخ لحمي بصورة متقطعة..

وكان (جا) الذي يبتسم دوماً فوق رأسي قد علق الملقط في العضو الجنسي..

وكانت الاهتزازات ترجفني بصورة قوية جداً، بحيث أدت إلى انفكاك الأربطة الجلدية التي حزموا بها رجلي..

وكان أن توقفوا قليلاً لإعادة ربطها من جديد، وتابعوا أعمال التعذيب..

ولقد تعرض (هنري اليغ) لضروب من التعذيب لم يتعرض لها أحد من الأوروبيين وأشرف على الموت عدة مرات..

أحرقوا أجزاءً من جسمه حتى أخذت رائحة الشواء تتصاعد إلى كل مكان في مركز التعذيب..

ووضعوا قطعة من الخشب بين فكيه، ولفوا رأسه بخرقة، وربطوا يديه ورجليه إلى الوراء ثم أغرقوه في حوض من الماء مدة حتى بلغ في الاختناق أقصى الحدود، وأوشك على الموت.

ووضعوا الملاقط في فمه، وسدوا أنفه، ثم أدخلوا الشريط العادي إلى أعماق سقف حلقه، وأخذوا يشغلون آلة كهربائية بقوة حتى تقلصت جميع عضلات وجهه وتشنجت بشكل فظيع..

وحرموه من الماء مدة طويلة حتى كان يحس بلهيب بين أحشائه مع المداومة على تعذيبه بالكهرباء..

وكانوا يتناولون زجاجة صغيرة، فيها ماء، ويصبون منها إلى كوب أمام فمه بشكل خيط دقيق..

وفي إحدى المرات قال له أحد معذبيه:

- إننا مع ذلك لسنا حيوانات إلى هذه الدرجة، فسنعطيك من هذا الماء، وقرّب الزجاجة من فمه فتردد لحظة، ولكن الجلاد قرص أنفه، ودفع برأسه إلى الوراء، وصب الزجاجة دفعة واحدة في فمه.. وكان ماءاً مالحاً إلى درجة المرارة..

لقد لاقى هنري اليغ على أيدي الجلادين الفرنسيين صنوفاً من العذاب الأليم، دون أن يتسرب إلى نفسه ضعف أو استخذاء.

واستطاع أن يواجه تلك اللحظات الرهيبة التي يحس فيها المرء بالتلاشي في نوع من اللاشعور بصبر نادر، وشجاعة خارقة.

ومن ذا الذي لا يهتز لهذه العبارة التي وردت في آخر فصل من فصول كتابه:

- وأحسستني فجأةً فخوراً وفرحاً بأنني لم أستسلم، وكنت على يقين من أنني سأقاومهم مرة أخرى إذا أعادوا الكرّة، وسأجالد حتى النهاية، وإنني لن أُسهل مهمتهم بأن أعمد إلى الانتحار..

ووراء القضبان الحديدية، وفي الجلسات الرهيبة التي يعقدها الجلادون الوحوش مع المعتقلين تشتد المقاومة، ويبلغ التحدي أقصى حدوده..

فالطغاة الفرنسيون يحاولون في وحشية وضراوة وبكل ما يملكون - وما أكثر ما يملكون- من وسائل التحطيم والتدمير وحيل سافلة، يحار منها الشيطان، أن يحملوا الموقوف على الكلام ويجبروه على الخيانة لعقيدته ومبدئه، وينتزعوا من أعماقه ولو شبه اعتراف.

والموقوفون يحاولون في إصرار عنيد لا يقاوم، وبكل ما لديهم من طاقات الإرادة والروح، أن يتحملوا ألوان العذاب دون أن ينبسوا بكلمة، ويتناسوا آلامهم وجراحاتهم إزاء المبدإ المقدس..

وهكذا يتوالى الصراع، في شدة وعنف، أسابيع وشهوراً بين الجلادين والمعذَّبين، بين المعنويات والماديات، بين الإنسانية في أرقى درجاتها، والحيوانية العمياء في أحط مراتبها..

ثم ينتصر المعذبون في النهاية، رغم الجوع والعري والعرق والدماء، وينتزعون من جلاديهم إعجابهم ببطولتهم، ويجبرونهم على تقدير كل ضحية تقع بين أيديهم..

ولقد كان (هنري اليغ) من أولئك الأبطال الذين انتصروا على العذاب، واستعصوا على الموت، وسجلوا صفحة رائعة في تاريخ التعذيب في الجزائر، حتى سمع ضابطا يتبادل الحديث مع آخرين، بعد أن ملوا من تعذيبه – سمعه يقول:

– منذ عشر سنوات، منذ خمس عشرة سنة، وفي رأسهم عزم خالص على أنهم إذا وقعوا في قبضة السلطات ينبغي ألا يقولوا شيئا، وليست هناك فائدة من نزع ذلك من أفكارهم..

وعلق الفيلسوف الفرنسي (جان بول سارتر) على هذه الفقرة بقوله:

– لعله لم يكن يقصد إلا الشيوعيين، ولكن أتراهم يظنون أن المقاتل في جيش التحرير الوطني هو من غير هذه الطينة؟[1].

---

(1) "عارنا في الجزائر" ص 58.

والواقع أن المقاتل في جيش التحرير الوطني قد صمم منذ 8 أيار سنة 1945 تصميما نهائيا على أن يواجه كل ما يلاقيه في سبيل الوطن من عذاب وقمع بالشجاعة والصبر..

وإذا كان هذا العزم الصادق أبرز مميزات الوطنيين الجزائريين التي نشأوا عليها، فإن مجازر 8 أيار سنة 1945 ضاعفت فيهم العزم، وزادتهم إيماناً بأن الاستعمار لا عهد له ولا وفاء..

ويروي (هنري اليغ) أنه شاهد خلال تعذيبه الكثير من الآلام والإهانات الإنسانية..

وشاهد سجناء يلقي بهم من طابق إلى آخر، وكانوا لشدة التعذيب والألم والضرب لا يعرفون سوى بعض الكلمات باللغة العربية..

ويذكر (هنري اليغ) أنه قابل في معسكر (لودي) صديقه (ديميلي) المستخدم في مستشفى الأمراض النفسية بالبليدة، والذي عذبه المظليون بطريقة تعد إذ ذاك من الطرق المبتكرة.

وهي أن يربطوا الموقوف عارياً فوق كرسي معدني يسري فيه تيار كهربائي حتى يتصلب جميع جسده، ويحس بالتهاب في حلقه، وحر في أحشائه..

وعرف في أروقة السجن (محمد السفطة) قاضي عدل محكمة الجزائر الشرعية، وقال له هذا الأخير:

– لقد أمضيت ثلاثة وأربعين يوماً بين أيدي المظليين... لا تؤاخذني ما زلت أجد صعوبة في الكلام، لقد أحرقوا لساني، وأراه لسانه المقرّح..

واجتمع مع الشاب (بوعلام باحمد) هو من أبناء القصبة – في سيارة السجن التي قادتهم إلى المحكمة العسكرية..

وأراه أيضا آثار جروح طويلة عميقة في بطات رجليه..

وقال له:

– لقد شق المظليون رجلي بواسطة السكاكين، لأني آويت أحد أفراد جبهة التحرير الوطني..

كما رأى في الجناح المخصص للنساء جميلة بوحيرد، ولييت لو، ونسيمة جلال، ومليكة خينة، ولوسي كوسكاس، وكوليت غريغوار، وفتيات كثيرات..

وقال عنهنّ:

– لقد عرين من ثيابهن، وضربن وأُهنّ بواسطة جلادين ساديين... وتعرضن للتعذيب بالماء والكهرباء، وكل واحد هنا يعرف عذاب الفتاة (آنيك كاستيل) التي اغتصبها أحد المظليين[1]...

وبالرغم من الآلام الفظيعة، والمآسي الفاجعة، التي يعانيها المعذبون في ظلمات السجون، فإنهم يظلون دائماً يحتفظون بطاقاتهم المعنوية، حتى في اللحظات الرهيبة التي يواجهون فيها الموت، ولا يتخلون عن بطولتهم مهما كانت الظروف..

فيهتفون بحب وطنهم، ويتغنون بالحرية والاستقلال، ويشنعون بنظام الاستعمار على مرأى ومسمع من الجلادين، ورجال البوليس..

---

(1) "المسألة" ص 20 – 22.

وقد أعجب (هنري اليغ) بهؤلاء الأبطال والبطلات وقال عنهم:

- في هذا السجن الضخم المزدوج، حيث توجد في كل زنزانة منه روح معذبة، أجد أن الحديث عن نفسي هو من قلة الأدب..

ففي الطابق الأول توجد (فرقة) المحكوم عليهم بالإعدام، إنهم هناك ثمانون شخصاً، وقد غلّت كواحل أرجلهم بالأصفاد، ينتظرون إما العفو عنهم وإما نهايتهم..

ونحن جميعا نعيش على نغمهم..

فليس هناك أي سجين لا يتقلب في المساء على فراشه، وهو يفكر بأن الفجر قد يكون مشؤوما، ولا ينام دون أن يتمنى بكل قواه ألا يحدث شيء..

ولكن مع ذلك تتصاعد من ناحيتهم كل يوم الأناشيد الممنوعة، الأناشيد العذبة التي تنطلق من قلوب الشعوب التي تكافح في سبيل حريتها..

ويغمس (هنري اليغ) ريشته في قلبه الجريح، وأنات المعذبين ترن في أذنيه وتبث اللهيب في نفسه، ثم يرفعها لكي يكتب في نهاية قصته هذه الكلمات، التي تثير الرهبة والأسى في النفوس، كما تثير الإعجاب والتقدير..

هذه الكلمات التي يصوغ فيها مشاعره نحو أولئك الأبطال الذين يودعون من يوم لآخر، ليكونوا الوقود للثورة التي لا تنطفئ، ويتقدمون إلى ساحات الإعدام، وعلى شفاههم بسمات الفخر والرضى والاعتزاز، وعلى ألسنتهم أُنشودة الشهداء، أُنشودة التضحية والفداء..

إنني أنهي قصتي، ولكني لم أكتب أبداً قصة بمثل صعوبتها. ربما كان كل ذلك عائداً إلى أنها ما زالت قريبة جداً من ذاكرتي...

وربما أيضاً بسبب التفكير بأن هذا الكابوس الذي عشته، ما يزال يعيشه غيري في نفس الوقت الذي أكتب خلاله هذه القصة، وأنه سيظل ولن ينزاح ما لم تتوقف هذه الحرب الحقيقية.

ولكن كان لا بد من أن أقول لكم كل ما أعرفه، وإني مدين بذلك إلى (المفقودين) وإلى جميع أولئك الذين يُهانون، ويُعذبون، ويُتابعون الكفاح بشجاعة، وإني مدين أيضاً لجميع أولئك الذين يموتون كل يوم في سبيل حرية بلادهم...

لقد كتبت هذه الأسطر، بعد مضي أربعة أشهر على مروري بين أيدي المظليين في الزنزانة رقم 72 من السجن المدني في مدينة الجزائر...

منذ ثلاثة أيام فقط غطى دم ثلاثة من الجزائريين الشبان في باحة السجن، دم الجزائري (فرنان إيفتون) ووسط صيحة الألم الكبرى التي انفجرت من جيمع الزنزانات حين ذهب الجلاد يحضر المحكومين بالإعدام..

كما أنه أثناء الصمت التام الاحتفالي، الذي تلا ذلك، كانت روح الجزائر تنبض، وكانت السماء تمطر قطرات تتعلق لامعة في العتمة على زجاج زنزانتي، وكان الحراس قد أقفلوا كل النوافذ..

ولكننا سمعنا أحد الجزائريين يصيح قبل أن يقطع رأسه:

– تحيا الجزائر.. تحيا الجزائر..

وبصوت واحد حين صعد أول المحكوم عليهم بالإعدام إلى المقصلة، انطلقت من سجن النساء أُنشودة المجاهدين الجزائريين:

من جبالنا طلع صوت الأحرار ينادينا للاستقلال
ينادينا للاستقـــلال لاستقـــلال وطننـا
تضحيتنـــا للوطـــن خيـــر مـــن الحيـــاة
أُضحـــي بحياتـــي وبمـــالي عليـــك
يا بـــلادي يا بـــلادي أنا لا أهـــوى ســـواك
قتل الشـــوق فـــؤادي وتفـــانى في هـــواك
كل يوم فيك ينمـــو حبـــه مثـــل النبـــات
يا ترى يأتيك يـــوم تزدهـــي فيـــه الحيـــاة
نحن سور بك دائـــر وجبـــال راسيـــات
نحن أبنـاء الجزائـــر أهـــل عـــزم وثبـــات
نحن بالأنفس نفـــدي كـــل جـــزء من ثـــراك
إننـــا أشبـــال أُســـد فاصرفينـــا لعـــداك

نماذج إنسانية رائعة

ومات تحت التعذيب عدد لا يُحصى من المناضلين، حاول الجلادون أن ينتزعوا منهم اعترافا، ولكنهم عجزوا عن ذلك وفشلوا، نذكر منهم هؤلاء الأبطال الشهداء: علي بومنجل، عيسات يذير، محمد العربي بن مهيدي، وإذا كان هؤلاء جميعا قد افتكّوا إعجاب الجلادين الفرنسيين بما شاهدوا فيهم من قوة وصلابة وصمود، مما جعل جنود المظلات يندهشون وينبهرون، فإن ما شاهدوه في الشهيد ابن مهيدي يفوق كل تصور حتى أن الكولونيل (بيجار) لم يستطع إلا أن يعترف بالحقيقة فكتب مقالا طويلا

في شكل بلاغ كله تنويه بابن مهيدي، جاء فيه على الأخص: «إن ابن مهيدي يعرف كيف يقهر الألم.. إنه مؤمن بالمقاومة إيمانا أعمى».

وقد أثارت هذه الكلمات عواطف فرنسي حر فتفطر قلبه ندامةً وأسىً وشعر بالضعة والحقارة، وثارت في قلبه دوامات عنيفة من شتى العواطف والمشاعر فكتب يقول:

هناك جندي من جنود المظلات شارك في اغتيال محمد العربي بن مهيدي. ومن ذلك اليوم لم يجرأ هذا الفرنسي على أن يكتب لأمه شعورا منه بالجريمة وتوبيخ الضمير.. وها هو الآن الكولونيل بيجار يعترف علانية أن ابن مهيدي يعرف كيف يقهر الألم..

إن هذا الاعتراف من بيجار شهادة في حق ابن مهيدي لها وزنها..

إنك تعترف يا بيجار بأن محمد العربي بن مهيدي يعرف كيف يقهر الألم فهل نفهم من ذلك أن جنودك كانوا ينبئونك في كل مرة عن مراحل التعذيب والآلام أم مرحلة مرحلة؟

أم هل كنت حاضرا تشاهد بطولة هذا الرجل في مواجهة الألم؟ أم أنك أردت أن تقيس بنفسك أين يقف هذا الصمود، وأين يمكن أن تبلغ قوة بالمبدإ فنزلت إلى الميدان تشارك بنفسك في التعذيب؟

«إن ابن مهيدي يعرف كيف يقهر الألم».

«جملة قصيرة علقت بها يا بيجار على نوع من القتل، اخترت أنت كيفيته إن لم تكن أنت واضع خطته الأول، وها هو اسمك الآن في طريقه إلى الشهرة لكنها شهرة من نوع آخر.. شهرة من نوع لا تُحسد عليه..

- تحدث أحدهم عن التعذيب الوحشي في الجزائر ثم قال: قال لي أحد المعلمين المفرنسين إن ضابطا صديقا له قصّ عليه كل تفاصيل عمليات التعذيب التي يجريها على المشبوهين ثم قال له في نهاية حديثه:

«تستطيع أن تحكي كل ما قلته لك فلا يهمني، إني سوف أقسم بالإنجيل إن ذلك غير صحيح لأني دائما آخذ احتياطي فلا أجري عملية من عمليات التعذيب إلا بعد أن أتأكد أنه ليس هناك شهود» (المجاهد ع 75 - 22 أوت 1960).

كتب جندي رسالة يقول فيها: أثناء المساء أستدعي مسؤول الجندرمة جنودا من الذين كانوا بالبرج لمشاهدة إحدى عمليات التعذيب والاستجواب. وكان الجندرمة يعذبون إثنين من العرب ألقي عليهما القبض في ذلك المساء.

أما عملية التعذيب فكانت على نوعين: النوع الأول هو تجريدهما من ملابسهما كلها وغل أيديهما بالأغلال وراء الظهر ثم وضع رأسيهما في مرجل من الماء لمدة طويلة لإرغامهما على الكلام.

وأما النوع الثاني فقد كان هذه المرة تعليق كل واحد منهما بطريقة فظيعة ثم إشباعهما ضربا باللكمات.

الشيء الوحيد الذي قاله أحدهما عندما وجد نفسه عارياً أمام الجنود: «أنا في حياء وخجل لوجودي عارياً مجرداً من ملابسي أمامكم». وعندما عجز الجندرمة على إرغامهما على الكلام رغم أساليبهم الوحشية، قالوا فلنترك هذا إلى وقت آخر.

(ضد التعذيب - سيمون 77).

هذه أمثلة نعتقد أنها كافية للدلالة على مدى ما وصل إليه الجندرمة والبوليس الفرنسي من طغيان وظلم. وهذا ضابط من الفرقة العاشرة يكتب في رسالة بتاريخ 6 يونيو 1956م.

«لم يصبني ملل من الحياة مثل ما أصابني في الجزائر، فإن الألمان النازيين في وحشيتهم القاسية ليسوا إلا أطفالا صغاراً أمامنا، رأيت بعيني إجراءات المكتب الثاني لجنود المظلات الذي كان يعذب الوطنيين طول اليوم بأبشع الوسائل لإرغامهم على الكلام، وذلك بوضع ماسورة في فم الوطني تحت ضغط الماء حتى يخرج الماء من جميع منافذ الجسم، والأيدي مكتوفة وراء الظهر، ثم يعلق من رأسه حتى تخرج المفاصل عن مواضعها فحينذاك ينهال عليه جنود المظلات ضرباً لا هوادة فيه ولا رحمة، ثم بعد ذلك إن لم يقر بشيء يرضيهم يقومون عندئذ بأشد الأعمال فظاعة، ألا وهي الكهرباء في رأسه ورجليه حتى يكاد يموت وأخيرا ضربه بالخنجر بين الكتفين. (ضد التعذيب – ب. هـ. سيمون 78).

وآخر يحكي كيف رأى ضباطا لم يمر عليهم كثير وقت حتى أصبحوا مهرة في فن التعذيب دون ما شفقة أو رحمة:

«رأيت ضباطا يقومون على التعذيب بقلوب قاسية خالية من أدنى شعور، ولكثرة احترافهم للتعذيب أصبحوا اختصاصيين فيه، وبعضهم سبق له أن زاول هذه المهنة في كوريا.

وهذا الذي أصبح قائداً لفرقة، قد اتخذت من أحد الجبال مركزاً قد اختص نفسه باستجواب وتعذيب الوطنيين الجزائريين المشبوهين

وكان الجندرمة يشجعونه على ذلك فلا يكادون يشتبهون في أحد من الوطنيين حتى ينقضوا عليه كالوحوش الضارية وأن أيدي البعض منهم قد انتفخت من كثرة الضرب وما إن سنحت لهم الفرصة حتى أعادوا أعمالهم الإجرامية، ومن المدهش أن في بلدة الشريعة حوضا خصصته فرقة (جـ. م. ب. ر.) كانت تلقي بالمشبوهين في هذا الحوض ثم تجرى عليهم عملية الكهرباء...

ومن الذي لا يندهش من قلع الأظافر والنفخ بالماء؟ ومن الذي يجهل أن في مركز البوليس بتبسة حجرة مظلمة للاستجواب حل محل طلائها دم الأبرياء؟» (مجلة أسبري، أبريل سنة 1957 ص 581).

«إن رجال التعذيب تتحجر قلوبهم في كل وقت، ويخلو ضميرهم من الشعور الإنساني، والدليل على هذا هو ما كتبه أحد الضباط في مذكرته اليومية بتاريخ 8 مارس سنة 1956، قال: في مساء هذا اليوم قام الجنود ومعهم ملازم بتعذيب المساجين فصفعوهم بالأيدي وضربوهم بالعصي على ظهورهم وبالأرجل تحت بطونهم وألزموهم بابتلاع الماء بالقوة وعلقوهم من أيديهم وحتى من أرجلهم ثم أخذوا في الاستعراض أمام هذا المنظر متلذذين بسماع صياح الضحايا. ويظهر أن هؤلاء المساجين اعترفوا بأشياء لا بأس بها». (ضد التعذيب. ب. هـ. سيمون ص 81).

وجاء في نفس الكتاب صفحة 82 لأحد أعيان مدينة قسنطينة كان مقبوضاً عليه من طرف الجيش:

«أخذوني بعد القبض عليّ إلى (ك) وفي صباح يوم السبت، الساعة العاشرة أخذوا يستنطقونني بحضور كولونيل وكومندان وإثنين من

الضباط برتبة كابتان واستمر الاستنطاق 57 ساعة، وكان الكومندان هو المشرف عليه فتلقيت من أنواع العذاب ما يأتي:

– الكهرباء على الأصابع وفوق الأذنين.

– المرور بحوض الماء.

– الضرب بالسياط على الأماكن الحساسة من الجسد!

وإليكم ما كتبه شاهد عيان:

«استنطق الجنود أحد المتهمين (مشبوه فيه) يوم 7 يوليو وأرغموه على النطق بكلمة (تحي فرنسا) وصاح: تحي فرنسا مرة وثانية وثالثة وأخيراً أجبروه على أن ينادي: لتحي البطاطس المقلية، وبما أنه لا يتكلم الفرنسية عجز عن تكرار هاته الألفاظ فقتلوه.

وعلى بعد مائة كيلومتر من مدينة قسنطينة أسست إحدى القرى في شهر سبتمبر إدارة للاستعلامات ومكتبين إضافيين خصص أحدهما لبحث الاستعلامات والآخر للاستنطاق والتعذيب بآلة المانيطو (المولد الكهربائي) والأنبوبة والتغريق التي كثيراً ما أودت بحياة المتهمين.

والمؤكد هو أن بعض الوحدات كونت إدارات للاستعلامات وجلبت لها بعض الاختصاصيين في الاستنطاق، والخطر الفادح أنها تسببت في الإهلاك السريع للكثيرين من المستنطقين المشبوه فيهم» (المجندون ص 32).

وختاما تفيدنا الرسالة الأخيرة بأن الجلادين يلتجئون على العموم زيادة على التعذيب الجسماني – إلى التعذيب بالجوع والعطش.

قال كاتبها:

«استيقظت في مساء التاسع من مارس سنة 1956: – فرأيت (ط) يتجه نحو السجن ومعه خبز ثم خرج على الأثر يبحث عن الماء فتسللت إلى الكوخ الذي اتخذ منه سجناً لهؤلاء البؤساء حيث وجدت عربياً لم يبق فيه شيء من سمة الآدميين. وجدته يجلس القرفصاء ونصف جسده عار وهو موثوق من رجليه ويداه مشدودتان وراء ظهره، ووجهه مسود مما لصق به من التراب، ودمه قد تجمد وبساقيه خطوط زرقاء. أخذ هذا الرجل ينهش الخبز نهشاً، ذلك الخبز الذي وضعه (ط) في فمه ثم ارتمى على الماء لأنه لم يأكل ولم يشرب مدة ثلاثة أيام كما قال (ط)... ثم طلب مني الرجل باللغة العربية أن أناوله سرواله إذ لم يكن يلبس سوى معطف فقط وقد حاولت أن آخذ له صورة ولكن اثنين من الجيش منعاني ووبخاني كما منعا (ط) من إعطاء الماء والخبز للأسير قائلين: من أجل هذا تهدمون كل شيء، اتركا المكان». (المجندون ص26).

وقد تأكدت من صحة هذه الشهادة بما كتبه أحد الجنود في مذكرته التي نشرت في كتاب (المجندون يؤدون الشهادة: ص 26، 27).

«11 مارس سنة 1956... عندي بعض التفاصيل عن العملية الشهيرة التي وقعت في ليلة أخرى، فقد حاول جندي أن يستنطق النساء مهدداً لهن بذبح طفل صغير عمره خمسة أعوام. وعندما كانت عملية التعذيب تجري مع قائد من الثوار، ترك الجند باب الغرفة مفتوحاً لتشاهد النساء من خلاله كل ما يجري.

إن هذه الطريقة من التعذيب هي ربط الإنسان حتى يصير شبيها بزناد البندقية ثم يضعون عصا تحت ركبتيه ويرفعونه أو يتركونه على ظهره وهناك أحواض الماء للخنق، وهناك الطريقة العادية، التي هي الجوع والعطش.

دخلت في إحدى الأيام إلى المطبخ أبحث عن أكل أقدمه لسجين كان غير معتنًى به ترك قابعاً تحت خيمة منعزلة عن غيرها. فناولني القائم بالمطبخ بعض العجين المطبوخ ولما طلبت منه قطعة لحم أجاب بالرفض، وقال إن في هذا ما يكفي لسد الرمق إنها أوامر، فذهبت لآخذ الخبز من المخزن.

لقد تجمدت رجلا هذا السجين منذ 8 أيام. وفي إحدى الليالي تشددت الأغلال التي وثقت بها رجلاه تحت تأثير البرد، فما أصبح الصباح حتى انعدمت الحركة في رجليه. رأيته على هذه الحالة... جروح عديدة، حمورة، انقشار بالجلد، سواد في الأذنين، كل هذا جعل الطبيب عاجزاً عن معالجته كما جعل القروح آخذةً في الانتشار، فلماذا لم يأخذوه إلى مدينة خنشلة لإسعافه؟» (المجندون ص 27).

في القسم الأول من هذا الفصل الخاص بذكر أعمال (القسوة ضد الإنسان) لم نذكر سوى التعذيب الذي عبرنا عنه بالعادي والمعروف بصفة عامة.

إلا أن هناك ما هو أشنع وأفظع وهو ما يستعمل غالباً أثناء الاستنطاق، فهناك التعذيب بالماسورة المائية التي يذكرها هذا المجند:

«رأيت بالمكتب الثاني لجنود المظلات نوعاً من التعذيب يستغرق كامل اليوم في سبيل الحصول على الاعترافات بوضع الأنبوبة (الماسورة) بالفم والضغط على الماء حتى يندفع بقسوة في جوف الإنسان كي يخرج من جميع المنافس. وشد الأيدي وراء الظهر والتعليق من الأيدي كي تصبح جميع المفاصل ظاهرة ثم ينهال الضرب.

وزيادة على هذا تستعمل آلة المانيطو (المولد الكهربائي) وجه منها موجه للعمود الفقري، والوجه الآخر للرأس، فتأخذ هذه الآلة في إعطاء تياراتها الكهربائية إلى أن تفرغ، ثم يأتون بسكين يطعنون به بين الكتفين. كل هذه الأعمال أثّرت في نفوس جنود المكتب الثاني فأصبحنا ساخطين عليها حتى إذا وكل لواحد منا أن يقوم باستنطاق الأسير لم يقع شيء من حسن الظن يشابه الفظائع التي ذكرناها. وإني لأتمنى أن لا يحدثونا عن سياسة التهدئة ونحن نشاهد الجبال على طولها والقرى تتصاعد منها النيران، والتنكيل الشديد يجري على أشده بسكانها. وهل تكون لهم الشجاعة على الأقل حتى يعترفوا بما نتصف به من وحشية وإجرام؟» (المجندون ص 58).

وهناك شيء آخر كوسيلة للتعذيب بواسطة الكهرباء يسمى التعذيب (بالتليفون) إن المجندين لا يختلفون حول هذه النقطة.

«في قرية (قنطيس) كان أربعة من الجندرمة منضمين إلينا في فرقة الحرس ويسكنون كوخاً بمزرعة قديمة يستنطقون فيه المشبوهين الذين يصطادونهم من الجبال.

وبعد أيام قلائل من وصولنا جاء أحد الجندرمة وطلب من عامل كهربائي في الشركة قطعتين من سلك الكهرباء لكن العامل ألحّ في أن يقوم هو بنفسه بإصلاح ما فسد، ولما مانع الجندرمي صحبه لحضور الاستنطاق، فرجع مندهشاً مما شهد: لقد أضجعوا المتهم فوق مائدة وشدوه بالسلاسل الملفوفة بقطع من الكتان مبللة كانوا يلصقون بها آلة الكهرباء، ويدير أحد الجندرمة قرص التليفون فتنطلق القوى الكهربائية، وكلما زادت قوتها زادت آلام التعذيب، ويكثر الصراخ والاستعانة. ثم يفقد المعذب كل أمل في الحياة، كل هذا العذاب والجندرمي يصيح: تكلم يا قذر.. تكلم يا قذر.. (مجلة أسبري شهر أبريل 1957).

«أصبح الجيش يحسد الجندرمي على أعماله فأخذ يقلده بل ويتعداه. وهذه أمثلة منها: – في مساء الأمس التجأ إلى المحاسب الأول لفرقة الطيارين الذين تجندوا معنا (– في ن – وأقيم بـ (ب – وضابطهم – م –): استيقظ في ليلة منزعجا من أصوات هلعة تشق عنان السماء، فقام يبحث عن مصدر هذه الأصوات، فوقع في مكتب الملازم للاستعلامات بالناحية المضافة. فوجده على سريره مضطجعاً، وجاعلاً مؤخر رأسه بين كفيه يستنطق عربياً وضع في بيت مملوء بقطع من أسلاك الكهرباء وآلة المانيطو في أسفل البطن وفوق الرأس، وهو يصيح. فتقدم (م) من الملازم وأمره بالكف حينا، فأجاب الملازم بأني لا أتلقى الأمر إلا من ضابط الفرقة.

(الجريدة الرسمية للرديف – ضد التعذيب ب. هـ. سيمون ص 105).

لا أستطيع أن أصدق ما أرى – لقد أخبروني الآن أن المشبوه فيهم الذين ألقينا القبض عليهم أمس هم محجوزون في (أ – أ – 8) ومعناها إرسال التيار الكهربائي فوق الأعضاء التناسلية.

يجب علينا أن نصرخ صرخة قوية مدوية في وجه العالم لكي يستفيق من نعاسه. ما نحن إلا من جماعة (الكتائب الخاصة) الهتلرية. وأن يدي لترتعد من هول ما أرى خجلا، ولا أكاد أصدق ما أرى. فكيف أتمكن يا ترى من إعلام الرأي العام الفرنسي بحقيقة هذه الأحوال التي تتكرر وتتجدد؟

إنني إن رفعت بهذه الفظائع تقارير للجهات الرسمية فإن تلك التقارير ستوقف في الطريق ولن تكون لها من نتيجة إلا.. إزالتي من الطريق، إن كل شيء أسود حالك السواد حولي، وإياك أن تستمع لصوت الصداقة بل عليك أن تستمع لصوت العدل. وإذا كنت ترى أنه يجب عليّ أن أستمر على هذه الحالة فمكره أخاك لا بطل. كلا إني سأصرخ بالحقيقة في وجه الضباط وسأقول لهم كم أنا ثائر ضد هذه الأعمال، وسأحاول فتح أعين الناس كي يروا الحقائق. (عن كتاب المجندون يؤدون الشهادة ص 74).

في عشية السادس والعشرين من هذا الشهر جاءتنا دورية بأربعة من المشبوه في أمرهم، ولقد مرّ اثنان منهم على غرفة المولد الكهربائي فكنا طوال الليل نسمع صراخ الألم والاستغاثة يصدر منهم، وهذه أول مرة تعمد فيها فرقتنا لاستعمال التعذيب كوسيلة للاستنطاق.

ولقد حكى لي (ل...) قائلا إنه حضر في قرية (هـ...) منذ أيام عدة عمليات تعذيب كهذه: فالعملية عبارة عن وضع سلك كهربائي في خصية

الرجل ووضع السلك الآخر في أذنه ثم يقع إطلاق التيار الكهربائي على الرجل. وقال لي (ل ...) إن هذه العملية كانت تقع بحضور زوجة المشبوه فيه. (عن كتاب ضد التعذيب ص 80).

جاء فرقتنا أحد التراجمة وقصّ علينا قصة استنطاق وقعت أمامه في قرية بئر غبالو – وهي العملية التقليدية: السلك الكهربائي في أعضاء التناسل، وإذا لم يجد ذلك نفعاً انهالوا على المشبوه فيه ضربا بالكرباج. لقد أرانا الترجمان عدداً من الصور الفوتوغرافية لجماعة من العرب وقد مزقت جلود وجوههم من آثار الضرب، وتورم لحمهم من التعذيب، فيالها من (تهدئة) جميلة! (عن كراس الشهادات المسيحية ملف جون موليرص 11).

على أن هذه الوسائل الوحشية السافلة لم تقتصر على الرجال فحسب بل تستعمل أيضا ضد الصبيان. فهنالك مذكرات لتسجيل أعمال فرقة عسكرية وقع ضبطها وهي تحمل تاريخ يوم 28 يناير 1956 تقص علينا من أنباء هذه العمليات قصصاً تقشعر لهولها الأبدان.

إن صياح الخنزير الذي كانوا يذبحونه بالأمس في الساعة التاسعة ليلا لم يكن في الحقيقة إلا صراخ صبي كانوا يعذبونه. لقد استعملوا معه وسيلة السلك الكهربائي، الموجب بالخصيتين والسالب في الأذن، لكنهم استبدلوا هذه المرة الخصيتين باليد ولقد قيل إن الصبي اعترف بأنه ذهب لأربعة رجال مسلحين يعلمهم بمرور فرقة فرنسية في المكان. هذا ما أعلمني به اليوزباشى (س...) ووجهه يتهلل بشراً.

أما بالأمس فقد سمعت عواءً حسبته أول الأمر عواء ذئاب عابرة لكن ذلك العواء استمر وزاد، فرابني الأمر وخرجت وأنا أرتدي البيجاما،

فأيقنت أن تلك الأصوات المنكرة كانت تصدر عن خيمة قائد الفرقة ففهمت حقيقة الأمرلكنني قلت في نفسي: يستحيل أن يستعملوا وسيلة الكهرباء مع الصبي ولا ريب أنهم يحاولون الآن انتزاع اعتراف من الشيخ الذي يصحبه، ورجعت إلى خيمتي وقد امتلأ قلبي غضبا وألماً وأخذت أفكر في غير وعي في أمر الصبي الذي سجنوه طيلة الليل السالف في آخر سيارة الجيب، وتخيلته شارد الذهن، بادي الروع، وهو يشاهد عن كثب تعذيب الشيخ، لكن قلبي كاد يتحطم صبيحة اليوم عندما علمت بأن عملية التعذيب كانت تقع على الصبي نفسه لا على الشيخ. ولم أكن مستطيعاً أن أذهب للصبي وأن أحادثه فهو لا يفهم الفرنسية، ولكنني عملت عملا آخر فقد ذهبت للصبي المعذب، وأخذت له عدة صور بليغة يجب أن يراها الرفقاء في فرنسا. وما كدت أصل حتى رأيت (س.) يخرج من المكان – مكان التعذيب– فكاد قلبي يصعد إلى فمي ولا أدري كيف تمالكت نفسي فلم أبصق على وجهه.

يا له من وحش ! إن قلبه أصبح مصفحاً من كثرة ما رأى من عمليات التعذيب، وما سمع من أصوات المعذبين. إنه ضابط التحريات وهو من الأشداء». (من كتاب المجندون يؤدون الشهادة ص 21).

على أن المشبوه فيهم لا يقاسون عذاب السلك الكهربائي وحده، بل هنالك بعد عذاب السلك عدة أنواع من أعمال التعذيب الفظيعة قد عددها جون مولير في: (كراس الشهادات المسيحية ص 18) فقال:

«يجب أن أحدثكم طويلا عن عمليات التعذيب، إنها تقوم بها فرقة خاصة من المجندين تحت قيادة عشرة من الضباط وأربعة من أنصاف

الضباط، ويقولون أن التعذيب هو الوسيلة الوحيدة لمعرفة الحقيقة. وفي قرية تابلاط، يوجد نحو 150 من المشبوه في أمرهم يجتازون هذا الامتحان الرهيب، والعمليات تتلخص فيما يلي:

– تسليط التيار الكهربائي على الخصيتين والأذن.

– عرض المشبوه في أمره للشمس وهو موضوع في قفص.

– وضع المشبوه في أمره على عصا ورفعه فوق فرس وهو مكتوف اليدين والرجلين.

– الضرب المبرح بالكرباج.

– وضع يد الإنسان خلف الباب ثم إيصاد الباب عليها والضغط بشدة.

ولقد قبض على رجل وقرروا إرساله للجزائر لكنه قضى طول الليلة بتابلاط وقد أوثقوا أكتافه وربطوا رجليه إلى شجرة وأسندوا ظهره على أسلاك شائكة وسقوه كمية من مياه الغسيل القذرة.

ثم إن اثنين من أعز أصدقائي قد بعثا في سرية وشاهدا كولونيل الفرقة 4 (أ. ر. س. ب) وشاهدا إلى جانبه اثنين من قادتنا وهم يستنطقون جماعة من العرب جاءت بهم جماعة من جنود المظلات وقالوا عنهم إنهم من المشبوه في أمرهم وابتدأت عملية التعذيب هكذا:

وضع السلك الكهربائي في المكانين المعلومين، وزادوا هذه المرة تضميخ الجسم بالماء لكي يفعل التيار الكهربائي مفعوله بصفة أحسن.

ثم إدخال سكين في جسم المشتبه في أمره شيئا فشيئا.

وقد شاهدت أحد هؤلاء المعذبين وقد صبغته الدماء ملقى على الأرض يوماً كاملاً وليلة كاملة.

كما شاهدت أحد هؤلاء التعساء مشدوداً إلى طائرة هليكوبتر ثم ألقت به على ارتفاع نحو مائتي متر.

أما جميع المشبوه في أمرهم الذين وقع تعذيبهم بهذه الصفة فقد سلموا لجماعة جنود المظلات ووقع الإجهاز عليهم حالاً.

فما أبعدنا عن عمليات التهدئة التي قالوا إنهم أتوا بنا إلى هنا من أجلها. إن قلوبنا لتكاد تنفجر ونحن نرى هذا الدرك الأسفل الذي انحدرت إليه الطبيعة البشرية، ويكاد يعترينا اليأس والقنوط عندما نرى جماعة من الفرنسيين يتصدون لارتكاب نفس الأسلوب الفظيع، الذي كان النازيون يستعملونه بوحشية وقسوة. على أن القوم لم يكتفوا بهذه الأعمال بل إن غمرة من الشر قد غمرتهم فأصبحوا يريدون الشر من أجل الشر، فيزيدون على أعمال الفظاعة أعمالا هي الهول بعينه.

وليعتبر القارئ بهذه الحوادث التي يرويها أصحابها:

(أ) «أذكر أن رجال فرقتنا جاءوا لقائدهم برجلين من العرب وجدوهما في المزارع وقرر القائد أنهما من المشبوه في أمرهم ولم أدر لقراره هذا من سبب، وأخذ القوم يباشرون (العملية) فوراً ، إنهم لم ينتظروا تهيئة المولد الكهربائي فانهالت أيدي رجال الفرقة ذات الخواتم الغليظة وانهالت السواعد المفتولة، وانهالت الأرجل التي تحمل الأحذية ذات المسامير، انهالت كلها دفعة واحدة على وجهي الرجلين وعلى بطنيهما وعلى معدتيهما وكبديهما.

واستمر هذا العمل إلى أن تخضبت الأرض بما برز منهما وبما سال من جسديهما وأرغما عندئذ على الانحاء، ولحس ما لصق بالأرض من ذلك،

ثم وهما على هذه الحالة انهالت على وجهيهما ضربات الأرجل ذات الأحذية المصفحة، كل ذلك لم يكن كافيا، فأرغما على نقل حجارة ضخمة من مكان، إلى مكان لا لسبب إلا لزيادة رشح الدماء التي كانت تسيل من جسميهما، ثم جاء الليل فأطلق سراحهما.

إن شعب الجزائر قد خسر ما كان له من ثقة في حريتنا المزعومة وفي وعودنا الكاذبة. (عن مجلة أسبري «الفكر» أبريل 1957 ص 582).

(ب) قد ابتدأت عملية اتساع التعذيب عند القائد الكابتان، فقد ابتدأ الاستنطاق هادئا، ثم أخذ في استعمال الضرب باليد وبشدة تفكك معها كفه، فأخذ يستعمل للضرب عصا غليظة، وإذ لم تنفع تلك العملية أخذ المشتبه في أمره إلى مكان الدش أو رشاش الماء، وهنالك مكان التعذيب الحقيقي، المولد الكهربائي، وملء البطن بالماء... إلخ. وتستعمل أثناء تلك العمليات عمليات أخرى ثانوية، مثل: قلع الأظافر ووضع الملح مكان الظفر المقلوع، ووخز كل أجزاء الجسم بواسطة الإبر، وإحراق أجزاء من جسم المشبوه فيه ثم تضميخها بالماء، وتمزيق أجزاء صغيرة من الجلد بواسطة ملقاط الشعر، ولقد ربطوا أيدي مشبوه في أمره إلى رجليه على طريقة تدعى (الضفدعية) ثم شدوه إلى السقف وهو على تلك الحالة عاري الجسم تماما، وبقي كذلك ليلة كاملة وهم يتعهدونه بتسليط الماء عليه إلى أن يتجمد من شدة البرد، وبين حين وآخر يأتيه المستنطق ليحاول انتزاع اعتراف منه دون جدوى، ومات الرجل وهو معلق على تلك الحالة.

وهنالك حادث آخر أقص عليكم قصته، وقد وقع لعامر بن الطيب وهو شيخ طريقة بقرية (ب..) لقد استمروا في تعذيبه ثمانية ليال كاملة، وتستمر أعمال التعذيب كل ليلة إلى أن يشرف على الموت، فيردونه إلى الحياة بواسطة حقن ليعودوا لأعمال التعذيب مرة أخرى، وهكذا إلى أن أصبح الرجل عبارة عن عجينة رخوة، وأصاب التعفن أجزاء من جسده فاضطروا عندها للإجهاز عليه، ولم يقل أثناء هذه العمليات الفظيعة أدنى كلمة». (عن كتاب المجندون يؤدون الشهادة ص 87).

«25 سبتمبر 1956 – أنا الآن مع قبطان قد سقطت بينه وبيني التكاليف، إنه يباشر عمليات التعذيب بنفسه بعد ارتداء ثياب الألعاب الرياضية، ولقد رأيته مرة يشتغل 6 ساعات كاملة مع اثنين فقط من المشبوه في أمرهم، أما الأول منهما فقد ابتدأت معه عملية الضرب لمدة 20 دقيقة ثم ابتدأت عملية تعمير البطن بالماء إلى أن تنفجر المعدة. ثم الضغط بواسطة اليد على جزء حساس جدا بالجسم (ويقولون إن هذه العملية ناجحة جدا) ثم الضرب المبرح على الوجه إلى أن يتورم وتتغير كل ملامحه.

أما المشبوه الثاني فقد قضى كذلك ثلاث ساعات أمام المستنطق وقد اقتلعت أظافر يديه ورجليه واستعمل معه التيار الكهربائي ووسائل تعذيب أخرى فيها تفنن وابتكار، ولقد كان هذا القبطان قد عانى كل ذلك أثناء حرب الفيتنام فهو يعرف جميع الأساليب، ويقال إن لديهم وسائل تعذيب هائلة لا تترك على الجسم أثراً». (عن كتاب المجندون يؤدون الشهادة ص 12).

«لقد كان يوم الأحد الأخير مؤلماً رهيباً، كان العمل فيه هو استنطاق رجل اتهم بأنه من الثائرين، واستمرت العملية من الثامنة صباحاً إلى التاسعة ليلا، وحينما لم تنجح معه أي وسيلة ولم يعترف بشيء أجهز عليه بأن ألقي في حفرة تجمع (الخراء) ولقد تفنن كل رجال فرقتنا المؤلفة من قدماء المحاربين في الهند الصينية، وتفنن هؤلاء الرجال طيلة اليوم في ابتكار وسائل التعذيب، وتمزيق أوصال هذا الرجل، وتسليط العقارب عليه، فلم تترك هنالك من وسيلة أو من مادة إلا واستعملت!.. التيار الكهربائي، والبنزين، والإسمنت، والفلفل الأسمر فوق الجروح وتعمير الرئتين بالماء والضرب على المعدة والوجه والخصيتين بالأحذية ذات المسامير.

ويااللهول.. لقد كنت أستسيغ مرغما استعمال وسائل التعذيب من أجل الحصول على الحقيقة فذلك وباللأسف من الوسائل اللازمة، أما استعمال جسم بشري كوسيلة من وسائل التسلية، والتفنن في ابتكار وسائل التعذيب لمجرد اللهو والعبث فذلك هو الأمر الذي يمزق قلبي ويحطم نفسي، والأدهى من ذلك والأمرّ هو أن الذين يقومون بهذه العملية المنكرة القذرة، إنما هم شبان فرنسا الذين يبلغون من العمر 20 ربيعا والذين يمثلون الشباب الفرنسي كافة، ويا لها من أوصاف وسجايا يتصف بها هذا الشباب وهو يمر بهذه المدرسة.. الدناءة، والنذالة، والخسة، والوحشية، هذه صورة من طرائف التهدئة، وهذا هو مبلغنا من المدنية الرفيعة، وهذا هو فهمنا للشرف». (عن كتاب المجندون يؤدون الشهادة ص 65).

«في قرية الشريعة جاءوا برجل للاستنطاق فنزعوا عنه كل ثيابه بعد أن أوثقوه، ثم ألقوا به على الأرض بعدما ضمخوا كل جسمه بشيء من المعجون السكري (المربى) وبقي كذلك طيلة اليوم معرضاً لشمس شهر يوليو اللاذعة وكانت أسراب الذباب تروح وتغدو حول تلك الفريسة البشرية التي كانت عيناها تعبّران عن جنون الألم، ولقد قال لنا القبطان: إذا لم يعترف بعد ساعة سأطلق عليه سربا من النحل». (عن مجلة أسبري «الفكر» أبريل 1957 ص 581).

«إذا كانت الأعمال السالفة الذكر تتكرر باستمرار فإن العمل الذي سأقصّه عليكم لم يقع إلا بقلة لكنني أريد تسجيله لكي تعلموا إلى أي درجة من الفظاعة والوحشية يستطيع أن يصل بعض الناس.

ففي ما بين يومي 15 و 20 سبتمبر جيء برجل مشتبه في أمره إلى مركز القيادة العامة، في عربة جيب عسكرية، وكان الجنود طيلة الطريق يتبارون في تقطيع أجزاء من جلد ذلك الرجل وتمزيق أجزاء من لحمه». (عن كتاب المجندون يؤدون الشهادة ص 31).

«نحن الآن في وادي الصومام، ولقد أوتي بثلاثة من المشتبه بأمرهم، فأمروهم بحفر حفر ثم دفنوهم فيها إلى العنق وبقيت رؤوسهم معرضة لوهج الشمس، ووضعوا أمام كل منهم وعاء فيه ماء يبعد عن فمهم نحن نصف متر وقيل لهم أنهم لن ينالوا ماءً إلا إذا تكلموا. ولقد بقوا على تلك الحالة يومين كاملين فلم ينبس اثنان منهم ببنت شفة وأعدموهما على تلك الحالة، أما الثالث فقد قال بعض الشيء في آخر الأمر إلا أنه أعدم أيضاً إثر ذلك». (عن كتاب المجندون يؤدون الشهادة ص 32).

لا عجب أن يقضي المعذبون نحبهم في مثل هذه العمليات التعذيبية ولقد كتب أحد المجندين هذه القصة لصديق له في رسالة مؤرخة يوم 17 نوفمبر 1956، وورد ذكرها في كتاب (المجندون يؤدون الشهادة ص 50) قال:

«لقد جاءوا بالمشبوه في أمره وقد فقد كل قواه من أثر أعمال التعذيب التقليدية (الضرب والكهرباء والماء) ثم أجبر على أن يجلس القرفصاء فوق قطع من الخشب وكان ضرب الأرجل التي تحمل الأحذية المسمارية ينهال عليه بشدة، ثم ترك على تلك الحالة طيلة الليل، وإذا ما أغمي عليه وسقط جاءه الحارس وأعاده بعنف إلى جلسته الأولى. ولكنه فقد كل قواه أخيرا وسقط، فجاءوه بطبيب حقنه بمادة الموفين لكن ذلك لم يجد نفعاً ومات الرجل من أثر التعذيب، إنه لم يكن شيخا ولم يكن مريضا بل كان شابا يحترف رياضة الملاكمة (البوكس) وكان يبلغ من العمر 36 سنة، فكيف كانوا يخبرون الرأي العام بموت هؤلاء الذين كان يعرف أمر القبض عليهم؟

إنهم كانوا يدعون في بلاغاتهم الرسمية أن هؤلاء المشبوه في أمرهم قد انتحروا.. وآخر هؤلاء المنتحرين كان العربي ابن المهيدي عضو لجنة التنسيق والتنفيذ بجبهة التحرير الوطني الجزائري وعلي بومنجل المحامي أمام دائرة الاستئناف بالمحكمة الجزائرية.

لقد أحدث هذا (الانتحار) الأخير المزعوم ضجة هائلة وقامت موجة من الاحتجاجات كان أهمها احتجاج الوزير القديم والمدرس المبرز في علم الحقوق الأستاذ روني كابيتان الذي ترك التدريس وغادر مدرجات الجامعة مغاضبا.

ولقد أدلى أحد الأطباء العسكريين بشهادته التي جاء فيها قوله:

لقد ألقي القبض على أحد المسلمين الذي كان يشغل منصب خادم وذلك في أول سبتمبر ووجد ميتا بعد انقضاء 48 ساعة من إلقاء القبض عليه، وادعى البلاغ الرسمي أن الرجل قد انتحر، وهذه هي الوسيلة التقليدية التي تخفي بها البلاغات الرسمية حقيقة القتل وتحاول أن تظهر الحادث كأنه أمر عادي». (عن كتاب المجندون يؤدون الشهادة ص 30).

وهكذا فإن المشتبه فيهم يعمدون بعد تعذيبهم العذاب الفظيع سواء منهم من تكلم أو من لم يتكلم، وإليكم شهادات أخرى مريعة عن إعدام هؤلاء التعساء بعد التعذيب.

«إن كل هؤلاء الرجال وعددهم 32 رجلا قد أعدموا دون محاكمة وبصفة مريعة يوم 28 مارس 1956 فيما بين الظهر والغروب ببادية قرية «أولاد باشيا» وذلك بعد أن عذّبوا العذاب المرير، ولم تعد وجوههم تعرف مما لحقها من التورم والكسر، ولم يكن هؤلاء الرجال قد حملوا السلاح أو شاركوا في الثورة إنما كانوا يعيشون معا في مشاتيهم ويباشرون أعمالهم الفلاحية..». (عن كتاب المجندون يؤدون الشهادة ص 84 – 87).

لقد تعرفت على جماعة من الطلبة الفرنسيين، ولقد كانوا متهيجين إلى درجة قصوى، وكان أحدهم يحدثني بحرارة عن أعماله وكيف أنه استحوذ على مدفعين رشاشين من بلد النمسا، وقصّ عليّ مفاخرا أنه رأى بعينه في جهة بالسترو أحد الضباط يدلي من طائرة هليكوبتر بواسطة حبال بعض المشتبه بأمرهم ويهددهم بإسقاطهم على الأرض

إذا هم لم يتكلموا.. وقد امتنع هؤلاء المشبوهون عن الإدلاء بأي كلمة رغم ذلك التهديد فما كان من القائد إلا أن قطع الحبال وسقط أولئك الناس بمثل هذه الصفة. وقال الضابط بعد ذلك إني أردت أن أعطي درساً صالحاً للسكان العرب». (عن كتاب المجندون يؤدون الشهادة ص 46).

«في العشية ساقوا الرجل إلى الاستنطاق وإنني لم أحضر هذه العملية إلا أنني رأيت الرجل عند الصباح ويا لهول ما رأيت.. كانت أسنانه قد كسرت كلها، وكان خداه قد مزقا، وكان أنفه مهشما، أما عيناه فقد غارتا تحت وقع اللكمات المبرحة، فلم يظهر لها أدنى أثر، وأما شعر رأسه فقد اقتلعت خصلات منه بشدة وعنف فاقتلعت معها قطع من الجلد، وقد كسرت يداه وقطعت أذناه وأحرق بطنه وأحرقت رجلاه بالنار وعلى هذه الحالة قضى كامل الليل، وفي الصباح ربطوه على سرير في غرفة القتل – كأنهم كانوا يخشون أن ينهض وهو على ذلك الحال– ثم حملوه في سيارة خارج المعسكر وأجهزوا عليه». (عن كتاب المجندون يؤدون الشهادة ص 90).

«اليوم الثاني من شهر يونيو، الساعة السادسة، نصب الثائرون كميناً أسفر عن مقتل 14 رجلا من رجالنا وتمكن الثائرون من الفرار فكيف كان جواب القوى المحافظة على الأمن –رداً على هذا الحادث؟ إليك الجواب:

«في صبيحة الغد على الساعة التاسعة أخذ جماعة من رفقاء الجنود المقتولين يجوبون القرى التي تقع حول مكان الحادث ويجمعون ما أمكن لهم جمعه من الرجال فاستحوذوا على 35 رجلا ثم أوقفوا هؤلاء الرجال

المشتبه في أمرهم ستة وراء ستة في مزرعة قمح بين السنابل وبقوا ينتظرون على قارعة الطريق.

وفي هذه الأثناء مرّ بالطريق العام خمسة أو ستة من العمال الفلاحين العرب قاصدين سبيلهم وكانوا يركبون عربة تحمل الحجارة فما كان من جنودنا إلا أن ألقوا القبض عليهم جميعاً، وأوقفوهم مع الموقوفين الآخرين بين سنابل القمح، وذلك رغم توسلات زوجة المقاول صاحب العربة وهي فرنسية، وتأكيدها بأن هؤلاء العمال أبرياء وأنهم يعملون مع زوجها المقاول.

بقيت أنظر ساعة كاملة مدى ما قاساه هؤلاء الناس من ضرب مبرح بالأرجل، وبمؤخر البنادق على البطون والضلوع والوجوه. وسقط رجل منهم وقد أغمي عليه من شدة العذاب، فصبوا عليه وعاء ماء وانهالوا عليه بضرب الكرباج لكي ينهض من جديد ليتلقى من جديد ضرباتهم. لكن البعض منهم سقط أثر ذلك ولم تنفع أية وسيلة لإنهاضه وهكذا مات ثلاثة فوراً من أثر العذاب، أما الباقون فقد تبيّن بصفة واضحة أنهم أعدموا تلك العشية، بما كان فيهم من نساء وصبيان، وكانت البيانات التي وقع الحصول عليها بعد ذلك تؤيد هذا الأمر». (عن كتاب المجندون يؤدون الشهادة ص 68).

وقال أحد الشهود الذين أدلوا بشهادتهم في هذا الكتاب:

«إنه بينما تجري أعمال التعذيب الفظيعة على هذه الصفة يقع توزيع بنات المشبوه في أمرهم على حثالة الجنود للاستمتاع بهن».

ويقول مبينا ذلك في الصفحة 34 من الكتاب المذكور:

«لقد ألقي القبض في المشتى وهو لا يزال مسكونا على بنتين لرجل غائب ومعروف بانتمائه لجبهة التحرير الوطني الجزائري، وقد سار الجند بالبنتين وسن أولاهما 18 سنة والثانية 16 سنة وسلماهما لفرقة من جند اللفيف الأجنبي فقضى الجند ليلة في الاستمتاع بهما وبادرا بإعدامهما عندما جاء الصباح».

وجاء في الصفحة 82 من الكتاب:

«إن عامل العمالة قد أصدر أمره بإتلاف هذه القرية وإعدام سكانها، إلا أن القائد العسكري أصدر أمره بإخلاء القرية من سكانها قبل تسليط المدافع عليها وإتلافها، ولقد وقعت أثناء عملية إخلاء القرية عمليات اغتصاب شنيعة ذهب ضحيتها عدد من البنات الأبكار وكانت هذه الفرقة قد اشتهرت شهرة ذائعة بمثل هذه الأعمال يتقدمها في ذلك قائدها».

– تحدث أحد القساوسة وقال:

إني أقدر عدد الذين ماتوا من جراء التعذيب في الدائرة التي يشملها وعظي فقط بألف شخص على أقل تقدير.

وأكد أن الأشخاص الذين كانوا في حالة سيئة من جراء التعذيب ثم يرجعهم الجيش إلى عائلاتهم وقال أنهم فُقدوا، والواقع أن جثثهم موجودة في قعر البحر قرب العاصمة (المجاهد ع 75 – 22 أوت 1960) في (ميمونة) غير بعيد من (بوسعادة).

- وتحدث أحد المجاهدين عما وقع بعد كمين محكم، من التعذيب الوحشي الفظيع الذي سلّطه الجلادون الفرنسيون على البدو الرحّل، في قبيلة (أولاد سليمان)، وقال:

جمعوا الرجال الموجودين في الخيام وكانوا (19) رجلا بينهم شيوخ عجز لا يستطيعون رفع أيديهم في الهواء، وطفلان عمرهما (14) و(15) سنة، فانهالوا عليهم ضربا بمقدم بنادقهم، ثم أجبروهم أن يتجردوا من جميع ثيابهم، ويبيتوا عراةً في الليل، والبرد قارس، وفي الصباح ساقوهم إلى المركز العسكري (دوبان) وهناك سلطوا عليهم أنواعا مختلفة من التعذيب التقليدي، من كهرباء وماء مضغوط، وجلد وضرب، ثم أجبروا أفرادا منهم على ارتداء الملابس العسكرية حتى يظهروا بمظهر جنود جيش التحرير الوطني وعينوا أقواهم بنية بأنه رئيسهم، ثم أمروهم أن يرفعوا أيديهم وأخذت لهم صور على هذا الوضع، ثم أخذوهم وطافوا بهم على سكان القرية، وفي المساء قيدوا أيديهم وأرجلهم في ساحة «مركز دومان» العسكري، وأفرغوا في رؤوسهم رصاص رشاشاتهم ثم رموا بهم في حفرة مليئة بالماء (المجاهد ع 37 - 1959/2/25).

- وروى أحد المناضلين لصحيفة المجاهد، وقد وقع في الأسر بعد أن أصيب بجروح وذاق تعذيبا وحشيا على أيدي الجلادين الفرنسيين، وقال: بدأ استنطاقنا في اليوم الثالث في مركز المخابرات العسكرية وعذبنا بأبشع أنواع التعذيب، فكان أحد الجنود الفرنسيين

يلوي بقوة ساقي المصابة بالشظايا والرصاص، ويقول لي هازئا: هل تؤلمك؟ ثم يطلق ضحكة مدوية، وكان الجنود الآخرون يفركون أذني بقوة، ثم مارسوا معي عملية ملء البطن بالماء عن طريق أنابيب المطاط مع سد كل منافذ جسمي، وحين امتلأ بطني بالماء وضعوا علىّ لوحة وأخذوا يلعبون الأرجوحة فوق بطني، ويضحكون ويلقون النكت والتعاليق الساخرة، كما مارسوا عمليات أخرى أشرفت خلالها مرات على الهلاك.

وأضاف يقول:

كانوا يأتون بالمناضلين وكل من يشكون فيهم فيعذبونهم بنار الشاليمو حتى يتساقط منهم الجلد واللحم والعظم وهم أحياء، وأسعدهم من يسرع الموت إلى اختطاف روحه في لحظات قصيرة حتى لا يطول به العذاب المحيق.

ومنهم من يخرجونهم من زنزاناتهم في الليل ثم يطلقون عليهم الكلاب البوليسية فتتجمع عدة كلاب على كل شخص تنهشه من كل جهة في جميع جسمه، وكنا نسمع صراخ المعذبين الذي يفري نياط القلوب، ويرنق صفو الحياة.

ويواصل المناضل حديثه ويقول:

ثم نقلونا إلى مركز الشرطة حيث بقينا أربعة أيام بلا طعام وكان قبلنا فيه إخوان قضوا أسبوعا كاملا بدون طعام ولا شراب ثم رمونا في السجن المركزي لمدينة خنشلة، وقضينا فيه أياما ثم نقلونا إلى سجن

باتنة. وقد تركونا مدة في الساحة، لحراس يبلغ عددهم ثلاثين شخصا وبيد كل أحد منهم أدوات الضرب المختلفة، من مفاتيح السجن الغليظة، وقضبان الحديد الطويلة، والعصي وأنابيب المطاط، وأخذوا في الضرب، واللكم والرفس، فإذا سقط أحدنا أوقفوه من جديد والدماء تسيل. أما ما وقع بعد ذلك من أنواع التعذيب بالدوش، والملاقط، والكهرباء، فشيء لا أفظع منه ولا أقسى، وعرضه لا يتسع له إلا كتاب ضخم (المجاهد، ع 58 – 28/12/1959 بتصرف قليل واختصار).

لم يصبني ملل من الحياة مثل ما أصابني في الجزائر، فإن الألمان النازيين في وحشيتهم القاسية ليسوا إلا أطفالا صغارا أمامنا: ورأيت بعيني إجراءات المكتب الثاني لجنود المظلات الذي كان يعذب الوطنيين طول اليوم بأبشع الوسائل لإرغامهم على الكلام وذلك بوضع ماسورة في فم الوطني تحت ضغط الماء حتى يخرج الماء من جميع منافذ الجسم، والأيدي مكتوفة وراء الظهر، ثم يعلق من رأسه حتى تخرج المفاصل عن مواضعها، فحينذاك ينهال عليه جنود المظلات ضربا لا هوادة فيه، ولا رحمة، ثم بعد ذلك إن لم يقر بشيء يرضيهم، يقومون عندئذ بأشد الأعمال فظاعة، ألا وهي الكهرباء في رأسه ورجليه حتى يكاد يموت وأخيرا ضربه بالخنجر بين كتفيه! (ضد التعذيب ب هـ. سيمون. ص87).

ويشهد جندي في كتاب «المجندون يؤدون الشهادة» ص، 34، إنه بينما تجري أعمال التعذيب الفظيعة على صور رهيبة مريعة يقع توزيع بنات المشبوه في أمرهم على حثالة الجنود للاستمتاع بهن ويقول: لقد

ألقي القبض في المشتى، وهو لا يزال مسكونا على بنتين لرجل غائب ومعروف بانتمائه لجبهة التحرير الوطني، وقد سار الجند بالبنتين، وسن أولاهما 18 سنة والثانية 16 سنة، وسلموهن لفرقة من جنود اللفيف الأجنبي فقضى الجند ليلة في الاستمتاع بهما، وبادروا بإعدامهما عندما جاء الصباح!

ونشرت صحيفة «المجاهد» شهادات واعترافات أدلى بها جنود فرنسيون، وهذه بعضها:

- إنني أتذكر أننا عند حصص التعذيب لا نعرف هذا الأسير من ذاك، لما يلحق وجوههم من تشويه بالضرب والحرق بالأسلاك الكهربائية، التي يوضع طرفاها في وجوههم، وكان بعض الأسرى يطلق سراحهم حين ينقل آخرون إلى «قايس» وهذه الاستنطاقات تنجر عنها عمليات تفتيش أخرى حيث لا يتوقف المخصص للتعذيب عن العمل لا بالليل ولا بالنهار!

- ... وأعطونا (رفاقنا) تفاصيل مدققة عن توابع ذلك الاشتباك، ومما حكوه لنا أن قريتين تقعان على مقربة من مكان الحادثة قد دمرتا تدميرا وقتل من بها حتى النساء والأطفال، وأكد لي أحدهم بأنه هو نفسه قتل امرأة ورضيعها الذي كان بين أحضانها.

... وأثناء هذه العملية نفسها أسرنا ثائرا جريحا أصيب في اشتباك وقد حمل على ظهر بغل لأن المنتظر منه أن سيقودنا إلى مغاور وكهوف خبئت فيها الأسلحة، وقد مشينا طويلا فأنهكنا العطش والحر، وقد

سقط الكثير منا على الأرض، ولما لم يستطيعوا حتى الوقوف حملوا على ظهور رفاقهم بصفة هي أقرب إلى الجر منها إلى الحمل. قلت لقد مشينا طويلا بدون أن نعثر على المغاور، فعاودنا البحث عنها صباح اليوم التالي ولما لم نجد شيئا تهاطلت الضربات على الثائر الجريح، وكانت مؤخرات البنادق تنزل بشدة على الأمكنة المجروحة من جسده، وبلغ الغضب بالقبطان حدا أقصى فقال: «فجروا دماغه» ثم تراجع وقال: ينبغي أن لا نوسخ الغداء بدمائه، ألقوه من فوق البغل، ووقع الجريح على الأرض بشدة، ثم قتل برصاصة في رأسه. (المجاهد، ع 17 – غرة فيفري سنة 1958).

حسبنا ما أوردناه من الشهادات والاعترافات فهي كثيرة جدا لا يتسع لها إلا مجلد ضخم!

وكم رجال فجرت رؤسهم بالديناميت، وآخرون مكبلون في السجون والمعتقلات، مزق الحديد أيديهم وأرجلهم، وآخرون يقضون أياما وليالي تحت التعذيب ثم يساقون إلى ساحات الإعدام، وآخرون هنا وهناك أجسام ممزقة، وأشلاء كئيبة مبعثرة.. في الأودية، وبين أحراش الغاب، وفي الكهوف والمغاور، وكل هؤلاء لا يعلم إلا الله ما عانوه من أنواع التعذيب قبل أن يريحهم الموت!

إن التعذيب بصوره الوحشية الفظيعة سيظل أبد الآبدين عارا على جبين فرنسا لن يمحوه تعاقب السنين، والأحداث على شاطئ الحياة، كما سيظل عبر التاريخ دليلا قويا، على قوة الشعب الجزائري، وقدرته الفائقة على قهر الألم والعذاب، وشاهدا ناطقا بتعلق هذا الشعب بوطنه وسيادته

وحريته، وأن أفسد الناس فطرة، وأخلاهم وطنية، وأكثرهم لؤما، وأحطهم مكانة، وأخفهم وزنا، وأحبطهم عملا، من يعادي هذا الوطن، أو ينسى هذا العذاب!

وإن شر الناس في هذا البلد العظيم، من ينسى أو يتناسى هذا المهر الغالي الذي قدمه الشعب الجزائري من أجل حريته واستقلاله، وأن «الحركى» وأعداء هذا الوطن من كل نوع، لأصغر شيء في نظرنا من أن ينظر، وأحقر من أن يذكر، وشيء تافه قذر ملعون يجري على الأرض، أو يوطأ بالقدم، أو يرمى إلى المزبلة!

تعذيب النساء[1]

أما تعذيب النساء المناضلات في ثورة التحرير، فقصة طويلة أيضا تبارت في الكتابة عنها أفكار وأقلام، وتتجلى صور تعذيب النساء الرهيب وأساليبه الوحشية الفظيعة التي لا يتصور العقل أن تصدر من إنسان لإنسان، إلا أن يكون ذلك الإنسان قد تحول إلى وحش انحط إلى درك البهيمية– تتجلى في اللبؤات «الجميلات» : جميلة بوحيرد – جميلة بوعزة – جميلة بوباشا، فقد ذاقت هؤلاء البطلات على أيدي الجلادين الفرنسيين عذابا تقشعر منه الأبدان، وتنفطر منه القلوب، ويقوم دليلا واضحا عميقا على أن الإنسان إذا انفلت من كل القيود، ومن كل القيم والأخلاق فإنه يفوق كل الحيوانات الوحشية المفترسة.

---

(1) تقدّم الحديث عن تعذيب النساء، ضمن التعذيب الممارس على مختلف طبقات الشعب الجزائري، وأفردناهنّ في هذا المقام بهذه الإشارة للتحدي الخارق الذي أبدينه رغم (جنسهنّ اللطيف).

لقد قضت جميلة بوحيرد 17 يوما تعاني أفظع أنواع العذاب وأبلغها تأثيرا في نفسية الفتاة، ومع ذلك فإن جلاديها لم ينتزعوا منها ولو شبه اعتراف يمكن أن يكون جريمة تستوجب الإعدام حتى في القانون الفرنسي، وغاية ما هناك أنهم استندوا في الحكم بالإعدام، على شهادة المناضلة «جميلة بوعزة» التي فقدت عقلها تحت التعذيب وتحت فعل المخدرات.

وعندما صدر الحكم بالإعدام على بوحيرد ضحكت، لأنها عرفت أن كل حكم بالإعدام عليها أو على المناضلين الجزائريين، إنما هو حكم بالإعدام على الحضور الفرنسي بالجزائر!

والذي نلاحظه بعد هذا ونسجله للتاريخ، أن احتمال هؤلاء النساء، لأشد أنواع العذاب، وأكثرها وحشية وفظاعة دون أن يضعفن أو ينخذلن أو يعترفن بكلمة، برهان ساطع قوي على رسوخ إيمانهنّ، وصدق حبهنّ لوطنهنّ، وقدرتهنّ على الاستهانة بكل المضانك والمهالك في سبيل المبدإ، وعلى مدى رفضهنّ لحياة الذل والعبودية والهوان وشوقهنّ إلى الحرية والاستقلال في تلهف وتعطش منقطع النظير!

وهؤلاء النماذج وأمثالهم –من الرجال والنساء الذين صمدوا للعذاب المهين في سبيل استقلال الجزائر–، هم الذين يجب أن نقتدي بهم، ونربي أولادنا على سيرهم، ونحببهم إليهم، ونعتز بهم، لأنهم بذلوا كل ما يملكونِ من صحة، وحياة من أجل أن نحيا اليوم أحرارا في بلدنا الجزائر!

ما أكثر الوطنيين حينما تكون الوطنية كلمة تلاك باللسان، أو قصيدة شعرية تضطرم ألفاظها، وتتسامى معانيها، أو خطبة منبرية تلقى في جموع حاشدة تسيل لها الدموع، وتنفعل معها القلوب.

ولكن ما أقل الوطنيين عندما تكون الوطنية إرادة ما ضية تحدد المصير، أو انطلاقا في دفع ثوري عارم نحو الموت، أو ألسنة اللهب تشوي البدن، أو قلعا للأظافر، أو قطعا للأطراف، أو موتا بطيئا تحت أشعة الشمس المحترقة، أو بين أيدي المردة الطواغيت وهم يجربون آلات التعذيب الجهنمية العصرية!

إن هؤلاء الرجال والنساء الذين استطاعوا أن يقهروا الألم، ويقاوموا الموت، ويوثروا الفناء على المعيشة الذليلة هم الصفوة البشرية التي سيفاخر بها القرن العشرون ما قبله من القرون!

الفصل التاسع
الإبادة الجماعية وأنواعها

تمهيد

منذ بدء الثورة الجزائرية، أي منذ 31 شهرا، ما برحت فرنسا تقول للعالم أن إدارتها وجيشها في الجزائر إنما يضطلعان بمهمة إعادة النظام والسلام هناك بيد أن أقل الناس علما بمجريات الأمور يعرفون الآن يقينا أن هذه المهمة إن هي إلا الحرب تشتها فرنسا لقهر شعب يطالب بحق العيش، بل أن بعض الوزراء الفرنسيين أنفسهم ولا سيما وزير الدفاع الوطني لم يعودوا ينكرون هذا الهدف ومؤدى ذلك أن حرب الجزائر تحولت منذ سنتين بمشيئة الحكومة الفرنسية إلى حرب إبادة تستهدف القضاء لا على جيش التحرير الوطني وحده بل وخصوصًا القضاء على المدنيين العزل أنفسهم.

إن إعدام الناس بدون محاكمة جدية وإطلاق المدافع الرشاشة على الجماهير وشن حملات التأديب وتخريب القرى قد كثرت إلى حد لا يتصوره عقل وتستعمل في هذا الغرض أحدث الوسائل الحربية كقذف القنابل من الطائرات وإطلاق مدافع الميدان والأسطول ورش مادة النابالم، بل أن الغازات تستعمل في بعض المواقع[1].

---

(1) مضمون المؤتمر الصحفي الذي عقده وفد التحرير الوطني الجزائري بالقاهرة يوم الخميس 30 مايو سنة 1957م.

فكرة الإبادة وليدة ثورة التحرير

إن فكرة استئصال الشعب الجزائري وإبادته ليست وليدة ثورة نوفمبر التحريرية سنة 1954 ولكنها قديمة ترجع إلى جويلية سنة 1830 حينما منيت الجزائر بالاحتلال الفرنسي البغيض، فمن ذلك الحين دخلت الجزائر في حلقة مفرغة من القمع الرهيب، والتنكيل الوحشي، عُرفت بعض جوانبه وفصوله ولكن أكثرها بقيت مجهولة، إما لأنها جرت وراء ستار لا سبيل إلى رفعه، وإما لأن الذين تناولوا هذه الفترة بالكتابة لم يريدوا أن يثيروا غضب فرنسا.

والذي نعتقده أن جرائم فرنسا في الجزائر عند الاحتلال المشؤوم، لم تكن في مكان دون مكان ولا في زمان دون زمان بل عمت القطر الجزائري كله، فماذا يكتب الكتاب، وعن أي جرائم يتحدثون؟

إن وحشية الجيش الفرنسي وقادته التي أظهروها في محاولة إبادة الشعب الجزائري عند الاحتلال لا يمكن وصفها بل إن كل عبارة، وكل وصف، وكل خيال، يقف عاجزا أمامها لأنها وحشية لم يسبق أن عرفها التاريخ في العهود المظلمة يوم كان الإنسان لا يتميز عن الحيوان إلا بشكله وصورته.

ويعترف القائد السفاح «سانت ارنو» في مذكراته لحرب الإبادة الوحشية التي كان يشنها ضد الشعب الجزائري فيقول:

«كنا نبيد كل شيء، نقتل السكان نحرق وندمر المساكن والأشجار».

إن جيش الاحتلال كان يطبق حرب الإبادة الشاملة بمنهج حربي يمكنه

من إفناء الشعب الجزائري وإحلال السكان الفرنسيين محله، وكان يعتبر هذا المنهج مذهبا سياسيا وعسكريا لا يؤمن به في قرارة نفسه فقط بل كان يجاهر به معتزا مفاخرا، وهو على الأقل يمتاز في أحفاده من قادة وضباط الجيش الاستعماري بالصراحة. ويقول المؤرخ الفرنسي «شارل أندري جوليان»: «لم يكونوا يغزون البلد في الخفاء ويقتلون الأعداء وهم يلقون البيانات المشبعة بالروح الإنسانية، بل كانوا جميعا يعتزون ويفاخرون بما فعلوا».

والذي نعتقده إلى حد اليقين هو أن جرائم فرنسا في الجزائر عند الاحتلال لم تكن في مكان دون مكان، بل عمت القطر الجزائري كله إلى حد الاستفاضة، وإن كان ذلك في مراحل وأزمنة مختلفة، وطابع هذه الجرائم الوحشية والقساوة، والعنصرية الصليبية، والشهوة العارمة شهوة الانتقام، وشهوة الإبادة والاستئصال.

الأحفاد على طبيعة أجدادهم في الوحشية

وقد يكون هناك في دنيا الناس من يظن أن قرنا وربع قرن من التقدم العلمي والحضاري، والتفتح على العالم، قد هذب النفوس، ورقق الطباع، وارتقى بالمشاعر والأحاسيس، وأحيا الوعي، وأيقظ الضمير، ولطف الخلق والذوق، وسما بالمدارك الفكرية، ولكن الحقيقة غير هذا تماما، فالأحفاد على طبيعة أجدادهم، وعلى خطاهم ومناهجهم لم يحيدوا عنها قيد أنملة.

وإذا كان هناك من فرق يمكن أن يلاحظ، فهو أن التطور العلمي في هذه المدة، ساعد الأحفاد على تطوير وحشية أجدادهم بابتكار وسائل وطرق

وكيفيات جعل تلك الوحشية أقوى سعارا، وأشد ضراوة، وأكثر همجية، وأشد فظاعة، وأبعد عن كل معاني الإنسانية، حتى أصبحت لتجاوزها كل حد، منتهى ما يصل إليه الإنسان الكافر الفاجر، الأهوج الأحمق، من التسفل والانحطاط، والتفاهة، والضياع في صراع دموي رهيب!

إن أحفاد بيجو، وسانت ارنو، وغيرهما من السفاكين المجرمين كانوا يمارسون عمليات الإبادة والاستئصال للشعب، ويحاولون أن يخفوها وراء الخطب المعسولة، والادعاءات الفارغة، والأكاذيب الزائفة، ولكنها لا تلبث أن تكشفها الحقائق، ويرفع ستارها الواقع المعيش!

وعلى سبيل المثال نشرت في أواخر جويلية سنة 1959 الصحيفة الأسبوعية العسكرية «لوجلاد» التي تصدر بالجزائر مقالا عن التعذيب جاء فيه بالخصوص ما يلي:

«إن الحكومة والقيادة العليا تدين التعذيب وتعاقب عقابا صارما من يرتكبه وهي ما تزال تعاقب كل من ثبت عليه أن يستعمل التعذيب، وكل ما هناك أنها لا تعلن عن العقوبات ولا تكشف أسماء الذين عوقبوا، إن بعض الناس يحاولون تبرير التعذيب بوجود الحرب، لكن الحرب لها قوانينها التي تحرم التعذيب، والجيش الفرنس يحترم هذه القوانين» – (عن المجاهد، ع 48 أكتوبر 1959).

إن الكذب خلق سافل دنيء من فرد واحد لا يمثل إلا نفسه، وكيف به من مؤسسة عسكرية تنطق عن الدولة؟

إن التعذيب في هذا الوقت بالذات، والإبادة الجماعية ، وتدمير القرى على أهلها، واستعمال قنابل النابالم، قد انتشر في كل أنحاء

الجزائرانتشارا مهولا ومع ذلك يحاول الجيش الفرنسي وقادته أن يخفوه دون تورع!

على أنه في هذا التصريح الكاذب السافر تسجل ملاحظتان:

أولا – تعترف الصحيفة العسكرية بوجود التعذيب مادامت تقول إن الحكومة كانت وما تزال تعاقب عليه!

ثانيا – تعترف الصحيفة التي هي لسان القيادة الفرنسية بوجود حرب حقيقية في الجزائر، وهي الحقيقة التي ظلت تنكرها وتدعي دأبا أنها تقوم بعمليات بوليسية فقط ضد «عصابات متمردة».

والجدير بالملاحظة أن الذين يمارسون الإبادة الجماعية خلال حرب التحرير، يمارسونها بنفس الفظاظة والقسوة التي يمارسون بها التعذيب على الذين يقعون في أيديهم من الأسرى والمدنيين المشبوه فيهم، فكلهم يحملون فكرة واحدة تستحوذ على مشاعرهم وأحاسيسهم، وهي أن هذا الشعب العنيد يجب استئصاله، وتطهير الأرض منه، حتى تخلو للفرنسيين المتحضرين»!

وقبل أن نتناول الإبادة الجماعية في ثورة نوفمبر التحريرية باستعراض أنواعها وصورها وطرقها نلاحظ للقارئ الكريم أن ما نقدمه له ليس إلا نزرا قليلا للغاية، فإذا كانت هذه الثورة قد استمرت بحسب الأيام (2693) يوما وفي كل يوم تعذيبات وإبادات وتهديمات في مختلف أنحاء القطر الجزائري، فماذا عسى أن نحصي منها ونحصر؟

ولكن حسبنا أن نقدم صورا كئيبة تجعل الإنسان الجزائري يتذكر ولا ينسى، ويستيقظ ولا ينام، ويعرف ولا يجهل، ويقوى ولا يضعف، فويل ثم ويل لمن نسي اللص والذئب فاستغرق في نومه.

وتتجلى تلك الإبادة الرهيبة المتميزة في صور وأشكال هذه أهمها:

الإبادة للانتقام

اعتاد الجيش الفرنسي منذ بداية الثورة التحريرية أنه ما إن تنتهي معركة، أو اشتباك، أو كمين فينهزم، حتى يسرع إلى القرية أو القرى القريبة من مكان المعركة، فيستبسل أمام الشيوخ والنساء والأطفال، فينتقم منهم شر انتقام، فيقتل، ويعذب، وينتهك حرمات النساء، وينشر الهلع والرعب، ويعيث في الأرض فسادا، وكل جزائري وجزائرية كبيرا أو صغيرا يعتبر في نظر هؤلاء عدوا لدودا يجب الانتقام منه.

وكثيرا ما يقوم الجيش الفرنسي بحملات ترويعية قمعية ضد الأهالي الأبرياء، فيقتل ويعذب ويمثل، ويعيث في الأرض فسادا، كل ذلك من أجل الردع والقضاء على الثورة، وعلى سبيل المثال، وفي ولاية الأوراس النمامشة بعد التحاق 1300 من المدنيين بالتراب التونسي بعد تخريب مساكنهم وتدميرها أعدمت السلطات الاستعمارية 65 في نقط عدة من الولاية، وفي الشمال القسنطيني أعدمت 15 في الطاهير، كما قام جنود المظلات بحملة تفتيشية، فكانوا يوقفون المارة ثم يذبحون بعضهم على مرأى من الحاضرين، ثم يقضون على النساء والأطفال والشيوخ والبنات الصغيرات، وبعد تعذيبات وحشية يخرجون من بقي من الأهالي أحياء ويلزمونهم على الرقص والغناء في طريقهم إلى ثكنة الحامة حيث ينتظرهم عذاب أشد فظاعة وأكبر هولا!

أما في ولاية وهران فقد جرت عمليات قمعية رهيبة، نذكر منها بالخصوص:

في وهران أعدم 64 مدنيا وفي سعيدة 25 وفي المنطقة الأولى أعدم (46) وفي المنطقة الثانية أعدم (25) وفي المنطقة الثالثة أعدم (12) وهذا حوالي شهر جوان 1958 (المجاهد ع 27 – 1958/7/22).

شهادات واعترافات

وقد شهد هذه الأعمال الانتقامية جماعة ممن أدلوا بشهاداتهم واعترافاتهم في ذلك، وهي كثيرة نقتصر منها على بعضها:

– قال اليوزباشي (س..) عندما كان قائدا للفرقة ... كلما وقع كمين ومات فيه رجل من رجالي أعمد إلى أول قرية أجدها في طريقي، ثم أجمع كل رجالها وأعدم نصفهم وأدعي أنهم لم يخبروا الجنود الفرنسيين بوجود كمين في المكان. (المجندون يشهدون، ص 29)

– في أوائل شهر مايو على مقربة من مدينة باتنة وقع كمين سقط فيه اثنان من رجالنا فألقي القبض على 15 رجلا من المشتبه في أمرهم وعذبوا ثم أعدم 14 منهم رميا بالرصاص.

وفي أوائل شهر مايو كذلك، وعلى مقربة من تبسة وقع اعتداء على أحد الجنود فجمع رفقاؤه أمرهم وهاجموا المقاهي العربية وأطلقوا الرصاص على كل من كان فيها من السكان المدنيين، ثم ألقوا القنابل اليدوية على المساكن الأهلية، ومن الغد سمح الكومندان لجنوده بساعة كاملة يرتكبون فيها ما يشاءون بالمدينة، وذلك في حالة ما إذا وقع اعتداء عليهم أثناء دفن رفيقهم. لكن لم يقع أي اعتداء لحسن الحظ.

وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر أبريل وقع اعتداء بمدينة قسنطينة على أحد جنود المظلات فأردوه قتيلا، فتجمع رفقاؤه وساروا إلى ثكناتهم، وحملوا بنادقهم، وهاجموا المدينة يباشرون فيها حملة انتقامية ضد السكان المدنيين!

وعملية من نفس النوع وقعت بمدينة بسكرة عند نهاية شهر يوليو فكانت النتيجة مقتل 26 أو 30 رجلا من المدنيين، وجرح 40 منهم. (المجندون يؤدون الشهادة، ص 85)

– وفي اليوم الحادي عشر من شهر مايو سنة 1956 كانت فرقة من جنودنا تجتاز مضيقا قرب مشتى بجهة «هلتسور» وأطلقت طلقتان أو ثلاث ضد جنودنا فصدرت الأوامر بأن نعدم كل أثر للحياة في المشتى فقتلنا 79 رجلا وامرأة وصبيا على الأقل. (المجندون يؤدون الشهادة، ص33)

– وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر مارس حوالي الساعة التاسعة والنصف صباحا قتل أحد الإرهابيين المحافظ المركزي لمدينة قسنطينة ويدعى «سان مارسلي» فأخذ ابن القتيل سلاحه وخرج يطلق الرصاص على كل عربي في المدينة صادفه في طريقه فقتل اثنين منهم في الحال وأصاب ستة آخرين بجروح خطرة أسفرت عن مقتل اثنين آخرين.

وفي العشية وقعت عملية تفتيش ضخمة حشد فيها خمسة عشر ألفا من سكان المدينة وسيقوا إلى «الكدية» حيث توجد دار المحافظة المركزية.

ولقد اغتنم بعض الرجال المعاونين للبوليس هذه الفرصة فكسروا واجهات المخازن التجارية (300) مخزن ونهبوا منها كل ما اعتقدوا أنه ثمين.

وقد انتهكت حرمة مسجدي سيدي عب المومن وسيدي أبي مغرف أثناء هذه العملية، وأخيرا وقع إعدام 13 رجلا خمسة منهم تحت جسر سيدي راشد وثمانية منهم في طريق مدينة لخروب، ولم يظهر أبدا أن واحدا من هؤلاء الذين وقع إعدامهم قد قام بنشاط إرهابي وهم: رابح منتج ، بودور موظف بالسكة الحديدية، ومن الحزب الشيوعي، ونزار مثل السابق، وعجابي محمد، والطاهر موظف بالمستشفى المدني بقسنطينة، وكاتب نقابات جامعة العمال، وأحمد رضا حوحو كاتب معهد عبد الحميد بن باديس ورئيس جمعية أحباب الفن والموسيقى، وبوعلاق تاجر ومن أعضاء حزب البيان سابقا، وبوزو بإدارة المنح العائلية ورنارلي موظف بشركة الكهرباء والغاز. (المجندون يؤدون الشهادة، ص 85)

– وخلال شهر مارس 1956 وخلال العشية ألقى أحد الإرهابيين النار على جندي فأصابه بجروح خطيرة، وكان رد الفعل سريعا جدا إذ وقع الهجوم على الحارة التي وقـع بجانبها الاعتداء، وسيق كل المسلمين الذين يسكنونها إلى مركز الجندرمة، حيث قضوا كامل الليل ثم وقع اختيار ستة منهم أعدموا فورا، ووقع التنبيه على السكان الباقين بأنه سيعدم من بينهم 30 رجلا كلما وقع اعتداء على أحد الجنود!

وفي الغد أطلق البوليس سراح ستة من المسلمين كان قد ألقى عليهم منذ أسبوع ولم تثبت إدانتهم بشيء فتسلم العسكريون فورا هؤلاء الستة وذهبوا بهم..

وفي صبيحة يوم الإثنين 26 اكتشف الناس جثث هؤلاء الستة بمنجم أ. أ وصدرت الصحف يوم الثلاثاء، تنشر بلاغا عسكريا يقول إنه قد وقعت معركة قرب منجم أسفرت عن مقتل ستة من الثائرين. (المجندون يؤدون الشهادة ص 86).

– وفي رسالة تحمل تاريخ 30 أبريل 1956 قال الكاتب:

منذ نحو 12 يوما أطلق إرهابي النار على أحد حراسنا فأصابه بجراح وذلك على مقربة من إحدى القرى، فهاجم جندنا القرية وأخرج سكانها واختار من بينهم عشرة رجال وقع إعدامهم حالا، وكانوا من العمال في المنجم المشهور، وارتاع سكان القرى فأخلوها والتجأوا جميعا إلى القرى المجاورة، وكان السكان الأوروبيون يرون هذه الحادثة وهم يذرفون الدموع لأن هؤلاء العمال الذين أعدموهم كانوا رفقاء لهم وكانوا يعملون يدا بيد في المنجم المذكور. (ضد التعذيب ص85 و86).

حسبنا ما ذكرنا من هذه الشهادات، فإنها كثيرة مستفيضة تحدد كلها مكانة فرنسا في القرن العشرين!

الإبادة للتسلية

ولما كانت نية المستعمرين، تهدف إلى إبادة أكبر عدد ممكن من أبناء الشعب الجزائري، فالقتل لا يقع دائما أثناء عمليات الانتقام، بل يقع أيضا كوسيلة للتسلية، ففي كل يوم يلقى القبض على مئات من المشتبه في أمرهم ويكونون ضحايا هذه العمليات التي كانت تدعى (سخرة الحطب) والتي اشتهر أمرها في أنحاء مختلفة من القطر الجزائري!

وصورة هذه العملية أن يسوق الجند جماعةً من المقبوض عليهم كرهائن، ويسوقوهم للخارج بدعوى الإتيان بشيء من الحطب، حتى إذا بلغوا مكانا معينا، انهال الجند عليهم برمي الرصاص وأعدموهم جميعا!

شهادات واعترافات

وإليك –قارئي اللكريم– بعض الأمثلة على ذلك يشهد بها من عاشها أو لمس حقيقتها.

ذهبت الجماعة الثالثة ومعهم عشرون من المشبوه فيهم كلفوا بسخرة الحطب وعندما وصلوا إلى مضيق (بيكارت) المكان الذي وقع فيه الكمين ضد الفرقة 117/2 التي تركت 13 قتيلا في ميدان المعركة أجهزوا عليهم رميا بالرصاص في أدمغتهم وتركوهم دون أن يواروهم التراب وأخبروا الجندرمة بأنهم قتلوا عشرين أسيرا حاولوا الفرار، وختمت هذه المأساة بالجملة الأخيرة التي جاءت على لسان الكومندان: لقد أخذوا بالثأر لرفقائكم، فهؤلاء هم العرب الذين قتلوهم، ولنفرض جدلا بأنهم لم يكونوا هم فقد دفعوا الثمن بدلا عنهم! (الشهادات المسيحية سجل جان ميلير ص 13).

– لقد ذكر لي بعض الجنود من الفرقة الثانية للمظلات الاستعمارية – من الذين مضى عليهم وقت طويل في الجندية– الكيفية التي يتخذونها مع الأسرى في (تسخيرة) جلب الحطب: يكلفونهم أولا بحفر خندق في الأرض ثم ينزلونهم فيه، وبعد قتلهم يضعون فوقهم التراب، وينتهي الأمر على هذه الصفة، ومما قاله أحد أصدقائي الذين يغضبون من هذه الأعمال: هناك ما يجعلني أخجل من أني فرنسي!

سمعت منه هذا الكلام أمام جثة أسير مات ورجلاه متجمدتان. وفي إحدى المرات كنا نتجاذب أطراف الحديث فأعربت جماعة منا بأنها أصبحت تشك في المدنية التي يمثلها هؤلاء القوم! (المجندون يشهدون ص 27).

من 5 إلى 9 يونيو 1956 بلغ ضحايا الفيلق (خمسة عشر) عربيا رغما عن أننا لم نر أحدا من رجال (الفلاقة) ولم تطلق علينا طلقة واحدة. وكان رجالنا يطلقون النار من بنادقهم الرشاشة ومدافعهم بصفة منتظمة على القرية التي كنا سنجتازها بعد قليل، ففرّ جميع الأهالي ولجأوا إلى المغاور والأخاديد المجاورة، وعندئذ عثر بعض الجنود على فريق من الناس المحتمين في إحدى المغاور، وخرج أحد هؤلاء الرجال من المغارة رافعا يديه إلى أعلى، وعندئذ دخل جندي إلى المغارة وأطلق بندقيته الرشاشة على جميع الموجودين، وعددهم سبعة أشخاص فصرعهم، وبعد ذلك ألقيت أجسادهم إلى قاع الوادي ولما مضى الجندي القاتل في سبيله عثر على أحد الفارين جريحا فأجهز عليه برصاص بندقيته. (المجندون يؤدون الشهادة ص 68).

يروي لي (أ. ذ) رئيس الكتيبة التي أنتسب إليها أنه يشاهد منذ ثمانية أيام منظرا لا يطيقه بشر، فقد قتل (باشجا ويش) فرنسي منذ ثمانية أيام، فحفر الفرنسيون خندقا ضيقا كي يلقى فيه عدد من الرجال الذين يقال عنهم مشبوهون أو الناس الذين يقبض عليهم للتفتيش، ويقوم الجنود بالحراسة على حافة الخندق، وقد لاحظت أن هؤلاء الناس يفقدون

صوابهم في هذه الحفرة حيث أن بعضهم سبق له النزول إليها ويعرف ما تنطوي عليه، وبعض هؤلاء يحمل علامات دموية ظاهرة على بدنه.

ويقال أن 95 ثائرا جزائريا أعدموا رميا بالرصاص حوالي 15 أغسطس بناحية دوار (صراف) وقد استطاع الفرنسيون بعد هذه العملية أن يستردوا ثلاث بنادق من بنادق الصيد، ونظراً لانعدام النسبة بين عدد الضحايا وعدد البنادق المستردة فقد خفض البلاغ الرسمي عدد القتلى إلى 45 بدلا من 95، ويدل كشف الأسماء على أن هؤلاء القتلى يشملون نساء وأطفالا ومن ضمنهم طفل عمره ثلاث سنوات كما جاء في محضر البوليس نفسه! (المجندون يؤدون الشهادة ص 48).

صور فظيعة من الإبادة الوحشية

إن هؤلاء الجنود الوحشيين ليسوا في حقيقتهم وواقع أمرهم كلابا مسعورة،، وخنازير قذرة، وجراثيم فتاكة، وما كان ليستقيم في ميزان العدل أبدا أن يتصور العاقل في هؤلاء مسكة من الإنسانية.

وهل استطاع الفقر، والمرض، والأوبئة الفتاكة المختلفة، أن تفعل في الشعب الجزائري في مختلف عصور التاريخ ما فعله هؤلاء الجرذان؟

إن هؤلاء الجنود، الغلاظ الأكباد، القساة القلوب، الذين لا يمتّون إلى الآدمية بصلة ووشيجة، ولا يجدون لذتهم إلا في التدمير الغاشم الأهوج، وقتل الأبرياء وسفك الدماء، وترويع النفوس الآمنة، إن هؤلاء لا يكتفون بالإبادة بالبنادق الرشاشة، وتسوية الأرض مع الأجسام البشرية، بل يقتلون بصورة وحشية لا أفظع ولا أدل على اللؤم والدناءة والسفالة منها، وهذه!

شهادات واعترافات

من شهاداتهم في ذلك واعترافاتهم هذه المجموعة:

– وصل إلى فناء الثكنة العسكرية بناحية تبسة (لوري) يحمل فريقا من الأسرى الجزائريين إثر وقوع إحدى الوحدات الفرنسية في كمين قرب الحدود التونسية، وكان الأسرى مشدودي الوثاق وموضوعين بعضهم فوق بعض على أرض السيارة كأنهم أكيسة من الفحم... وكان بعضهم قد مات فعلا من الاختناق أو من الرضوض القوية الناشئة عن وعورة الطريق، وكانت فرقة الحراسة من جنود الوحدة الفرنسية التي وقعت في الكمين قد أخذت في تفريغ السيارة وكانت طريقتهم في ذلك، هي سحب الأجسام الآدمية المنطرحة، والتي كادت تصبح بلا حراك سحبا قويا من ناحية الأرجل، ثم تركها تهوي من مكانها المرتفع، وبوزنها الثقيل إلى الأرض الصلبة، وكان هناك ملازم ثان يشاهد العملية فعز عليه أن يسكت وبدأ يصيح! «أيها البلهاء إني..» ولما وصلت هذه الألفاظ إلى مسامع الجند هبّ أحدهم ليضرب الشخص الذي تجرأ على التفوه بها ولكن عندما فوجئ بأن هذا الشخص هو أحد الضباط توقف واكتفى بأن يجيبه في صفاقة: «أنت الأبله» وعاد ليواصل عمله، وكان الأسرى ممدودين على الأرض، وكان عليهم أن ينهضوا، ويصطفوا في محاذاة الجدار، فاستعمل الجند أحذيتهم الثقيلة وأكتاف بنادقهم لاستنهاض الضحايا الذين كانت فيهم بقية من رمق فقاموا وهم يترنحون، أو زحفوا على ركبهم إلى مكان الجدار، أما الآخرون فظلوا منبطحين أرضا لا حراك فيهم! (عن مجلة (أسبري) عدد أبريل 1957).

في قرية الشريعة جاؤوا برجل للاستنطاق فنزعوا عنه كل ثيابه بعد أن أوثقوه ثم ألقوا به على الأرض بعدما ضمخوا كل جسمه بشيء من المعجون السكري (المربى) وبقي كذلك طيلة اليوم معرضا لشمس شهر يوليو اللاذعة وكانت أسراب الذباب تروح وتغدو حول تلك الفريسة البشرية التي كانت عيناها تعبران عن جنون الألم، وقد قال لنا القبطان: إذا لم يعترف أطلق عليه سربا من النحل.

(عن مجلة (أسبري) –الفكر – أبريل 1957 ص 585).

التمثيل بالجثث

للميت حرمته، ولكن هؤلاء الفرنسيين لا يفهمون ذلك ولا يفقهونه، ولا ترتقي إليه مشاعرهم وأحاسيسهم إن كانت لهم مشاعر وأحاسيس، وهم في ذلك أيضا على نهج أجدادهم وخطاهم، ألم تكن آذان النساء الجزائريات تباع في سوق باب عزون بالعاصمة في الأيام الأولى من الاحتلال المشؤوم؟

شهادات واعترافات

– في يوم 27 سبتمبر، في منتصف الليل.. وقد تطلب الأمر أن احتج بشدة على سلوك معظم جنودنا لأنهم ينتهكون حرمة الأموات، وعندما عدت إلى (...) جمعت رجالي وحدثتهم عن الموضوع، فوافقوني على ما قلت، وسأقول لهم يوم الأحد القادم إن احترام الأحياء واجب أقدس من احترام الأموات وإني لم أستطع أن أحدثهم عن هذين الموضوعين في وقت واحد. (المجندون يؤدون الشهادة ص 70).

وقد سرنا في نفس اليوم في أحد دروب الجبل للوصول إلى سيارتنا فوجدنا على حافة الدرب جثة أحد الأعراب وهناك صاح الجندي (بـ....) من الفصيلة الرابعة (وهو من أهالي باريس) أتراهن معك أني سأعود ومعي أذن أحد (الفلاقة) -الثوار-كتذكار؟ وهنا استلّ أحد الجنود (مطواة) وقطع بها إحدى أذني الجثة وأعطاها زميله (ب...) الذي وضعها في محفظته ولم يلق بها إلاّ عندما قال له بعضهم (الق بها بعيدا فإن رائحتها نتنة) وهنا تدخل رئيس الفصيلة ليقول: إن الحرب لا يقوم بها أطفال، ولماذا لا تريد أن يحتفظ بها إذا كان هو يريد ذلك؟ (المجندون يؤدون الشهادة ص 70).

الإبادة عن طريق الموت البطيء

لم تفتإ الحرب بين الجزائر وفرنسا منذ اندلاعها سنة 1954م حربا بين قوتين: قوةٍ وطنية ترغب في الحرية، وتسعى لنبلها، بتلهف وتعطش، وبكل جهد وتضحية، وقوةٍ رجعية استعمارية تعمل جاهدة وبكل إمكانات حربية هائلة على القضاء على تلك القوة، حتى تستمر الهيمنة الاستعمارية على الجزائر!

وإذا كان المستعمرون عند احتلال الجزائر قد قاموا بحرب الإبادة في الجزائر لفرض احتلالهم وسيطرتهم، فإن أحفادهم كانوا على خطى أجدادهم في ذلك، وإن فاقوهم في وحشيتهم وضراوتهم كما قدمنا!

والفرنسيون وإن كانوا يحاولون دائما إخفاء هدفهم هذا من وراء هذه الحرب وهو الإبادة، ليتمكنوا من إخضاع هذا الشعب واستمرار احتلالهم

له، فإن الحقيقة تأبى إلا أن تنكشف وإن كثرت أغطيتها، ويكفي أن نورد أمثلة تكشف ذلك وتؤكده:

أورد الصحافي الفرنسي (جان دانيال) تصريحا لضابطين فرنسيين ممن يساهمون في حرب الجزائر جاء فيه:

«إن الأسلوب الذي يسلكه العدو وتلهفنا الجنوني إلى تحطيم هذا العدو بأسرع ما يمكن خوف أن تتفاوض باريس من وراء ظهورنا يحملنا على استعمال أساليب لا تتلاءم مع الأهداف إلى درجة أن الحرب لم تعد لها حدود!»

ويضيف الضابط الفرنسي يقول:

«للحصول على انتصار عسكريّ بالجزائر يجب أن نستمر في استعمال هذه الأساليب المطلقة مدة عدة سنوات» (المجاهد عدد 49 – 1959/08/24).

ومن تأمل هذا التصريح مجردا من كل نزعة أيقن أن الحرب التي كانت فرنسا تقودها في الجزائر ليست حربا عادية وإنما هي حرب إبادية شاملة، وما قدمناه من الصور والشهادات والاعترافات لهو الدليل العملي على ذلك في أجلى مظاهره، وأعمق معانيه.

وإزاء أنواع الإبادة وأساليبها المختلفة، التي قدمناها، يوجد نوع آخر، هو الإبادة عن طريق الموت البطيء، وقام الفرنسيون بكل هذه الأنواع، حتى لا يكون للفظائع النازية قصب السبق على الفظائع الفرنسية في أي مجال وبأية وسيلة وبأي شكل!

وتتمثل الإبادة عن طريق الموت البطيء في الأساليب التالية: المجاعة المنظمة، مراكز التجمع أو محتشدات الموت، نظام بيع الأدوية، وهاكها فيما يلي على هذا الترتيب باختصار واقتضاب:

عن طريق المجاعة المنظمة

بديهي أن قذف القنابل يودي بحياة الناس، ويتلف حيواناتهم وأرزاقهم المدخرة، والأفراد القليلون الذين ينجون من الهلاك يعيشون في فقر مدقع، ثم أن السلطات الفرنسية لا يكفيها هذا الوضع السيء العفن الذي يصير إليه العباد، فتلجأ إلى تنظيم المجاعة بصفقة فنية فتراقب مختلف الطرق التي تؤدي إلى القرى والمداشر مراقبة شديدة حتى لا يصل إليها التموين، وبسبب هذا الأسلوب اللاإنساني هلك خلق كبير، وهناك من ظلوا يعيشون على الحشائش والنباتات.

شهادات واعترافات

هذا جندي فرنسي قضى ستة أشهر بالجزائر يقص قصة انتقام الجوع ويقول:

«في الوقت الذي كنت راجعا من الجزائر تقرر اتخاذ التدابير الآتية ضد سكان (فورناسيونال) وهي أربعة أحوار ممتزجة منها حور جرجرة، حتى يعلنوا ولاءهم رسميا ويكشفوا عن أعضاء المنظمة الثورية من عسكريين وسياسيين:

أولا: منع التجول في جميع الطرقات المعبدة منها وغير المعبدة ليحولوا بذلك دون وصول المؤن والحوالات المالية للسكان.

ثانيا: منع كل إنسان من الخروج من مسكنه مهما كانت **شخصيته** (بإطلاق النار بمجرد رؤية العين).

ثالثا: ويا لها من مهزلة... (بعد كل هذه الأعمال التي قام بها الجيش لترغيب الأبناء في الرجوع إلى المدارس التعليمية) إغلاق بعض المدارس التي فتحت أبوابها!

اتخذت هذه التدابير يوم 18 نوفمبر (بفورناسيونال) قبل انتهاء التجنيد بقليل فلا أستطيع التأكيد من أن هذه التدابير طبقت بكل ما فيها من قسوة، كما علمت أن عقاب الجوع الذي فرض على سكان االناحية المرتبطين بأراضيهم ارتباطا وثيقا لهو دليل واضح على مدى التدليس في الدعاية القائلة بأن النفوذ والسلطة قد رجعا إلى أيدي االمدنيين (المجندون يؤدون الشهادة ص 45).

والذي يجدر ذكره والتنبيه إليه هو أن هذه الإجراءات التعسفية القاسية قد تطورت بتطور الثورة واتسعت باتساعها وصارتمعوّل السلطات الاستعمارية الفرنسية في الإبادة الجماعية عن طريق الموت البطيء.

عن طريق مراكز التجمع أو محتشدات الموت

«أقامت فرنسا في أماكن مختلفة من القطر الجزائري آلافا من المحتشدات، حشرت فيها عدداً لا يُحصى من الجزائريين مختلفين أعماراً، وقوةً وضعفا، يعاملون فيها معاملة وحشية لا أسوأ منها، من مختلف النواحي، والهدف من ورائها قطعُ الاتصال نهائياً بين الشعب وجيشه، وإماتةُ المبادئ الثورية بمفعول الاختناق وفقد الإعانة، (لكن

الشعب في البوادي والمدن على السواء اكتشف قوته فراح ينظم المظاهرات التي أمدت الثورة بأنفاس جديدة حطمت كل المناورات الاستعمارية ومكنت الثورة من الزحف نحو الانتصار العظيم).

بيد أن لتلك المحتشدات أثرها الكبير في موت الكثير من الجزائريين نتيجة الوضع السيء المتعفن الذي لا يُطاق.

شهادات واعترافات

وهذه شهادة من راهب فرنسي لا يمكن اتهامه بالعطف على الثورة، يكشف عن سوء الحالة في هذه المراكز، وقد زار هذا الراهب (لومنت) مراكز التجمع في مناطق: الأصنام، والمدية، وباليسترو، ومكث في هذه المراكز من 14 إلى 19 أكتوبر سنة 1959 ونشر ملاحظاته في جريدة (لاريڤورم) المسيحية ونقلتها عنها صحيفة (المجاهد) في عددها 57 وبتاريخ 1959/12/15 وعنها ننقل هذه الفقرات رغم طولها لأهمية الشهادة:

كان يوجد أكثر من ألف مركز تجمع منذ خمسة شهور حينما وجه الكاردينال (فلتي) والأسقف (بوانيير) نداءهما المشترك لصالح سُكان (مراكز التجمع) وكان المفروض هو أنه لا تنشأ أية مراكز تجمع جديدة ولكن الواقع أن عدد مراكز التجمع الآن يبلغ حوالي (1400) مركز، ولا يمر يوم واحد دون أن تنشأ فيه مراكز جديدة يجمع فيها السكان الجزائريون، ويوجد في هذه المراكز ما يزيد عن مليون ومائتي ألف من السكان، أي بما يزيد عن ثلاثين في المائة بالنسبة للربيع الماضي!

وأن عمليات تجمع السكان تستمر الآن في كل مكان وينتظرأن يجمع (200) أو (300) ألف ساكن جزائري من الآن حتى نهاية الشتاء، ولا يمكن أن تنتهي عملية تجميع السكان عمليا إلا بنهاية الحرب وليس من المفيد من أن نبحث عن أي تبرير لهذه العملية لأننا لن نجد لها أي مبرر صحيح.

إن حوالي نصف مراكز التجمع ليس لها أي مستقبل اقتصادي نظرا لانعدام الأراضي الزراعية حولها، ويعتبر كل سكان هذه المراكز ممن يعتمدون كليا أو شبه كلي على المساعدات المقدمة لهم. وفي ميدان التغذية يقدم للفرد الواحد يوميا حوالي 160 غرام من القمح وفي بعض المراكز تهبط التغذية إلى 90 غرام في اليوم، وبصفة عامة لا يتناول الناس ربع ما ندعوه بالحد الأدنى للحياة!

أما التجهيز الصحي لهذه المراكز فهو أيضا منعدم تقريبا، فلا يوجد سوى مشرفة اجتماعية واحدة في عمالة (تيطري) التي يبلغ عدد سكانها (750) ألف ساكن!

وفي ظل هذه الظروف لا عجب أن تبلغ الوفيات عددا هائلا، فنجد في مركز (ميستلي) مثلاً أنه من مجموع ألف من السكان يبلغ عدد المتوفين (500) خمسمائة، وفي أغلب المراكز يبلغ موت الأطفال نسبة هائلة لم يعرفها من قبل أي مكان في العالم!

وقد رأيت في أحد المراكز خمسة أطفال يموتون موتا حقيقيا من الجوع، ورأيت طفلا آخر قالت لي أمه (أنه سيموت حتما، وسألت ممرضا عن بعض الأطفال فانفجر باكيا وقال لي: «لا يمكن صنع أي شيء لهم لقد فات الأوان!»

وفي كل مكان من هذه المراكز رأيت الأطفال النحيلين الذين يظهر بوضوح على أجسامهم أعراض المرض، والأطفال الذين لم يبق فيهم سوى الهيكل العظمي، والذين يرتجفون من الحمى وهم راقدون على الأرض بدون أي فراش أو غطاء، وهم لا يجدون أي نوع من أنواع الدواء!

وقد زرت بعض المراكز التي لا يوجد فيها أغطية على الإطلاق أو يوجد غطاء واحد لعائلة متكونة من (12) نفرا يقيمون في خيمة بالية، وفي كثير من المراكز لم يعد يوجد أي حيوان أو طيور أليفة لأنهما كلها أكلت من قبل! وهناك مركز وزعت فيه البطاطس على السكان فأكلوها نيئة دون أي انتظار من شدة الجوع وقد وقعت هذه الحادثة منذ عشرة أيام فقط على بعد (75) كيلومتر من مدينة الجزائر!

وفي مركز (م ...) الذي أنشئ في ديسمبر 1958م يوجد سبعمائة وثلاثة نسمة في 94 خيمة وتسكن العائلة المكونة من 12 فردا في كوخ حقير ضيق وقد مات أكثر من خمسين طفلا في أشهر قليلة بهذا المركز!

وفي مركز (....) الذي أنشئ في أفريل 1959م يوجد 1200 نسمة ولا يوجد عندهم أي نوع من الأدوية رغم انتشار الأمراض ويموت الأطفال من الحمى وقلة التغذية دون أن يجدوا أي علاج ولا يتغذى الأطفال منذ فطامهم بغير الخبز اليابس والقهوة على فترات متباعدة، وبالقرب من الأصنام جمعت تسع حافلات في الإصطبلات وقد أخذت عائلة مكونة من ثلاثة أفراد ستة كيلوغرامات قمح و12 كيلو غرام شعير في مدة شهرين!

وقد سألت 12 طفلا بالصدفة على الواحدة بعد الظهر ماذا أكلوا منذ ظهر الأمس فوجدت أن ثلاثة منهم أكلوا الكسكس وأربعة تناولوا الكسرة الجزائرية وخمسة لم يأكلوا شيئا على الإطلاق!

وعندما يمر الجيش الفرنسي بهذه المراكز يطلب من السكان أن يلتحقوا (بالحركة) لأنها الوسيلة الوحيدة التي يمكن لهم بها أن يضمنوا معيشتهم!

هذا هو حديث الراهب الفرنسي بدون تعليق نكتفي به من شهادات أخرى في هذا الموضوع!

عن طريق منع الأدوية

ومن وسائل الإبادة عن طريق الموت البطيء نظام بيع الأدوية، ففي الوقت الذي تعمل فيه السلطات الاستعمارية الفرنسية على نشر المجاعة بصفة رهيبة مريعة، أصدرت بتاريخ 24 أكتوبر و22 ديسمبر سنة 1956 قانونا صارما لنظام بيع الأدوية، الغاية منه منع تسرب الأدوية إلى المرضى والجرحى الجزائريين، ولهذا القانون ملحق يعد غاية في الخطورة، إذ ينص على منع الأطباء والممرضين منعا باتا من علاج الجرحى، وقد تعدى البعض هذه القوانين فحوكموا أو أصدرت ضدّهم عقوبات صارمة، ومنهم من قتلوا من غير محاكمة (عن حرب الإبادة في الجزائر، منشورات جبهة التحرير الوطني، مصلحة الدعاية والنشر القاهرة).

الهدم والتدمير

تعاقب السلطات الاستعمارية الفرنسية القرى الجزائرية المشبوهة بأنها تأوي المجاهدين، وتعاقب السكان على سكوتهم أثناء التحقيق، وتنتقم لقتلاها الذين يسقطون في المعارك والكمائن والاشتباكات، وذلك بقذف كل ما يتحرك في القرية سواء أكان بشرا أم حيوانا، وكثيرا ما يتدخل الأسطول البحري في عمليات الانتقام (المجاهد عدد 20 – 15 مارس 1958).

أما الأعمال الوحشية التي يرتكبها الجنود الفرنسيون بعد أن تقنبل القرية ويدمر معظمها أو جزء منها فهي في منتهى الفظاعة والبشاعة والسفالة:

يدخل الجنود إلى القرى والدواوير المشتعلة ويطلقون وحشيتهم في جنون لا حدٌ له، فينهبون الديار التي لم يمسسها التدمير: يسرقون، ويتلفون المؤن، وينتهكون أعراض النساء على مشهد من أزواجهن، وأبنائهن، وإخوانهن، وفي كثير من الأحيان تؤخذ النساء إلى المركز العسكري ويتركن إلى جنود اللفيف الأجنبي والسينغاليين قبل أن يجهز عليهن بالرصاص! (المجاهد عدد 9 – 20 أغسطس 1957م).

شهادات واعترافات

نكتفي بعرض شهادتين من شهادات الجنود الفرنسيين، الذين شاركوا في تدمير القرى والدواوير وشاهدوا ذلك:

– إن تدمير القرى والعشائر متواصل، فقد رجع الطيارون بعد قيامهم بمأمورية الاستكشاف، وقالوا بأنهم لاحظوا من طائراتهم عدة قرى مدمرة تدميرا تاما، وهناك وحدات من الجيش تعودت على تديمر الديار المجاورة عقب كل كمين يقع لهم، وأصبحت هذه العادة معمولا بها في سائر أنحاء القطر الجزائري (المجندون يؤدون الشهادة ص 65).

– في أوائل أكتوبر، خلال كمين بالقرب من مدينة (سانتوجان) قتل عدة جنود فرنسيين كما جرُحِ آخرون، وللأخذ بالثأر لهؤلاء الجنود أمر الملازم بتهديم ثلاثة قرى وقتل جميع الرجال من سكانها، وفيما يخص هذا الحادث فإن بعض التحقيقات تؤكد بأن جميع السكان بما فيهم النساء والأطفال قتلوا عن آخرهم. (المجندون يؤدون الشهادة ص 32).

الحرائق

عمليات الحرق شائعة ذائعة خلال حرب التحرير، الهدف منها أيضا إبادة الشعب الجزائري الذي لا يريد أن ينثني أمام جيوش فرنسا الجرارة، وعتادها الحربيّ الهائل.

إن الخوف، والاحتقار، والقوة، والإبادة، هي التي تلائم هذا الشعب العنيد الذي يتأبّى الركوع ويُصرُّ على المقاومة!

إن الكلمات التي يطلقها علينا المستعمرون تدل على تصورهم لنا وتوحي بتصرفهم إزاءنا، إنهم يطلقون علينا الأسماء التالية: (المستعمرات، شعوب متخلفة، إفريقيا المحاطة بالأسوار، آسيا المنحطة، النمل البشري، الجماهير المخيفة، الديدان الوسخة، إلى آخر هذه الأسماء التي تدل على تصور الرجل (المتمدن) لنا!

ومن هنا فلا عجب أن يدوسونا بأقدامهم، ويحاولوا ما استطاعوا أن يبيدونا بمختلف الوسائل، فيشعلوا النيران في القرى والمداشر والمشاتي لنتحول إلى رماد!

شهادات واعترافات

في اليوم الذي قامت فيه مناورة التطويق، كنت أقوم بدور الاتصال في قرية مرتفعة، فشاهدت إحدى عشر قرية من القرى المطوقة تحترق والدخان يتصاعد للسماء من جميع المشاتي، وكلما تأججت النيران في المطاحن والبيوت الحقيرة الممتدة أمام نظري علمت منها حركة الفرقة وفي الأيام التالية عمَّ السلب والنهب جميع القرى حتى أن المحلات التجارية كلها أصبحت خاوية من محتوياتها، فالأموال سرقت، والبضائع أتلفت، أما النساء فقد جمعن في مكان منعزل للتأثير على رجالهن... ومنعن من الخروج حتى لقضاء الضروريات، وكان من ضمن رجال الاستنطاق ثلاثة من كتاب البوليس القضائي (ب. ر. ج) جاؤوا للاستعانة بهم فأخبروني عقب انتهائهم بأنهم حصلوا على نتائج من التي حصل عليها رجال الجيش الصبيان، ثم أخذوا يتهامسون بأن مائة وخمسين رجلا على الأقل اعترفوا بأنهم شاركوا أو علموا بالكمين الذي نصب ضد الملازم (ن) وتقرر رمي جميع هؤلاء الرجال بالرصاص بعد الانتهاء من العملية في الساحة العامة! (المجندون يشهدون ص 82).

النابالم في حرب الجزائر

الاستعمار وحش شرس قذر يدافع عن وجوده وبقائه بكل قوة، وبكل وسيلة، فالغاية عنده دائما تبرر الوسيلة.

والنابالم هو السلاح المفضل عنده استعمله في كوريا، وفي الفتنام، وفي الجزائر، ولماذا ؟

«إن النابالم هو سلاح تدميري شامل، ولكن يمكن في نفس الوقت تحديد مساحة مفعوله، وهو السلاح الذي يتيح للمستعمرين أن يحرقوا كل ما على الأرض، ولذلك فهو المثل الأعلى لأسلحة الدمار التي كان يحلم بها «بيجو» و «سانت ارنو» وكل غزاة الاستعمار الفرنسي!

وروح الاستعمار الغربي والعنصرية الغربية، والحضارة الغربية كلها إزاء الشعوب المستعمرة بناء على أن هذه الشعوب لا تفهم إلا بالقوة، وإذن فيجب ترويع هذه الشعوب، ويعلن المستعمرون صراحة في الجزائر: «إن الثوار يشيعون الإرهاب، وإن الخوف يجب أن ينتقل إلى صفوفهم» ، هذا ما قاله الأسقف الفرنسي «ساليج» سنة 1955 (عن منشور لمصلحة الدعاية والأنباء لجبهة التحرير الوطني).

إن المستعمرين الفرنسيين ظلوا يستعملون النابالم طوال حرب التحرير وهم الذين كانوا يستنكرون أعمال القائد الأمريكي «ماك أرثر» في سنة 1951 ، ولكنهم نسوا ذلك في حرب الجزائر واستعملوه، أما أمريكا فإنها تزودهم بهذه المادة من وراء الستار.

فكم من مجاهدين صاروا رمادا بهذه المادة وآخرين شوهوا إلى الأبد نذكر منهم على سبيل المثال: الهادي الخماشي، وكافي عمار، وأرزقي كريم، شقيق كريم بلقاسم!

شهادات واعترافات

– جاء في العدد 49 من (كراس) الشاهد المسيحي في زاوية يوميات القائم مقام (س) في صفحة 51 ما يلي:

«... يوم 1958/8/25 إن وسائلنا مهولة، فلكي نفتح الطريق أمام قافلة كنت أقودها، تحصلت على 3 سيارات جيب و 4 سيارات شحن، و5 آلات راديو، وطائرة استكشاف وقوة نارية كنت أسيرها بواسطة الراديو، و4 سيارات رشاشة، وإلى جانب كل ذلك قوة احتياطية، وقوة مدفعية مستعدة في كل لحظة للاستعمال ضد الغيران والكهوف وعندنا أخيرا أوعية خاصة (تحمل النابالم الذي هو سلاح مستعمل بصفة عادية).

– وصدر كتاب: «الجزائر عمرها 20 عاما» أحرز على «جائزة الحقيقة» لسنة 1960 كتبه «آلان مانيفي» المراسل السابق في مصلحة الصحافة التابعة للجيش الفرنسي وتحدث فيه عن رحلة في شرقي الجزائر، ص79، فقال:

«النار.. النار في كل مكان، في المرتفعات نشاهد خطوطا هائلة من الحرائق تهاجم الجبال، وتصعد إلى الغابات، وأبعد من ذلك نشاهد النار أيضا، إنها حرائق مهولة في ساحات شاسعة بعيدة، إنها حرائق النابالم التي تشتعل، إنها جبال بأكملها تحترق حتى لا يأوي إليها الثوار!

– كتب «جان لاكوتر» في صحيفة «لوموند» عدد 13 سبتمبر مقالا جاء فيه بالخصوص:

إن هذه السلسلة الطويلة من جبال البيبان قد أصبحت تشبه أسدا هرما من فرط ما عانته من حرائق النابالم الرهيبة!

وهذه صورة فوتوغرافية للمقال المذكور:

النابالم في جبال « البيبــان » ...

بقلم جان لاكوتر في صحيفة (لـوموند) عـدد 13سبتمبر 1958

A UN SECTEUR P

De notre envoyé spécial
JEAN LACOUTURE

tout état de cause, positive et fructueuse, quel que puisse être demain le statut de l'Algérie — intégrée, indépendante, partagée ou fédérée...

**

Palestro, Bouira, les Portes de Fer, Mzita : nous avons quitté la lourde atmosphère d'Alger, ses complots et ses silences. Mais la route n'a été qu'un dur rappel de quatre années de guerre dans quelques-uns des secteurs les plus meurtriers de la frange ouest et sud de l'âpre Kabylie. Pour l'officier qui nous accompagnait chaque étape, ou presque, était liée à la mort d'un ami.

Sitôt troquée la jeep pour l'hélicoptère, et oubliée la première griserie de toute-puissance que procure cette étrange bulle d'air qui vous projette dans l'espace, bondissant et libre comme un animal mythologique, le combat réapparaît plus proche, plus obsédant encore, plus familier. Cette chaîne des Bibans, qui se hérisse sous nos pieds fauve et chauve comme un vieux lion, striée des terribles coulées noires que fait le napalm, porte à son flanc la

هذه الصورة فوتوغرافية من المقال المذكور، وقد جاء فيها بالخصوص مايلي : إن هذه السلسلة الطويلة من جبال البيبان قد أصبحت تشبه أسدا هرما من فرط ما عانته من حرائق النابالم الرهيبة.

– وسئل ضابط من جيش التحرير الوطني عما جرى في معركة الونشريس وتحدث عنها، وعن استعمال النابالم فيها قال بالخصوص: «والنابالم اليوم مستعمل بكثرة، وعندما نشتبك مع العدو ونحتل المرتفعات فيصعد إليها العدو، وعند الطلقات الأولى من جانبنا ينسحب الجنود الفرنسيون ويبدأ سلاح الطيران في العمل مستعملا الرشاشات أو إرسال لهيب النابالم من الطائرات الثقيلة من (ب 26) والخطة التي يتبعها المجاهدون في هذه الحالة هي أن يلتصقوا بالجيش الفرنسي المنسحب ويلاحقوه، وعندئذ ينصب النابالم على المرتفعات المهجورة، وهكذا فإن خُطط حرب العصابات وسرعة الحركة هي التي تمكننا من النجاة من النابالم (عن منشور لجبهة التحرير الوطني بعنوان: النابالم في الجزائر).

الفصل العاشر
الخونة العملاء أو الحركة المرتزقة

تمهيد

إن الإنسان إذا طرح من حسابه كلَّ القيم: الدينية، والأخلاقية، والوطنية، هان عليه كل شيء: هان عليه دينه، وهان عليه وطنه، وهانت عليه نفسه، وهذا حال الخائن، وهو يناصر أعداء وطنه، ويستهين بشعبه، ويستميت في تثبيت أقدام المحتل البغيض في أرض آبائه وأجداده!

وإننا نتسامح في المعاني والدلالات، حينما نصف هذا الخائن بكل نعوت الخساسة والدناءة، والقذارة، إذ هو مجمع ذلك كله وأكثر من ذلك!

وحسبنا أن نقول: إن الخائن لوطنه، قد باع بأبخس الأثمان عقلَه وقلبَه وضميرَه للاستعمار، عدوِّ وطنه اللدود! واستحق بذلك عقابين: عقابًا في الدنيا هو هذا الضياع بين الموت والحياة، وعقابًا في الآخرة هو عقاب (الأخسرين أعمالا الذين ضلّ سعيُهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)[1]

المؤلف

---

(1) الكهف 103 ـ 104.

فظاعة الخيانة

ولكي نجسّم –للقارئ الكريم– فظاعة خيانة الوطن وبشاعتها –وإن كانت واضحة كالشمس لا تخفى إلا على من أغمض عنها عينيه، يجب إفرادها بكتاب ضخم، ولحقارتها وقذارتها تكفي بشأنها كلمات، لأن المقام يتطلب التشنيع بها وبأهلها حتى يتجنبها العاقل ويتقيها، وإليك أولا هذا النوع من الخيانة.

إن بعض باعة تذاكر الحافلات العمومية –مثلا– يبيع التذكرة الواحدة مرتين أو أكثر، ولا يدفع للشركة إلا ثمنا واحدا وهذا من الخيانة، فانظر في ضوء هذا النوع من الخيانة خيانة الوطن، ولعل خير من يجسم خيانة الوطن وخطورتها وبشاعتها الإمام جمال الدين الأفغاني في الكلمة التالية ونكتفي بها في هذا المقام، قال رحمه الله:

«لسنا نعني بالخائن من يبيع بلاده بالنقد ويسلمها للعدو وبثمن بخس أو بغير بخس (وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس)، بل خائن الوطن من يكون سببا في خطوة يخطوها العدو في أرض الوطن، بل من يدع قدما لعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها. ذلك هو الخائن في أي لباس ظهر وعلى أي وجه انقلب، القادر على فكر يبديه، أو تدبير يأتيه لتعطيل حركات الأعداء، ثم يقصر فيه، فهو الخائن، من لم يستطع عملا وأمكنه أن يرشد العامل وتهاون في النصيحة فقد خان، من سوّف عمل اليوم إلى الغد، وتوانى في تضليل كيد الأعداء بقول أو فعل، فقد ارتكب خطيئة الخيانة، وكل خائن لوطنه أو ملته فهو ملعون على ألسنة الأنبياء والمرسلين، وممقوت في نظر العالم أجمعين!».

ما أعظم جريمة الخيانة (المساهلة في شؤون الأوطان) يأتي الزمان بطوله على كل شيء فيمحو أثره، ويطمس رسمه، إلا وصمة الخيانة، فلا تطويها الأدهار، ولا يخفيها تطاول الأعصار، محيت أسماء العظماء، والملوك والسلاطين ، ولكن لم تُمحَ أسماءُ الخائنين، لوث على وجه الزمان، ودرن في صفحة الأمكان، مكتنفة باللعنة، محفوفة بالمقت إلى أبد الآبدين، لا يحيط القلم بوصف الخائن وما يتبعه من الشنائع، ولكن النفوس مهما تدانت في الإدراك تشعر بعظم جرمه. (العروة الوثقى ص 188).

الخونة العملاء

هذا وصعب عسير، أن نلوث قلَمنا هذا الذي كتبنا به عشرات الكتب وآلاف المقالات والأبحاث والدراسات عن الدين، والأدب، والأخلاق، وسيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وسِيَر الصحابة الكرام (رضي الله عنهم)، وبطولات المجاهدين الأجداد والأحفاد، ومواقفهم المشرقة، وقصص خوارِقهم المثيرة، الذين ارتفعت وطنيتُهم إلى مقام العقيدة الدينية الصوفية، فاتحد وجودهم بوجود وطنهم.

– عزيز علينا أن نلوث هذا القلم بالحديث عن العملاء، الخونة الذين باعوا وطنهم للعدو بثمن بخس، وتجنّدوا لمحاربته، واستطابوا حياةَ الذل والهوان، وركنوا إلى أعداء وطنهم، ويظاهرونهم عليه، ويبذلون معونتهم إليهم، ولا يرون الحياة إلا في ظلالهم وتبعيتهم!

لقد قلنا ونقول في المستعمرين الفرنسيين إنهم ظلمة مجرمون، لِئام أشرار، أوغاد سفلَة، أعداء السلام والأمن، فماذا نقول في هؤلاء الذين

بلغت بهم الدناءة والسفالة، وفساد الفطرة، أن يرتطموا في وحل الخيانة، ويتمرغوا في الذل والعار، ويعلنوا أنهم مع أعداء الوطن، دون أن يستشعروا أي خوف من الله، وأيّ خجل من الناس أو أن يقرأوا للعواقب أيّ حساب!

هل يكفي في هؤلاء أن نقول إنهم جراثيم آدمية، وحشرات سامة، وأوبئة فتاكة، وقروح في أجسام الفئرة؟

إن ذلك طبعا لا يكفي، فلو جمعنا كل ما تفرّق في مختلف المعاجم، من نعوت وأوصاف قبيحة، وأطلقناه عليهم لكان ذلك قليلا في حقهم!

وإذا كانت مخازي هؤلاء في ثورة التحرير لا تعد ولا تحصى، فحسبنا أن نسوق موقفا واحدا جرت وقائعه في إحدى القرى ببني جناد (القبائل الكبرى) وها هو بإيجاز:

في إحدى عمليات التطهير التي يقوم بها الجيش الفرنسي في هذه المنطقة، أراد ضابط أن يغتصب إحدى الفتيات فقاومته بشدة وكادت تتغلب عليه، ولكن أحد هؤلاء المناجيس انبرى بقوة، وأعان عليها الضابط حتى تمكن منها!

إن هؤلاء الخونة قد بلغ عددهم سنة 1961 (60000) حسب صحيفة المجاهد عدد 89 – فيفري 1961.

وهم يكوّنون قوة لا يُستهان بها نظرا إلى عددهم، وعتادهم، ومعرفتهم بأرض الجزائر وطبيعتها، وأهلها وأخلاقهم وسلوكاتهم، وما يحبون وما يكرهون.

وقد بذلوا كل ما في وسعهم من أجل أن تنتصر فرنسا، فلم يبخلوا عليها بشيء يقدرون عليه، فكانوا طوال ثورة التحرير عيونَها التي تبصر، وآذانها التي تسمع، وأيدها التي تبطش، ومع ذلك فهم في نظر فرنسا خونَة مهما أخلصوا لها وخدموها، وضحوا في سبيلها، واستهانوا بوطنهم، وخانوه وحاربوه مع أعدائه، فليس لفرنسا فيهم أية ثقة، وتحتقرهم كما تحتقر البهائم والحشرات، وتعتبرهم آلات تقضي بها حاجتها، وتحقق بها هدفها ثم تستغني عنها وترميها رمي النواة!

وانتصرت الجزائر بفضل الله أولا وبفضل وحدتها وجهادها البطولي الصامد ثانيا، وخرجت فرنسا منهزمة مخذولة تلاحقها لعنات كل جزائري وجزائرية، وكل أحرار في العالم، وكان هؤلاء الخونة يظنون أن فرنسا لن تتخلى عنهم، وأنها ستجازيهم على أعمالهم خير جزاء،و وتفتح لهم صدرها، وتبوئهم المكانة اللائقة بهم، وتوفر لهم أسباب الحياة، حتى يعيشوا في رخاء ورفاهية، ويرتعوا في مراعي خصيبة هم وأولادهم وأحفادهم.

ولكن كل هذا، بل أقل من هذا لم يقع، لأنهم خونة مرتزقة، ومن هنا فلا بد أن يقذف بهم إلى فرنسا نكرات مجهولة يعتصرهم الألم، لأنهم خانوا وطنهم، بل لأنهم كانوا مع فرنسا يوم الشدة ولم تكن معهم يوم الرخاء!

إن هؤلاء سيظلون عبرة للمعتبرين، خانو ا وطنهم فخسروا دينهم ودنياهم، فكانوا كما قال الله تعالى: (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنُعا، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) (الكهف 103 – 105).

إن أقلّ ما يجازى به هؤلاء المناكيد، الذين لا أخلاق لهم ولا إنسانية ولا ضمير أن يعتبرهم الشعب الجزائري أعداءه اللدّ، ما داموا أحياء، وأن ينظر إليهم نظرهُ إلى الأشياء التافهة، والكلاب القذرة، وأيُّ تساهل معهم، أو أية رأفة وإشفاق بهم، يعد خيانةً للوطن وشهدائه وتاريخه، وأمجاده!

الخاتمة

من عاش بعيدا عن ثورة نو فمبر التحريرية يستعظم ما قدمناه في هذا الكتاب من جرائم فرنسا في الجزائر ويقف إزاءه مشدوها مدهوشا، وربما ظنَّ أن فيه مبالغةً وتهويلاً، ولكن من عاش هذه الثورة وتقلب بين نيرانها، وشاهد غلاة الاستعمار الفرنسي وهم يعيثون في الأرض فساداً، ويتدافعون وراء النساء والشيوخ والأطفال ليسحقوهم بالدبابات، ويمزّقوهم بالرصاص، ويُسوّوا الأرض بجثثهم، أو هم يتدافعون أمام البيوت لهتك أعراض حرائر الجزائر، وعلى بصائرهم أغشية الجهل والسفالة والبهيمية.

أما هذا فإنه يعلم أن ما قدمناه في هذا الكتاب ليس إلا غرفة من بحر، وذرة من رمال، ولكنه مع قلته كافٍ في أن يجعل نار الكراهية للاستعمار في قلوب أبنائنا -بالخصوص- تظلُّ مستعِرَّة متقّدة، ويجعل جرائم العسكريين الفرنسيين تنتقش في أعماقهم، وتتثمل أمام أنظارهم على الدوام!

وعلى الشعب الجزائري بمختلف فئاته وشرائحه، أن لا ينسى الثمن الغالي البهيظ الذي قدَّمه مهراً لحريته واستقلاله، وهو ما دام يتذكره ويُقيم له وزنا، في مأمن من كل أنواع الاستعمار وألوانه وأشكاله!

لقد كان الشعب الجزائري خلال ثورته التحريرية موحد الصفوف، موحد الكلمة، موحد الهدف والاتجاه، ومن هنا كان مصير الاستعمار الفرنسي -مع قوته، وجبروته، وتمكنه- الهزيمة النكراء، هان وضعُف واندحر لظلمه وبَغْيه. ومُناهَضتِه لسنن الله الكونية، ولأن الشعب الجزائري أيضا قد أتى البيت من بابه، وسلك الطريق الموصلَ إلى هدفه،

وجاهد بالصبر والصدق والبسالة والاستماتة، وفجرٌ النور من مختلف الأرجاء، والآفاق، (فهربت الخفافيش التي يُعميها النور، وبادت الجراثيم التي يقتلها الطهر)، ووقفت الجزائر عالية الرأس، وضاّحة الجبين، تعْلِنُ للورى أنها قد أخرجت من أرضها الطيبة عدوّها الفاجر محسورا مدحورا كما أخرج الله إبليس من الجنة – افتك إعجاب العالم بانتصاره كما افتك إعجابه بثورته!

فعلى الأبناء والأحفاد أن يستوعبوا الدرس، ويفهموا جيداً أن هذه الحريّة التي ينعمون بها لم تُهدَ إليهم، وإنما افتكّها أجدادهم وأبناؤهم بالقوة، ومدُّوا جماجمهم وأشلاءهم جسراً إليها، وأن المحافظة على هذا الكسب العظيم أصعب من نيله!

وعبرة العبر أن (النفوس التي قتلت خِلال ثورة التحرير، قد عوّضتها الوِلادة، والديار التي هدمت جدَّدتها العمارة، والزروع التي أُهلكت أعادَها الغِراس، ولكن قتيلا واحدا لن يعوَّض، لا بالولادة، ولا بالعمارة ولا بالغراس، ألا وهو شرف فرنسا الذي ضاع في بحر الجرائم، وأوصال الفساد، وتحت الأطلال، وفي سيول الدموع والدماء، وفي مقابر الشهداء!)

وأخيرا إن الشعب الجزائري قد ارتقى بثورته التحريرية إلى قمّة المجد، وسماء العلا، بفضل شجاعته وتضحياته وصبره واحتماله، فليكن أبناؤه اليوم في مستوى ثورته وانتصاره، غيرةً على المكاسب، وكراهية للاستعمار وعملائه، أما فرنسا فإنها بهذه الثورة انحطّت إلى الحضيض، وتسفلت إلى الدرَك، وفي هذا أو ذاك عبرة للمعتبرين، وآية لذوي النهى والبصائر!

دليل الكتاب

الإهداء 03
كلمات في الصميم 05
المقدمة 07
الفصل الأول: الجزائر في التاريخ القديم 23
تمهيد 23
الفصل الثاني: الجزائر في ضوء الإسلام والسيادة 27
تمهيد 27
الفتح الإسلامي لبلاد المغرب 28
فتح إسبانيا بقيادة طارق بن زياد 30
المغرب العربي مناخ طيب ترعرع فيه الإسلام، وأثمر أرقى حضارة عرفها الإنسان: 31
في المجال العلمي والثقافي 34
في المجال الزراعي 44
في مجال الصناعة 45
في مجال الحياة الفنية 46
حرية الاعتقاد 46
الفصل الثالث: الجزائر في ليل الاستعمار الفرنسي 49
تمهيد 49
الاستعمار الفرنسي مخلوق طفيلي، مصاص للدماء! 50
استعمار كافر وشعب مؤمن 51

تفصيل بعد إجمال 53
نار في رماد 60
ثورة الأمير عبد القادر (1832 – 1847) 62
ثورة الزعاطشة (1849) 63
ثورة أبي بغلة (1851 – 1855) 63
ثورة محمد عبد الله بالأغواط (1852) 64
ثورة فاطمة نسومر (1854) 64
ثورة أولاد سيدي الشيخ (1864) 65
ثورة المقارنة (1871) 66
ثورة الأوراس (1916) 66
وقفتان للاعتبار: 67
الوقفة الأولى 68
الوقفة الثانية 69
الفصل الرابع: حروب من نوع آخر واجهت الجزائر خلال عهد الظلام 71
تمهيد 71
خطة جهنمية، وحروب متنوعة! 72
الحرب ضد العقيدة 73
الحرب ضد الإسلام، ومعالمه، ومقدساته! 74
الحرب ضد اللغة العربية 75
الحرب ضد أسماء الشوارع 75
الفصل الخامس: الدرس الأخير، طغيان المستعمر يوم 8 مايو 1945 77
تمهيد.. 77
مجزرة 8 ماي 1945 78
التخطيط للثورة وأخذ العدة لها! 79

الفصل السادس: الشعب الجزائري يفجّر ثورة التحرير 81
تمهيد 81
يوم أول نوفمبر سنة 1954 82
أثر الثورة التحريرية في الشعب الجزائري 87
وضع الجيش الفرنسي في الجزائر خلال حرب التحرير 94
جيش التحرير الوطني وإطاراته 100
مراكز القيادة 100
النظام العسكري 101
التركيب العام: مجاهدون – مسبلون – فدائيون! 101
من معارك جيش التحرير الكبرى: 102
معركة جبل العمور 103
معركة بوزقزة 104
معركة عنابة 104
هجوم (عين الزانة) 106
معركة (جيمال) 107
من معارك سد الموت 107
معركة جبل مَزّي 107
عوامل انتصار جيش التحرير الوطني 108
الفصل السابع: الثورة في زحف وإقدام، وفرنسا في وعود وأوهام 117
تمهيد 117
خطأ فرنسا وخيبة ظنها! 118
السياسة الفرنسية تجاه الجزائر وثورتها سنة 1956 119
تزايد القوات الفرنسية باتساع لهيب المعركة 121
حقائق ناصعة، تكشف الواقع، وتدحض الباطل 123

الفصل الثامن: فرنسا تقود حرب الإبادة في الجزائر 127
تمهيد 127
موجات من الاستنكار تذهب أدراج الرياح 128
موقف الأحرار من الإبادة 129
الإبادة بالتعذيب 131
وسائل التعذيب وكيفياته: 141
التعذيب بالكهرباء 142
التعذيب بالماء 144
التعذيب بالنار 145
التعذيب بالحديد 145
التعذيب بالحبل 146
وسائل أخرى للتعذيب 147
شهادات ضحايا التعذيب 152
نماذج إنسانية رائعة 165
شهادات واعترافات 167
تعذيب النساء 194
الفصل التاسع: الإبادة الجماعية 197
تمهيد 197
فكرة الإبادة ليست وليدة ثورة التحرير 198
الأحفاد على طبيعة أجدادهم، في الوحشية، واللؤم، والقذارة! 199
الإبادة للانتقام 202
شهادات واعترافات 203
الإبادة للتسلية 206

شهادات واعترافات 207
صور فظيعة من الإبادة الوحشية 209
شهادات واعترافات 210
التمثيل بالجثث 211
شهادات واعترافات 211
الإبادة عن طريق الموت البطيء 212
الإبادة عن طريق المجاعة المنظمة 213
شهادات واعترافات 213
الإبادة عن طريق التجمع أو محتشدات الموت 215
شهادات واعترافات 216
الإبادة عن طريق منع الأدوية عن الشعب 219
الهدم والتدمير 220
شهادات واعترافات 220
الحرائق 221
شهادات واعترافات 222
النبالم في حرب الجزائر 223
شهادات واعترافات 224
الفصل العاشر: الخونة العملاء، أو الحركة المرتزقة 227
تمهيد 227
فظاعة الخيانة 228
الخونة العملاء 229
الخاتمة 233

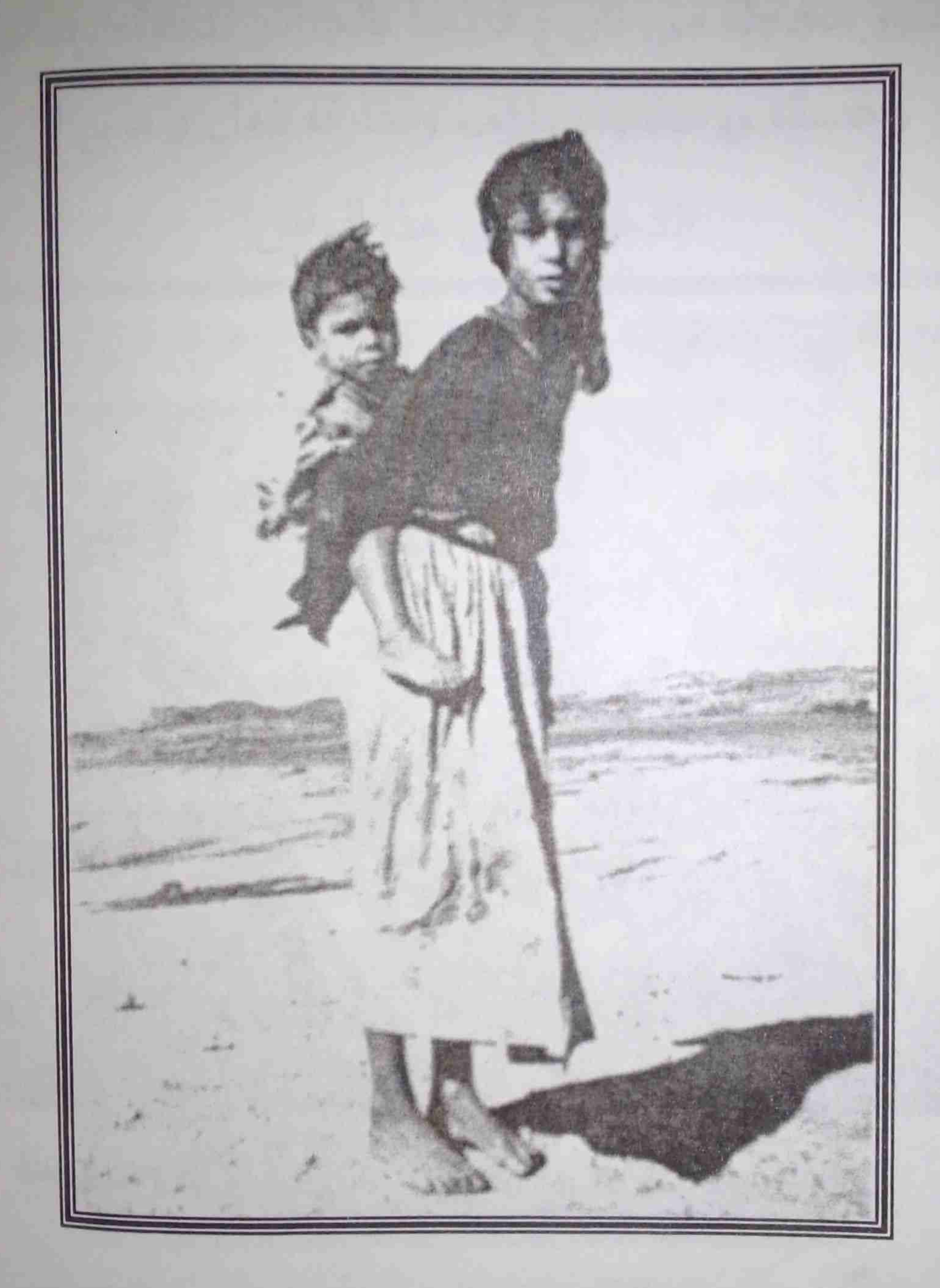
صور مخجلة من تاريخ فرنسا بالجزائر (دناءة، ونذالة، وخسة، ووحشية، ولؤم، وقذارة، فهل ينسى إلا الدخيل على هذا الوطن؟



بمثل هذه الجرائم النكراء كان الفرنسيون يريدون أن يخمدوا الثورة !!!



ابناء باريس وهم يقومون برسالة التمدين في الجزائر خلال حرب التحرير



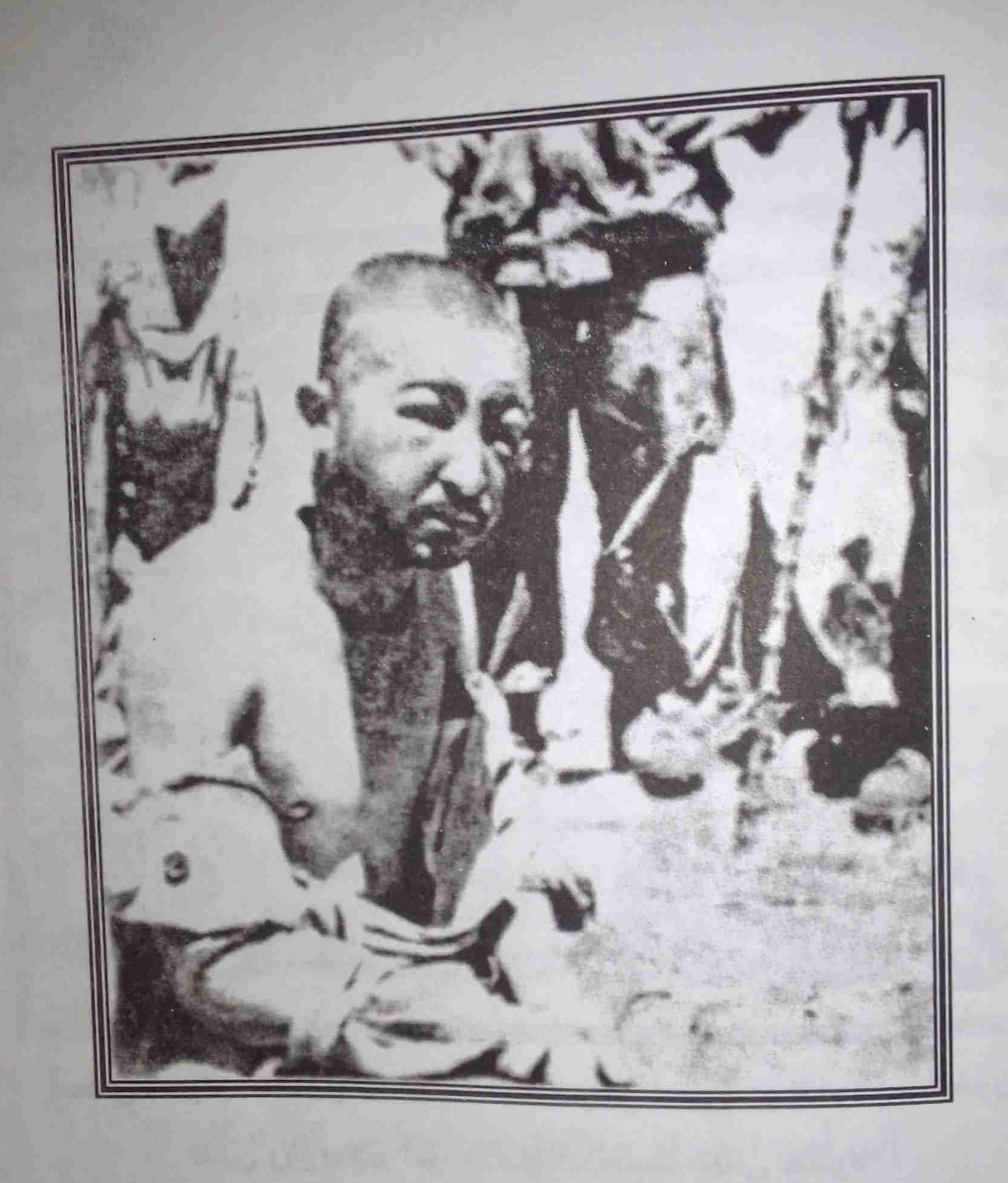
ماذا جنت هذه ؟ لقد فقدت جميع أفراد اسرتها في حملة إبادة
وهامت بأختها تحت قنابل الطائرات ... ولكن إلى أين ؟



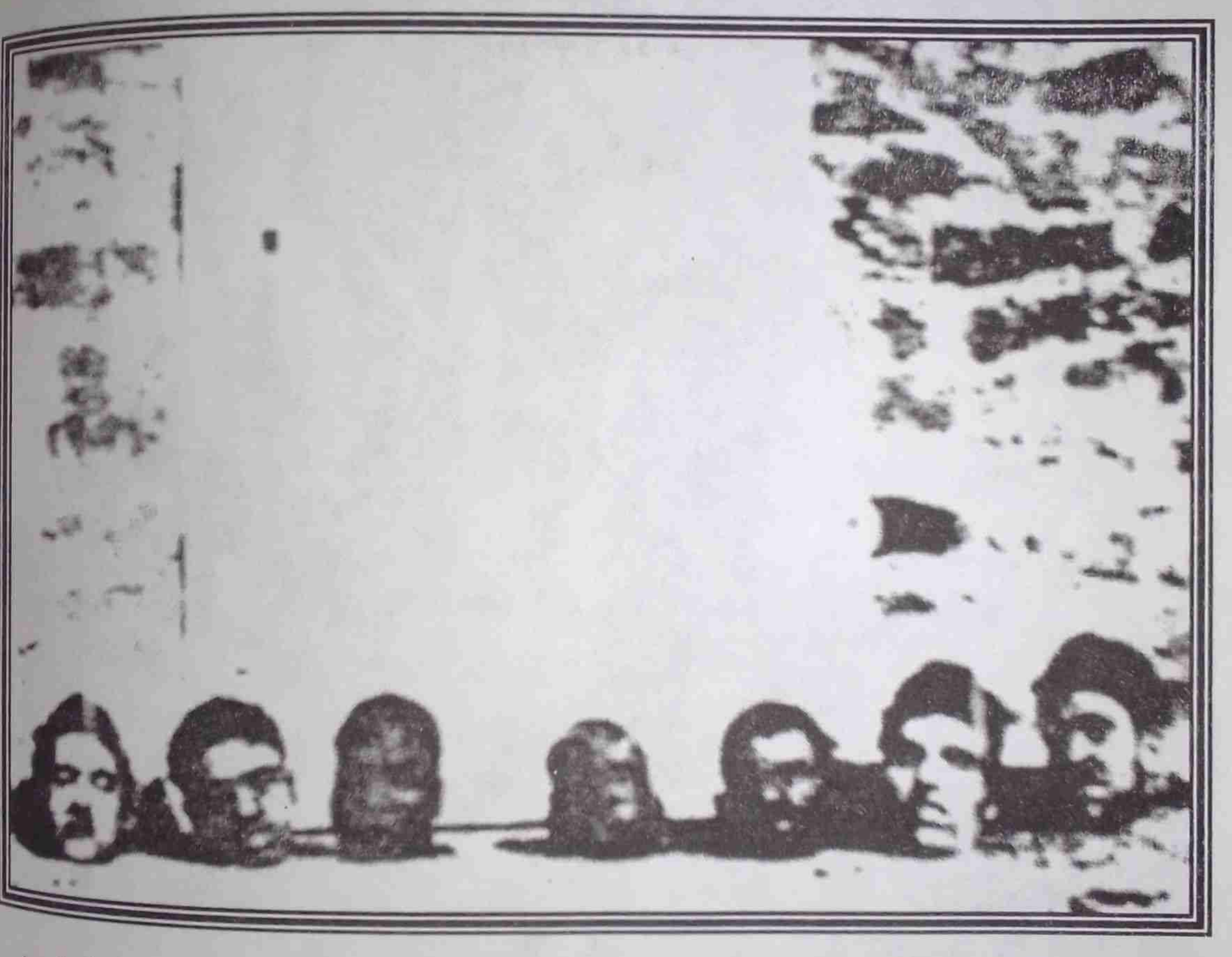
الراعي الحزين... يتذكر كيف قتل أبوه وعمه وأخوه



شهيد مات اثر التعذيب في الجزائر



هكذا ينتفخ الإنسان أثناء التعذيب وتغيب جميع ملامحه



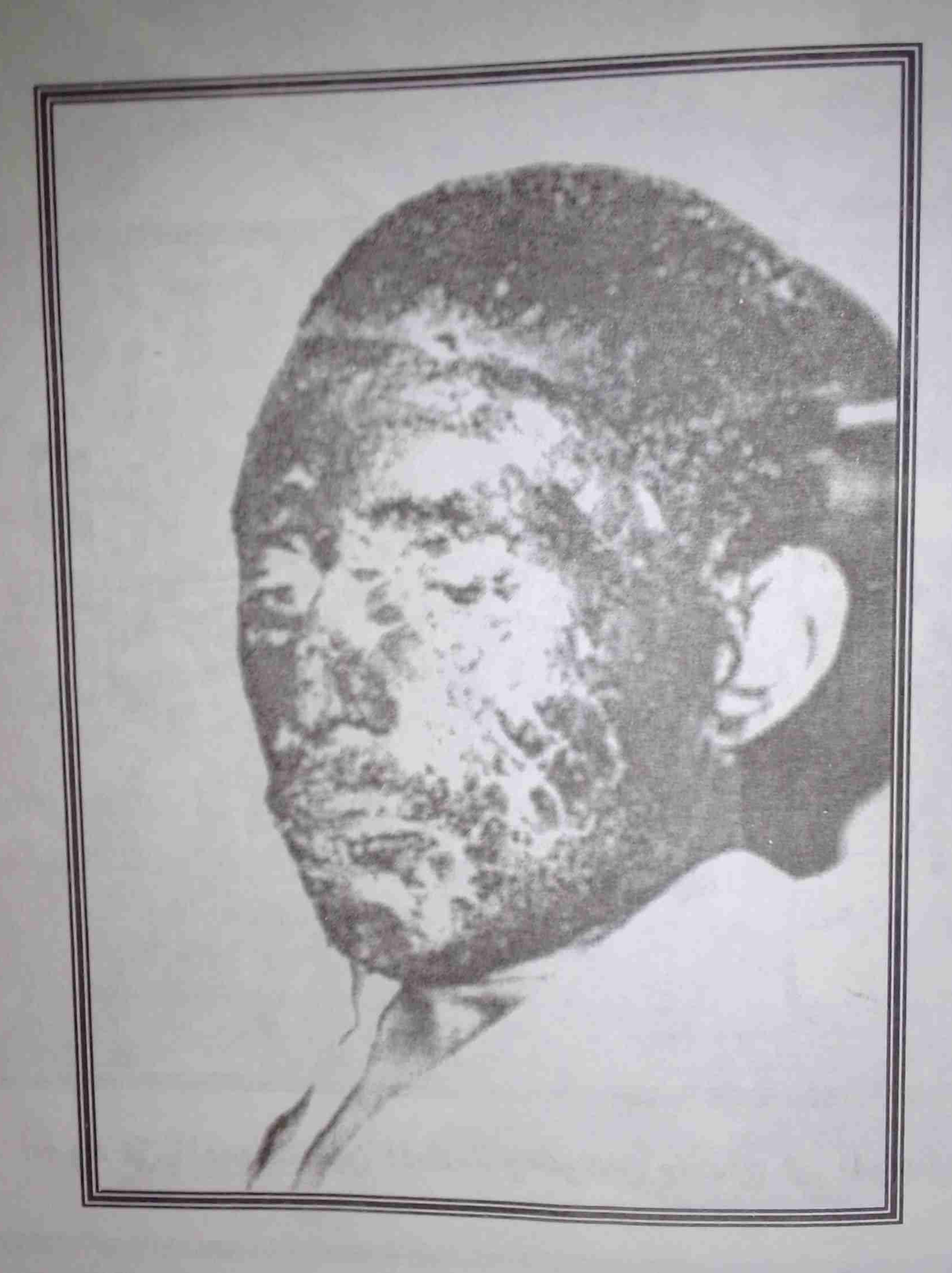
أبطال أحرار.. دفنهم الطغاة المستعمرون أحياء... وظلوا يسلطون على رؤوسهم أنواعا من التعذيب حتى ماتوا.



إلى أين الفرار وقنابل فرنسا في كل مكان !!!



هكذا تحولت الجزائر إلى محتشدات للموت البطيئ



هكذا يتحول جسم الإنسان بقنابل النبالم إلى فحمة..



أسود في البيوت بين النساء وخرفان ونعاج في الجبال



حتى هذا الشيخ المسكين شملته العدالة الفرنسية فحرمته وحيده.....



يتلذذون بمنظر جث أبناء الجزائر وقد مزقت و مثل بها أفظع تمثيل



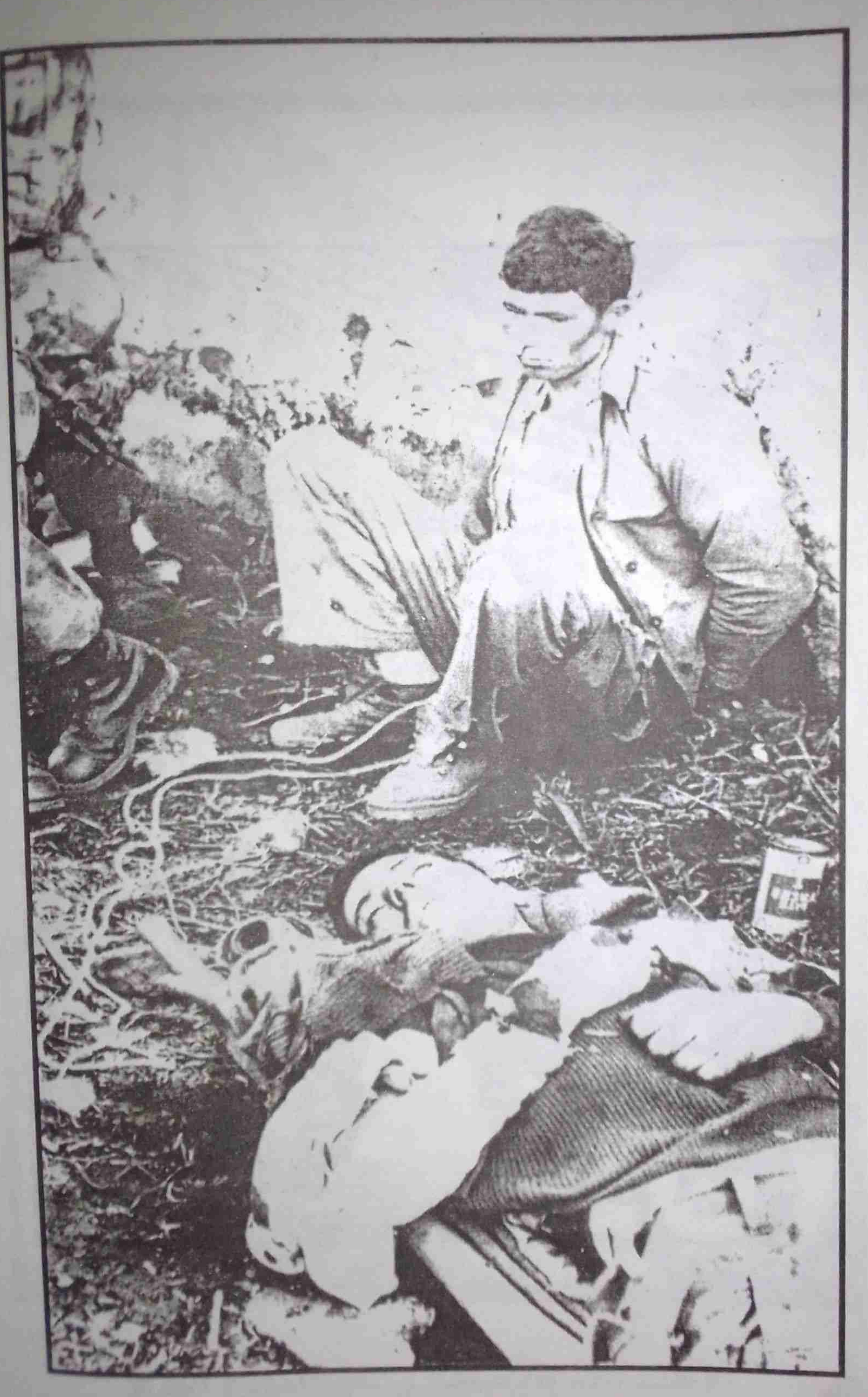
يقتلون المدنيين ثم يتنقلون في القرى لنشر الرعب والهلع



الاحتفالات بالاستقلال بعد الكفاح المرير



ثلاثة أبطال من جيش الإحتلال يسوقون هذا الطفل إلى العذاب.. ثم إلى الموت!



قتيل وأخر ينتظر المصير



فتاة في رعان شبابها قيدت بالسلاسل و الأغلال بعد أن عبث (رسل الحضارة) بشرفها !



هكذا يعبث الأوغاد بنسائنا -فهل تنسى هذا ايها الشعب الجزائري الغيور؟

طبع بمطبعة دار هومه– الجزائر 2009
34، حي لابروبار – بوزريعة – الجزائر
الهاتف : 021.94.41.19 /021.94.19.36
الفاكس : 021.94.17.75 / 021.79.91.84
www.editionshouma.com
email : Info@editionshouma.com

هذا الكتاب

يقول " الفريد الوسيس هو رن":

-إذا كان الله قد خلق مستعمرا أسوأ من المستعمر الفرنسي فإنه لم يطلعني عليه، ولم يخبرني به.

ويقول . هنري سيمون .

" رأيت ضباطا يقومون على التعذيب بقلوب قاسية خالية من أدنى شعور، ولكثرة احترافهم للتعذيب أصبحوا اختصاصيين فيه "

ويقول الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر "

سعداء هم أولئك الذين ماتوا من غير أن يضطروا أبدا إلى التساءل: أتراني أتكلم إذا هم نزعوا لي أظافري؟ وأكثر سعادة منهم أولئك الذين لم يجبروهم لم يكادوا يفارقون الطفولة على أن يتساءلوا هذا السؤال الآخر: ماذا تراني أفعل إذا عمد أصدقائي واخواني في السلاح ورؤسائي انتزاع أظافر عدو أمام عيني .. ؟

هذه أقوال قيلت في حرب التحرير الجزائرية وهي تصور المستعمر الفرنسي الفاجر في وحشيته وضراوته، في دناءته وسفالته في همجيته ووقاحته! أما كيف ينحط إلى مستوى تأباه أقذر الوحوش، حينما يمارس التعذيب على الجزائريين، وحينما يعبث بأعراض الحرائر، وحينما يسوي الأراضي بالمدنيين الجزائريين، فإن هذا الكتاب وما فيه من الصور يكشف عن ذلك !

وإذا كان المستعمر الوقح الفاجر قد صور الصور في زهو وافتخار، فإننا نقدمها في خجل وحشمة، مضطرين إلى ذلك لكي لا ننسى.

وهل ينسى ما فعله المستعمرون في الجزائر من جرائم وفظائع إلا عربي (بلا عروبة) . ومسلم (بلا إسلام) . و. أمازيغي (بلا أمازيغية) . و. موجود (بلا وجود !)

كيف ننسى وهذه جرائمهم



ISBN 978-9961-66-945-7 ردمك

دار هومه

للطباعة والنشر والتوزيع

34 حي لابروير - بوزريعة - الجزائر

الهاتف : 36 19 94 021   19 41 94 021

الفاكس : 75 17 94 021   84 91 79 021

www.editionshouma.com

e-mail:info@editionshouma.com